

مَدَامُ الْعَرَقِشَا

تأليف

الدكتور محمد مبارك

أن النساء منبع من منابع الشعر، والشعراء مدينون لمن بأفضل الصفات لديهم، وهي وصف شعور الناس. لأن الشاعر الذي يشعر بالحب، لا يتكلم عن نفسه فحسب، وإنما يجيع آلام العشاق، وأنينهم، فيتألم وينضمهم، وليس هناك أعذب من هذه الآلام، ولا أحب للنفس من مماع هذا الأنين. وليس الفزك في كلام العرب من المسائل المزلية: لأن الشعر الذي هو وحى النفوس أكثر ما يكون ظهوراً في التعبير عن الحب، ولأن العشق إدراك أكبر مظاهر الجمال في الكون، ومن لم يفتح الحب قلبه يوماً لم يدرك أسرار الحياة، ولم ير غير ظواهرها، ولم يتسرّب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال الوجود.

الدكتور محمد صنيف

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر — لصاحبها مصطفى محمد

«(C)»
الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠ م
تأليف الدكتور محمد مبارك

إهداء

مدامع العشاق

إلى تلك النفس التي لا يعنيتها من أمرى شيء ، والتي أخلفت
ما أتخلفت من الوعود ، ونسيت ما نسيت من العهود ، والتي
مُشِغلت بنعمة المال ، والجمال ، عما أقالبي من مِحْنَةٍ وعذاب ،
والتي ما أحسبني أطمع في أن تسكن إليّ ، أو تعطف عليّ ،
إلى تلك النفس الظلوم : أهدى هذا السفر الحزين !

ولست آملُ والحمد لله والحب ، أن تُتَوَجَّهَ بالقبول ، فإن
هذا أملٌ عزيزُ المنال ، وكل ما أصبو إليه : أن تنفخني من أجله

بظلمٍ جديد

فبعضُ الظالمينَ وإن تناهى * شهى الظلم مغفورُ الذنوبِ

زكى مبارك

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ١٤

آيةٌ كريمةٌ ، تذهب فيها النفس مذاهب شتى ، ولكني
أريدها لمعنى خاص : هو الحكم على الأقوال والأفعال
وبيان ذلك أننا نرى غيرنا يقول ، أو يعمل ، فنحكم عليه
بالبرِّ أو الفجور ، فتارةً نخطئ ، وتارةً نصيب . وأكثر
ما نكون شططاً إذا حكمنا على القول ، أو الفعل ، من غير أن
نحيط خبراً بظروف القائل ، أو الفاعل . وهي وحدها محور
الخير ، والشر ، والخطأ ، والصواب . فليست كل كلمة يكفر قائلها
كما يقول الفقهاء بمكفرة ، ما لم تشهد القرائن على أن قائلها
مُعاندٌ جحودٌ ، وليست القصائد الحمرة شهادةً على قائلها بالإثم
ولا قصائد التشبيب رمياً لصاحبها بالفسوق ، ولكن في الظروف

وحدها الحكم بأن الشاعر فاسق أو سكير !
ومتى عودنا أنفسنا البحث في الحالة النفسية للقائل قبل
البحث عن مدلول ما قال ، وأجهدنا في معرفة ظروف الفاعل
قبل تأمل ما فعل من مُنكر أو خيـث ، فقد تُرفع التهمة عن
كثير ممن مُحكم عليهم بالكفر والمجانة ، لكلمة ظاهرها الكفر
أو فعل ظاهره المجون

وليس في ذلك خروج على أصول الدين ، فقد قال عليه
السلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإتمام كل أمرٍ ما نوى » وليس
لمتعت أن يرَدَّ علينا بأن هذا خاصُّ بأعمال الخير ، لا الشر .
فانه كما يجوز أن يفسد الخير حين يُراد به شر ، كذلك يصلح
الشر حين يُراد به خير ، وتبقى التبعة على من يقصرون في إرشاد
الناس إلى نتائج أعمالهم ، ومالها من الضر ، أو النفع ، لتتأمل
النيات والأعمال

وإذا أباح لك حسن النية أن تحكم على رجل بالصلاح لغلبة
الخير على أقواله وأفعاله ، من غير أن تُلمَّ إمامةً بالأسباب
القريبة والبعيدة ، لما يعمل وما يقول ، وقد تكون نيته سيئة
فيحبط عمله ، فإن من الواجب أن تنظر بدقة إلى ظروف من
ساء قوله وعمله ، فقد تكون نيته حسنة فيرضى عنه علام الغيوب

إن علماء الغرب لا يحكمون على خُلُق المؤلف إلا بعد أن يتبينوا العصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي أحدثت به ، فقال منها ونالت منه ، لأَحْمال أن تسود كتابتهُ فكرةٌ كانت في عصره حسنة ، وهي في عصرنا سيئة ، فنحكم عليه بما هو منه براء

٢

ولنرجع الى الآية التي صدرنا بها هذا المقال (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فإنني لا أكتُم القراء أنني وجدت في مذكراتي كلمة لو قرأتها لغيري الآن لا نكرتها عليه . مع أنني أعرف أنني كتبتها من قبل ، وأنا نقي القلب ، خالص الضمير . ولقد تبدو تلك الكلمة ، وكأنها خطاب مفتوح لأهل الجلال ، وهي سذاجة طريفة ، تمثل عهداً من عهود الصبا ، خيّل إليّ فيه أن الحسن يجب أن يكون ملكاً لجميع العيون ، تستمتع به أمانة مطمئنة لا يمانعها فيه غيور ، ولا يحجبها عنه ضنين . وليس في مقدوري الآن أن أكتب مثل تلك الكلمة ، لأنني حرمت من تلك السذاجة ، وأطلعت من الناس على بلايا ومناكر ، يلوّم من بعدها الكريم ، وحاشاكى ! وسأفرض الآن أنني في العهد الأول من عهود الشباب ، وإن الناس كما كنت أحسبهم منذ سنين

أطهاراً برّزةً ، لا يجرّفون الكلمَ عن مواضعه ، ولا يتقوّلون
الأقاويل ، ولأذّكر طرفاً من ذلك الخطاب :

«يا أرباب الجبال !

ما لكم تضيّون علينا بما سوف يشبع الدود منه أنما ، ويأكله
التراب أكلًا لما ؛

كم صائتٍ عن قبلة خدّة * سلّطت الأرض على خدّه
وحاملٍ ثقل الثرى جيده * وكان يشكو الضعف من عقده
أما والله إن أرواحنا لفي حاجة إلى بعض ماتنم به الوسائد
من الخدود ، والمراد من الجفون ، والمساويك من الثغور ،
والأمشاط من الشعور ، والغلائل من الأعطاف ، والثرينة من
الأطراف ... فلم تحرمونا في حيننا لكم ، وإشفاقنا عليكم ، مما
تكرمون به الجناد ليلاً ونهاراً ، على أنه لا يعرف ما حفت به من
حُسن ، وأحرق به من جمال ؛

يا أهل الملاحة !

إن الله ما خلقكم كالأزهار ، في التفّار ، تزهّر ، ثم تذبل ،
ولا يتمتع أحد بشمها ، ولثمها ، وإنما خلقكم رَوْحاً لكل حيّ ،
ونعياً لكل موجود ، فاجعلوا لنا منكم حظاً ، ولا أقلّ من النظر ،

فقد خِفْنَا على أرواحنا أَنْ تَرْهَقَ بِيْخْلِكُمْ ، وَتَمُوتَ بِصَدِّكُمْ ، وَمَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ !!

يَا أَعْلَامَ الْحُسْنِ !

إِنْ كُنْتُمْ فَطَرْتُمْ عَلَى الْمِرَّةِ ، وَجُبِلْتُمْ عَلَى النَّخْوَةِ ، فَهَبُّوْنَا
بَعْضَ الْقَرَبِ مِنْكُمْ ، وَالْأَنْسَ بِكُمْ ، وَلَكُمْ مِنْهُ مَا تَشَاءُونَ مِنْ ذَلَّةٍ
وَأَسْتِكَانَةٍ ، وَخُضُوعٍ وَعِبُودِيَّةٍ ، وَقَدْ عَذَرْنَاكُمْ لِعَزَمِكُمْ ، فَارْحَمُونَا
لِذَلَّتْنَا ، وَعَشَقْنَاكُمْ لِحُسْنِكُمْ ، فَاعْشَقُونَا لِحُبِّنَا ، فَكُنْ فَيَ الْحُبِّ جَمَالًا
وَبِالْمَشَقِّ زِينَةً ، وَإِنْ الْحُبِّ الْمَمْلُولُ ، لَخَيْرٌ مِنَ الْحَيْبِ الْمَمْلُولِ ،
فَإِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا الصَّدَّ وَالْقَطِيعَةَ ، وَالْجَفَاءَ وَالْإِعْرَاضَ ، فَانَا نَبْشُرْكُمْ
بَأَنَّ الْحُسْنَ حَالٌ تَحُولُ ، وَدَوْلَةٌ تَدُولُ ، ثُمَّ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ !

أَوْرَدِيَّةُ الْخَدِيْنِ مِنْ تَرْفِ الصَّبَا * وَيَا ابْنَةَ ذِي الْأَقْدَامِ بِالْفَرَسِ الْوَرْدِ
صَلَّى وَاغْنَى شُكْرًا فَمَا وَرَدَةُ الرُّبَى * تَدُومُ عَلَى حَالٍ وَلَا وَرَدَةُ الْخَدِ

٣

وَلَقَدْ يَعْجَبُ قَارِئُ هَذَا الْخُطَابِ حِينَ يَرَى كَاتِبًا يَمْتَقِدُ أَنْ
الْجَمَالَ مِلْكَ الْعِيُونِ التَّوَاظُرَ ، وَأَنَّ الْبُخْلَ بِهِ إِثْمٌ وَعَقُوقٌ ، وَلَكِنَّهُ
لَوْ تَرَوَى لَعَرَفَ أَنَّ النَّفْسَ الطَّاهِرَةَ كَثِيرَةُ الشُّطْطِ ، وَأَنَّ صَاحِبَهَا

لا يسلم من الإسراف ، ورحم الله ذلك العهد الذي كنت أعيش فيه
بأملٍ غير محدود ١١

ليالى لا تنجو بنبلى خريده * وإن عزّ حاميتها وجمّ عديدها
إذا مارمتنى ذات دلّ رميتها * بعين لها منها مُقيدٌ يقيدُها
على أننى لا أمتنعُ أحداً من أن يسىء الظن بما كتبت منذ
سنين ، فإنّ الذى يطمع فى معرفة النفس البشرية ، لا يخل بوضع
نفسه على المشرحة ، ليسهلّ عايه وعلى غيره التحليل ، ومثله فى ذلك
مثل الطبيب المخلص لعله ، لا يخل بتضحية نفسه وهو يفحص
صرعى السلّ والتيفوس ، فهل يعقل هؤلاء الذين يطيعون أهواءهم ،
وشهواتهم ، فينسئون أنفسهم ، ويسلقون إخوانهم بالسنة حِداد ؟
إن قليلاً من الروية والاناة لكافٍ لسلامتنا من الزلل
والعثار ، حين الحكم على ما يعمل الناس وما يقولون



وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل أسرف الكاتب
حين تمّ بنشر مدامع العشاق فى جريدة الصباح سنة ١٩٢٢
وافتحها بهذه الكلمة الجرئة ، موجهة الى إحدى العذارى
« قُضِيَ الأمر ، وأصبحت حياً كيت ، وموجوداً كمعدم ! »

فاضرتني لوأذنت هذا الحب ، وما أتق هواك مني ما أسمع به
ملاماً أو أرى وجه عذول ؟

على أن قلبي يحدثني بأن الإشادة بما بيننا من هوى قد تزيد
حقاً الحاقدين ، وما الى ردعهم سبيل ! وأنت المعنية بهذا
الإشفاق ، أما أنا فاكنت لارهب قوماً لاسلاح لهم غير القيل
والقال

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي * وهؤوا بقتلي يابئين لقوني
إذا ما رأوني طالماً من ثنية * يقولون : من هذا وقد عرفوني
وبعد فانه لم يبق ما أسكن اليه في هذا الوجود غير حديث
الحب ، وبلايا المحيين ، وقد رأيت أن أساير شعراء العرب في
أعذب ما جرى على السنتهم : وهو النسيب ، وأن أبدأ ذلك بما
أنتهوا اليه ، وهو الحديث عن الدموع ، وما لها من سبب قريب
أو بعيد ، حتى اذا هدأت ثورة القلب بعد هذا الدمع المسفوح ،
عدت فصاحبت الشعراء ، وذكرت كيف فتكت بهم النظرة
الأولى ، وبيئت متهوى عيونهم ، ومصرع قلوبهم ، بين الحدود
الفواتن ، والعيون الفواتك ، ولن أخرج من ذكر ما كان من
الوقائع بين الخصر النحيل ، والرذف الثقيل ، وعلى وحدي إثم
الفتنة التي ستقيمها هذه الأبحاث الشائقة في صدور الشباب

والكهُول ، ولمن شاء السلامة من القراء أن يكف منذ الان
عن قراءة هذا الحديث

نصحتك علماً بالهوى ، والذي أرى * مخالفى ، فاختر لنفسك ما يحلو



وهذا خطاب أقل ما يؤخذ عليه أنه لا يُوجّه إلى فتاة ، فضلاً
عمّا فيه من المجازفة ، في حمل إثم الاثنين ، وفتك الفاتكين ، ولقد
آدتى آتالى ، فكيف أحمل آصار الناس !

ولم يمرّ ذلك الخطاب بدون أن تضجّ له إحدى الجرائد
الأسبوعية ، وبدون أن ينالني أحد الكتّاب بلسان حديد ،
فكتبت في الرد عليهم هذه الكلمة القاسية :

« في مصر قومٌ لا يعرفون من الجدِّ غير النطرسة والكبرياء
والكاتب الجادُّ في نظرهم هو الرجل السليط ، الذي يُخَيِّلُ إليه
كلما كتب : أنه قسيس في كنيسة حافلة ، أو خطيب في مسجد
جامع ، فهو مستول عن سرِّ الرذائل وعدِّ المنكرات ؛ فأما
الكتاب المفتون بما أودع الله هذا العالم من روائع الحُسْن ،
وبدائع الجمال ، فهو في رأيهم كاتبٌ ماجنٌ خبيث !! »

ولا أدري بماذا يجب هؤلاء لو سألتهم من خلق هذه

الصُّورَ الجليَّة ، التي طارت بألباب الشعراء ؛ وصيِّرَهم في كل
وادي يهيمون ؟ أترام يقولون إنها من خلق الله ، أم من خلق
الشیطان ؟ فإذا كانت من خلق الله ، فَلِمَ ينكرون علينا أن
تتغنى بصنعه البديع ؟ وإن كانت من خلق الشیطان ، فَلِمَ
لا يمحون الحُسْنَ من وجوه الحسَّان ، لأنَّه من عمل الشیطان الرجيم ؟
أمنت بالله وكفرت بما لهم من منطقي مقلوب !

يريد جماعةٌ ممن أظلمت الدنيا في وجوههم ، وعمُوا عن صنْع
الله الذي أتقن كلَّ شيء ، ماذا يريدون ؟ إنهم يريدون أن أُجاريهم
في عميَّتهم ؛ وأن أُسائرهم في جهالتهم ، فلا أُكتب في غير
ما يروقهم من ذمِّ الدنيا ، والتبرُّم بالوجود !! ولكني عرفت ما لم
يعرفوا من « أفنان الجمال » في هذه الدنيا البديعة التي حملت
الغزالي على أن يصرِّح بأنَّ ليس في الإمكان ، أبدع مما كان
فعدتُ خليفًا بحمد الحُسْن ، والتقديس له ، كلما أمعنوا هم
في الجحود !

يقولون إن مدام العشاقي التي أنشرها في جريدة الصباح
مما يفسد الشباب ، وذلك منهم جهلٌ بأسرار الجمال ، وماله من
الأثر في تهذيب النفوس ، وتثقيف العقول . ويهدِّدون
ويؤعدون بالويل والثبور ، إذا أنا مضيت في هذا البحث الشائق

الطريف ! فهل حسب هؤلاء السفهاء أنى أكتب لهم حتى
أنزل عند رأيهم السخيف المأفون !

أيتنا أن نطيعكم أيتنا * فلا تلقوا نصيحتكم إلينا
ركبنا فى الهوى خطراً فإمماً * لنا ما قد كسبنا أو علينا
ولو لم يرض ربك ما أردنا * لما أعطى لنا أذنًا وعينًا
فانسآلكم عن كل صبٍ * كأن لكم على العشق دينًا

٦

إلى هنا وقف القارىء على ألوان من الخواطر ، مرت بخاطر
شابٍ بهم بالتردد على ما ألف الناس ، وما كنت لأذكر
هذه التفاصيل لولا بنفسي للرياء ، فأنا بصريح القول : مؤكلٌ
بالحسن أتبعه ، ومُعزَّمٌ بالتغريد على أفنان الجمال . وإني لأقول :
أشجأك ما خلف الستار وإنما * خلف الستار لؤلؤٌ مكنونٌ
والناس فى غفلاتهم لم يعلموا * أنى بكل حسانتهم مفتون
وأقول

فيارب ! إمارُمتَ لى الخير مُنعمًا * فى قرب من أهوى وبعد أخى اللوم
وان كان لى فيما قضيتَ مساءةً * تُخزنُ على النائين جيرتى القدم
وإن شئت لى يومًا جوارك فلا كن * شهيد الجوى لا نضومٍ ولا سقم

وطول حسابي في المعاد على الهوى * فطول أحاديث الصباية من همي
وما كان أغثناني عن الفرع الى حكم الأخلق ، لأرجع
الخير والشر الى النيات ، لا إلى الأعمال ، فقد آن لنا أن نعرف
أن من الحق ، بل من الواجب ، أن ندرس الجمال ، وأن تتغنى به ،
وأن نصفه بالنثر البليغ ، والشعر الجميل ، وأن نكتب عن كلفوا
بالحسن : من العشاق ، والشعراء .

ولقد يروون عن رسول الله أنه قال (ان الله يعجب من شاب
لا صبوة له) وأنا لأأريد أن يعجب الله مني ! وسينكر المشعنتون
هذا الحديث ، وأنا قبلهم لا أجزم بصحته ، ولكني أثق بأنه
يقرر حقيقة واقعة ، فما كان الله ليخلق الجمال لنعمي عنه ، أو
لنرى عشفاه بالإثم والفجور ، وهؤلاء المزمعون الأغبياء
لا يملون من الدعوة الى الاستمتاع بجمال الطبيعة ، لهم الويل !
وهل الإنسان إلا لباب الطبيعة ، وسرّها المكنون ؟!

وماذا أصنع بالأشجار ، والأزهار ، والثمار ، والأنهار ،
والكواكب ، والنجوم ، والسهول ، والخرنوب ، والجبال ،
والوديان ، والطيور الصواوح ، والطباء السوانح ؟؟

ماذا أصنع بكل أولئك ، اذا لم يكن معي إنسان أطارحه
القول ، وأساجله الحديث ، وأساقية صبياء هذا الوجود ؟!

وهذا الانسان ؟ أليس لى الحق فى اختياره ، قبل اصطفاؤه ،
وكيف اختاره إن لم أحكم الذوق ، فى تمييز جسمه وروحه ،
وعقله وشعوره ، وحسّه ووجدانه ؟

وما قيمة الليل ان لم تظانى فى الحب ظلماءه ؟ وما قيمة البدر
إن لم يذكركنى بالثغر لا لآؤه ؟ وما جمال الأغصان إن لم تهزنى
الى ضمّ القدود ؟ وما حُسن الأزهار إن لم تُشقى الى ثمّ الحدود ؟
وكيف أميل الى الأطباء ، لو لم تشبه بعيونها وأجيادها ، مالهجسان
من أعناق وعيون ؟ وكيف أصبو الى غُثة الغزال ، لولا ذكرى
تلك النبرات العذاب ، التى يسمونها السحر الحلال ؟

وإنك لتعلم أيها القمر ، كيف كنتُ أصدف عنك ، وأنا
أطالع ذلك الوجه ، الذى نَعِمْتَ معى بشعره المفلج ، وأنفه الأفتى ،
وطرفه الأحور ، وجبينه الوضاح ؟ وإنك لتعلم أيها القمر ، كيف
هجرتك حين غاب ، وتعلم أنى لا أنظر إليك إلا حين السّرار ،
لأرى كيف يفعل الشحوب بك ، وكيف تنال منك الليالى
وإنها لشماتة طفيفة ، أحزن من بعدها على خلود مُتعتك بصباح
الوجوه ، وعلى عودتك لشبابك ، فى حين أنى أودّع كل يوم
جزءاً من شبابى ، وواحسرتاه على ما أودّع من أجزاء الشباب !!
لا أصبحت نهب الأمل والحزن * لجسم أقالم وقلب ظعن

فياويحهم يُزعمون الرحيل * ومازودوني غير الشجن
دموعٌ تحدُّ فوق الحدود * كصوب النعام اذا ما هتن
وقلبٌ يُقلب بين الضلوع * بعيد القرار فقيد السكن
وأصبحت والرأس مرعى المشيب * قليل السرور كثير الحزن
لعمري لن ثبت قبل الأوان * لقد شاب حظي وشاب الزمن
كانَّ الشعور عراها البياض * سهام الردى أويوط الكفن
وان الشباب إذا ما اتقضى * لكالحلم أقلع عنه الوسن

٧

أما بعد فقد أخرجنا للناس كتاب « الأخلاق عند الغزالي »
فرمونا من أجله بالكفر ، واليوم نخرج لهم مدامع العشاق ،
وسيرموننا من أجله بالفجور ، وسنصبر على عدوانهم حتى نخرج
كتاب « آراء الجاحظ الفلسفية والأدبية » وكتاب « أفنان
الجمال » ثم نجنح بعد ذلك الى المتاب !
وقد زعمت ليلي بأننى فاجر * لنفسي تقاها أو عليها فجورها

الملحد الفاجر فيما يزعمون

زكى مبارك

سنترس في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٤٣ هجرية

مذاهب النسيب

أكثر شعراء العرب من الحديث عن الحب ، وعن الحسن
وتنوعت مذاهبهم في وصف ما يشق به الحب ، وما ينعم به الحبيب ،
ويمكن رجوع كلامهم في النسيب إلى أصليين اثنين :

الأول — وصف ما يلاق المحبون من عنت الحب . ويدخل
في ذلك كل ما يهيج الوجد ، ويثير الدمع ، كحديث الفراق ،
والعتاب ، والذكرى ، والحنين

الثاني — وصف ما يرى الشعراء في أحبابهم من روعة الحسن
ويدخل في ذلك كل ما تتمتع به النفس ، والمعين ، من جمال الأبدان
والأرواح ، كوصف العيون ، والحدود ، والثغور ، والنحور ،
والصدور ، وكالحديث عن المطف ، والرفق ، والوفاء ، والعفاف
وقد رأيت أن أفصل مذاهب النسيب في وصف ما يشق
بالمحبون في كتاب أسميه « مدامع العشاق » وأن أشرح مذاهبهم
في الكلام عن الحسن في كتاب أسميه « أفنان الجمال »

وكان الواجب أن نبداً بطبع « أفنان الجمال » لأنه أوفق
وأمتع ، ولأن أفنان الجمال ، وجدت قبل مدامع العشاق
ولكن دولة الحسن لا عدل فيها ولا رحمة ، فلتناهما
في الظلم ، ولتقدم الفروع على الأصول !!

موجبات الدموع

نذكر في هذا الباب حديث الشعراء عن أسباب البكاء ، وموجبات
المدامع ، ثم ما يعرفون عن احمرار الدموع بعد أن كانت بيضاء ،
وايضاضها بعد أن كانت حمراء !!

وللدموع أسباب عامة ، وأسباب خاصة . فأما الأسباب العامة فهي
الحرق الخيلة ، والجوى الدفين ، وما الى ذلك من البش والحزن ، واللوعة
والحسرة ، فمن هذا قول العباس بن الأحنف

ظلمت عيناك عيني أنها بذلتها بالرقاد الأرقا
سَلِطَ الشوق على الدمع فما هبَّ داعي الشوق الا اندفعا
وما كان له أن ينسب الى عينيها الظلم ، لا ابتلاؤه بالسهاد . وخبر منه
قول صريح النواني

أسهرت عيني أنلم الله أعينكم لسنابالى اذا ماتت من سهر
ولو قل

رحمت عيناك عيني أنها بذلتها بالرقاد الأرقا
لكان أقرب الى الصديق وعرفان الجميل ، فحسب الحب ما أهده
عينا حبيبه من ضنى الجسم ، وسهد الجفون . وقال البحري
قد أرتك الدموع يوم تولت ظمن الحى ما وراء الدموع^(١)

(١) الظمن والظماطن : جمع ظمينة . وهى المرأة فى المودج

عبرات ملء الجفون مرثها حرق للفؤاد ملء الضلوع^(١)
فرقة لم تدع لعيني محب منظرًا بالعقيق غير الربوع
ولا أدري ما الذى أرادته البحرى بما وراء الدموع ! أهو الدم الأحمر
الذى تجود به الشئون عند ما تنفيس المدامع ، أم هى الحرق النخيلة التى
ينبئ عنها الدمع ، ويفصح عن مكنونها البكاء ! وقال الشريف الرضى
يقولون ما أبقيت للمين عبرة قتل جوى لو تعلمون ألم
أيسمح جنى بالدموع وأغتدى ضنينًا بها : انى اذن للتميم
ولو بخلت عيني اذن لعنتها فكيف ودع الناظرين كريم
ولعل هذا خير ما قيل فى الاعتذار عن البكاء ، بذكر موجه ،
والداعى اليه ، وانه لشعر بديع . أما الاسباب الخاصة فهى كثيرة : فمن
العشاق من يبكى لتلفس الأخبار ، كما قال ابن هرم
وأستخير الأخبار من نحو أرضها وأسأل عنها الركب عهدى
فان ذكرت فاضت من العين عبرة على لحيتى نثر الجمان من العقد
وانى ليروقى قوله (وأسأل عنها الركب عهدى) فانه يدل
على حيرة وولء ، اذ كان يسأل من لا يعلم من أخبارها شيئاً ، استرواحاً
بالسؤال عنها ، وكذلك يفعل المشوق ! ولا يبعد أن يستنكر النوانى فيض
الدموع على اللحية فى هذا الشعر ، لأن الأمر كما قال أبو تمام :
أحلى الرجال من النساء مواقماً من كان أشبههم بمن خمدوا
وقاتل الله الشيب ، ولا عفا عن جنايته على الشباب !

(١) يقال مرى الراعى الناقة : اذا مسح ضرعها لتدر اللبن . ويريد الشاعر أن يقول
ان اللوعة مرت الدمع ، أى حملته على أن يفيض

ومنهم من يبكي عند ظهور المعالم ، أو مطالعة الرسوم . كما قال ابن الـامينة
هل الحب الا زفرةٌ بعد زفرةٍ وحرٌّ على الأحناء ليس له بردُ
وفيض دموع العين يابى كلاً بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو
وما كان الحب زفرة ولا عبـرة ، كما قال ابن الـامينة — ولكنه شئ
به الروح تكلف — وما أحسن قول ابن أسباط القيروانى

قال الخلى الهوى محالٌ قلت لو ذقتُه عرفته
فقال هل غير شغل قلبٍ ان أنت لم ترضه صرفته
وهل سوى زفرة ودمعٍ ان لم ترد جريه كفتته
قلت من بعد كل وصفٍ لم تعرف الحب اذ وصفته

ومنهم من يبكي عند الوقوف برياض ، اذ تذكره رشاقة أغصانها ،
وحجرة أزهارها ، بالقبود الرشيقه ، والخسود الوردية ، كما قال ابن المعتز
وقفت بالروض أبكى فقد مشبهه وقد بكت بدموعي أعين الزهر
لولم تعرفها الجفون الـدمع تسفحه لرحمتى لاستعارته من المطر
وهذا نوع من الاسماء ما عرفه الناس قبل ابن المعتز فيما أعلم !
واتما كانت تسعد الخائف ويبكى الرقيق^(١)

ومن الشعراء من يبكي عند هبوب النسيم . كما قال بعض الأعراب
لعمرك ما ميماد عينيك والبكا بدراء الا أن تهب جنوبُ
أعشى فى (داراء) من لأحبه وبالرمل مهجور الى حبيب^(٢)
إذا هبَّ علوى الرياح وجدتنى كأنى لعلوى الرياح نسيب^(٣)

(١) الاسماء هو المشتركة فى البكاء (٢) داراء اسم موضع ، وكذلك الرمل
(٣) علوى نسبة شاذة الى طالة نجد

ومنهم من يبكي لبكاء الحائم فهو كثير في كلامهم . ولعل من أبدعه وأروعه قول الشبلى يصف شَجْوَ حمامة هاجت شَجْوَهُ :

ربَّ ورقة هتوفٍ في الضحى ذات شَجْوٍ صبحت في قَنٍ (١)
ذكرت إلهاً وعيشاً سالفاً فبكت حزناً فهاجت حَزَنِي
فبكائي ربما أرقها وبكائها ربما أرقى
ولقد نشكو فإضهها ولقد أشكو فإتفهني
غير أني بلجوى أعرفها وهي أيضاً بلجوى تعرفني
أتراها بالبكا مولة أم سقاها الين ماجرعي

وهذه الأبيات من أحسن الشعر قسماً ، وأبرعه تصويراً ، ولقد افتتح بها الشيخ على الجارم خطبته في تأبين المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فخرج الناس وهم يقدمونه على سائر الشعراء ، ظننا منهم أنها له . ولولا الجهل بتاريخ الآداب العربية لما عاش الأحياء على حساب الأموات ، من حيث لا يشعر الناس !!

وبما ابتدعه المتأخرون في موجب البكاء ، ماجله بعضهم عقاباً للعين ، جزاء بما أهدت نظراتها للقلب من شنجي ، وللجسم من نحول ، قال :

لا عذبني العين غير مفكرٍ فيما جرت بالدمع أو سالت دما
ولأهجرن من الرقاد لدينه حتى يمود على الجفون محرماً
هي أوقعتني في حبائل فتنة لو لم تكن نظرت لكنت مسلماً
سفكت دمي فلا سفعن دموعها وهي التي بدأت فككات أظلاما

وهو مذهب غريب ، يدل على مبلغ صاحبه من إدراك الحسن ،

(١) الورقاء هي الحمامة ، والشجو الحزن ، والفتن النمن ويجمع على أفنان

وفهم الجلال ! وإلا فأى عاشق يذكر جنابة النظر عليه ، ولا يدعو لعينيه
بطول البقاء . والله در القائل

قلت أترقدُ إذ غبنا ؟ قلت لها نعم ، وأشفق من دمي على بصرى
ماحقُ طرفٍ هداى نحو حسنكم أنى أعذبه بالنوح والسهير

ومنهم من جعل السمع غسلا للعين مما زنت بالنظر ، فقال
وقائلة ما بال عينك منذ رأيت محاسن هذا الظبي أدمعها هطلُ
قلت زنت عيني بظلمة وجهه فحق لها من فيض دموعها غسل
وقال الآخر

انسانة فنانة بدر اللجى منها خجل

إذا زنت عيني بها فبالدموع تنفسل

وهو خيال قهواء ، لا خيال شعراء !!

وقد فطر الارتجاف الى قول أبى تمام :

بسطت اليك بنانة أسرُوعا تصف الفراق ومقلة ينبوعا (١)

كادت لمرقان النوى ألفاظها من رقة الشكوى تكون دموعا
فولدت منه معنى لطيفا ، إذ جعل دموعه عند الفراق ، وقد تحدرت
كالآلى ، بقية ما فتنه المودعون فى آذانه من حديث هو الدر النفيس .
وذلك قوله

لم يبكنى إلا حديث فراقهم لما أسرَّ به الى مودعى

هو ذلك الدر الذى أودعته فى مسمى ألقبته من مدمعى



(١) الاسروع ويجمع على أساريع دود أبيض أحمر الرأس يشبه بالهرب الاناس الرقيقة

أما السبب في احمرار الدموع فلم أجد فيه أبلغ من قول صَرَدَوُ
 حتام أرحى وردةً لا تُجَنِّي في الخلد أو قفاحةً لا تُكَلِّمُ
 أيداد عن تلك الحاسن ناظري ويريد مني أن يسوِّعها الفم
 في كل يوم للعيون وقائع إنسانها الطلح فيها يكَلِّمُ
 لو لم تكن جرحى غداة لقائهم ما كان يجري من ما قىها الدم
 لم أدر أن الحب حومةٌ مازق تُصَلِّي ولا أن اللوا حظ أسهم

وهو مأخوذ بلطف من قول مسلم بن الوليد :

يا واشياً حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الفرق
 ائى أصد دموعاً لج سائقها مطروقة العين بالمرضى من الخلق
 ويرى القارىء أن أصحاب هذه الأخيلة الشعرية ، يرون أن احمرار
 الدموع إنما هو أثر للحرب القائمة بين عين العاشق وعين الممشوق . فيالها
 من حرب ضروس تطلأ فيها أقدام الجنس اللطيف أعناق الجنس النشط .
 وإنا بهذه الهزيمة لفرحون !!

وكان عجيباً أن تبيض الدموع بعد احمرارها !! وقد رأينا كيف
 أوّلوا احمرار الدموع . ولنذكر أن أصدقهم صبط بن التعاويذى حين
 يقول :

أثبتهم يوم استقل فريقيهم نظر المشوق وأنة المفجوع
 لم تبك يوم فراقهم عيني دماً إلا وقد نزل البكاه دموعي
 والآن نريد أن نعرف كيف يتأولون ابيضاض الدموع بعد أن صيرها
 الحزن حمراء . فن الشراء من يرى الدمع الأبيض ماء ورد الخلدود الى
 قطعها بعينيه عند الرحيل ، كما قال بعض الظرفاء

كانت دموعي حمراً يوم بينهم فذناؤا قصرتها بدمهم حرّقي
 قطفت بالاحظورداً من خندوم فاستطر العين ماء الورد من حديق
 ومنهم من جعله شيئاً للدموع بعد طول عمر البكاء كقوله
 قالت عهدتك تبكي دماً لطول التناي
 فلم تموضت عنا بعد السماء بماء
 قلت ماذا كرمي لسوء وعزاء
 لكن دموعي شابيت لطول عمر بكائي
 وأشجى منه قول الآخر :

وقال لي ما بال دمعك أبيضاً قلت لما ياعر هذا الذي بقي
 ألم تعلمي أن البكا طال عمره فشابت دموعي مثل ماشاب مفرق
 وعما قليل لا دموعي ولا دمي ترين ولكن لوعى ونحرق
 وهذه الأبيات من أكثر الشعر حزناً ، وأغزره دمعاً ، وهل نجد
 أدعى للشجو والبث من قوله :

قلت لما ياعر هذا الذي بقي !!

ويذكرني هذا بقول الشريف الرضي في إتيان الدموع على الميون ،
 والخليل على الضلوع

عما بعدكم تلك الميون بكأوها وغال بكم تلك الاضالع غولها
 فمن ناظر لم يبق الا دموعه ومن مبهجة لم يبق الا غليلها
 دعوا لي قلبا بالفرام أذنيه عليكم وعيناً في الطلول أجيلها
 ويذكر الشعراء أن الدموع حين تبيض بعد احمرارها تكون أرق
 من الهواء . ولهم في ذلك فنون من القول ، وشجون من الحديث ، وأجل

ما رأيت في ذلك قول خالد الكاتب في رفق عذ الله به ، وإسعادهم له :
بكي عاذلي من رحمة فرحته وكم مسعدي لي في الهوى ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها دموع دموعي لادموع جفوني

عذر أرباب الدموع

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه
إن القتل مبللاً بدموعه مثل القتل مضرراً بدمائه
نذكر هنا ما يستند به الباكون عن بكائهم ، وما يحتجون به لدى
عذالهم . وهو نوع من الإفصاح عن موجب الدمع ، وداعي البكاء .
والشعراء فيه رجالان : رجل غلبه الحب ، وقهرته الصبابة : فباح بمكنون
سره ، ومكتوم حبه ، ورجل يخوف الرقباء ، وتهيب العذال ، فأخذ يخلق
الملل ، ويتحل الأسباب ، دفماً لكيد الواشين ، ودرءاً لعذل اللأعين ...
فن الأول قول البحري

سارت مقدمة السموع وخلفت حرقاً توقد في الحشا ما ترحل
إن الفراق كما علت نفلي ومداماً تسع الفراق وتفضل
إلا يكن صبر جميل فلهوى نشوان يجمل فيه مالا يجمل
وحسن البيت الأول في خلود اللوعة ، وبقاء التليل ! وهو خير من
قول ذي الرمة .

لعل انحدار الدمع يقب راحة . من الوجع أو يشفي شجي البلابل
والبيت الأخير أروع من قول أبي تمام في نفس المعنى .

والصبر أجمل غير أن تلذذاً في الحب أخرى أن يكون جميلاً
وقال البخترى في الاعتذار عن البكاء .

لا تلمني على البكاء فاني رَضَوْا شجوماً لم تفي البكاء
عذلاً يترك الحنين أنيناً في هوى يترك الدموع دماء
كيف أغدو من الصبا به خلواً بعد ما راحت الديار خلاً
ومن بديع الاعتذار عن البكاء قول خالد الكاتب :

عش فحبيبتك سريعاً قاتلي والضنى إن لم تصلى واصلي
ظفر الحب بقلب دنفي فيك والسقم بجسم ناهلي
فها بين ا ككتاب وضئي صيراني كالقضيبي الذليل
وبكى الماذل لي من رحمة فبكائي لبكاء الماذل

وهذا معنى جميل ، لا ينقص غير القرب من الحقيقة : فقد يندر أن
يبكى اللاثمون رفقاً بالمحب الحزين !

وما انتحل فيه الشعراء البكاء أسباباً غير أسبابه قول كثير
إذا زرفت عيناي أعتل بالقندي وعزة لويدي الطيب قدأما
وهو نوع من الكتمان يفزع اليه الشعراء عند اليأس من أحبابهم
يأسٌ يحسن لي التستر فأعلى لو كنت أطلع فيك لم أستر
ومن طريق هذا النوع قول أبي العتاهية يعتذر عن بكائه ، وقد استحيا
من صديقه

كم من صديق لي أسأ رقة البكاء من الحياة
فاذا تأمل لا مني فأقول ما بي من بكاء
لكن ذهبت لأرندى فطرفت عيني بالرداء

الاكتفاء بالدموع

هو نوع من القناعة في الحب يكون عند القنوط . ومن جيد الشعر فيه قول بعض الأعراب

فإن تمنعوا ليلى وحسن حديثها فلن تمنعوا مني البكا والقوافيا

فها لمنعم إذ منعم حديثها خيالاً يوافيني على النأى هاديا

وهي سداجة طريفة تذكركنا بقول جحدر وهو في السجن

أليس الليلُ يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني

نعم وأرى الهلال كما تراه ويملوها التهار كما علايا

وما الذي يضير أعداء الحب من أن يرى القمر كما تراه ، ويملوها

التهار كما علاه ، ماداموا قد أبعدوه عنها ، وحرموه منها . وقد تنبه بعض

الأعراب الى قناعة هذه القناعة فقال :

بربك هل ضمتَ اليك ليلى قبيلَ الصبح أو قبيلَ ظها

وهل رفقتَ عليك فروع ليلى رفيف الأقحوانة في شذاها

على أنه ينبغي أن لا ينسينا جمال هذا الخيال ما في شعر جحدر وأمثاله

من روعة الصديق ، وجلال الوفاء . وماذا عسى أن تكون الصباية إن لم

يصبح البكاء أشهى من الحديث المسول ، حين يفتدو الحب ولا أمل له

في غير الوجد المشبوب ، والسمع المسكوب ، والصبر المغلوب !

من أجل هذا نخالف أستاذنا الجليل الشيخ سيد المرصفي ونرجوه أن

يصفح عن إعجابنا بقول قيس بن ذريح في الاكتفاء بدمعه اللثام ، وحرزته المقيم

فلن يحببوا أو يحل دون وصلها مقالة واش أو وعيد أمير
 فلن يمنعوا عيني من دائم البكا ولن ينهبوا ما قد أجن ضميري
 الى الله أشكو ما ألاق من الهوى ومن كُربٍ تمتدني وزفير
 ومن حُرِّقٍ للحب في باطن الحشا وليلٍ طويلٍ الحزن غير قصير
 سأبكي على نفسي بعين قريحة بكاء حزين في الوئاق أسير
 وكنا جميعاً قبل أن تظهر النوى بأنعم حالٍ غبطةٍ ومرور
 فما برح الواشون حتى بدت لنا بطون الهوى مقبوبةً لظهور
 لقد كنت حسب النفس لودام وصلنا ولكنما الدنيا متاع غرور
 وتمتاز هذه القطعة بتصويرها للنفس الانسانية أجمل تصوير ، وتمثيلها
 أدق تمثيل . ألم تر إلى الشاعر وقد أوجز في قناعته بالبكاء ، ثم انطلق يشكو
 الى الله لوعته ، وحرقة ، ولياليه الطوال ! ! ألم تر اليه وقد كان يحسب
 اللمع نعمةً سائبةً يكتب بخلودها الأعداء ، فماد يرى اللمع آيةً للذل
 والمسكنة ، وآخر ما يفرع اليه الأذلاء المساكين ! !

الفرع الى الدموع

قال أبو بكر بن عياش : نزلت بي مصيبة أوجعتني فذكرت قول
 ذي الرمة :
 لعل انحدار اللمع يعقب راحةً من الوجد أو يشفي شجيّ البلابل
 نفلوت فبكيت فسلوت ! ! ولست أدري كيف تذهب بالوجد زفرة ،
 أو تودي به عبرة ، وهو كما قيل :

ظن الهوى لبسةً تبلى فيخلعها فكان في الروح مثل الروح في البدن
وكنت أسمى هذا النوع من الشعر استشفاءً بالدموع ، وقفاً لما ينجح
إليه الشعراء ، ولكنى رأيت أن أسميه « فزعا إلى الدموع » حين تبينت
أن الدمع لا يطفى إلاوعة ، وأنه نار حامية ، لا يبرد وسلام !! .
وهل تجدد أدعى للبث ، وأجلب للحزن ، من قول كثير ، وقد
ترحلت حبيبته :

كفى حزناً للمين أن ردّ طرفها لعزة غير آذنت برحيل
وقلوا نأت فاختر من الصبر والبكا قتل البكا أشقى اذن لظلي
توليت محزوناً وقلت لصاحبي أقاتلي ليلى بغير قتيل
وما اختار البكاء لأنه أشقى للقليل كما قل . ولكنه اختاره ليفر من
الصبر الذي رآه مر المناق !! وقد حسب بعض الشعراء أن التفضيل بين
الصبر والبكاء مما ينال ، وفي ذلك يقول :

إذا مادعوت الصبر بمدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يجيب الصبر
وهو ضلالعين : فإن البكاء لا ينتظر دعوة المحزون ، ولكنه ينقض
عليه انقضاء الساعة ، فإذا هو صريع ! وأمثال هذا الشاعر لا يتحدثون
عن خزنة المقيم . ولكنهم يمتنون على أحبابهم بهذا السمع المحبوب
ومن الشعراء من تنبه إلى أن السلامة من الجوى أمض من الجوى ،
وهؤلاء يكون وجدهم الداهب وضلالهم القديم « ومن أسماء الحب الضلال »
ومن مختار الشعر في هذا البكاء قول المتنبي :

يراد من اقلب نسيانكم وتابى الطباع على الناقل
ولو زلتم ثم لم أبكم بكيت على حي الزائل

وأوج منه قول البحتري
 وأود أنى ما قضيت لبأتى منكم ولا أنى شفيت غليلي
 وأعد بُرثى من هوائك جنائياً والبرء أعظم غاية المحبول
 ذلك بأن القلب الجريح لا يجد شفاءه فى السواة ، ولا فى البكاء . .
 وهل السواة إلا رزه جديد يقصم الظهر ، ويقصف العمر ؟ أرايت آدم
 وقد خرج من الجنة ؟ أليست لوعته على ذلك الفردوس الضائع ، هى سر
 ما يعتادنا من أين قد لا نعرف له سبباً قريباً ؟ وهل البكاء إلا أثر من
 آثار الوجد ينحشم لهيبته غلاظ الأ' كباد ، ويرق له قساة القلوب ؟
 تلك حسرة البحتري أفصح عنها بقوله :

وأود أنى ما قضيت لبأتى منكم ولا أنى شفيت غليلي
 فما الذى جعله يروج من الدمع الشفاء حين يقول :
 قف مشوقاً أو مُسعداً أو حزيناً أو معيناً أو عاذراً أو عندولاً
 وخلاف الجليل قولك لذا كرهه الأحابيب هراً جليلاً
 علّ ماء الدموع بمحمد ناراً من جوى الحب أو يبلّ غليلاً
 وبكاء الديار مما يرد الشوق ذكرّاً والحب نضواً ضئيلاً
 لم يكن يوماً طويلاً بنما ن ولكن كان البكاء طويلاً
 إن فهم ذلك يحتاج الى تأمل النفس البشرية : فهى ليست موحدة
 الشاعر والمبول . ولو جاز أن نجد نفساً خالدة الألم لفقد شقيقتها فى عالم
 النفوس ، لجاز أيضاً أن تكون فى لوعتها الخالدة ذات تصاريف فى الشكوى
 والأين ! وليس طلب السواة الا صرخة الوجد يعجز عن كبعها المقيم
 العانى : ومن الذى يُحرّم على شقى أن يلتبس الى السعادة السبيل ؟

ومتى كان المحبون سعداء حتى يكون طلب الخلاص من بلوهم كفوفاً بنعمة
الحب التي ابتلى الله بها أولئك الشهداء ؟ ! وقد يحسن أن ننشد القارئ
قول البحترى نفسه :

قد كان منى الوجد غيباً تذكر اذ كان منك الصدف غيباً تنامى
تجربى دموعى حيث دمعك جلمد وورق قلبي حيث قلبك قلمي
ألا تراه جعل الوجد أثراً للتذكر الذى حسب البكاء يفضى اليه فيريحه
من الشوق في قوله :

وبكاء الليل مما يرد الشوق « ذكرنا » والحب فضواضيل
فهو يجعل الذكر دواء تارة ، ويجعله داء تارة أخرى ! ولسنا نتخذ من
ذلك دليلاً يرضاه المنطق عن خلود الصباية ، والعالم كله لن يرزق الخلود ،
ولكننا نستدل به على الحيرة يرزأ بها المتيهم المحزون ، فما يدرى أيشنيه
الدمع ، أم يزيد لوعته اضطراباً . . .

على أنه لا عيب على الشاعر في أن « تناقض » خواطره ، لأن الشعر
كالمراة ، والنفس دنيا ثانية ، تراءى صورها المختلفة ، في لوحة الشعر الجميل

الدمع عند الوداع

نذكر هنا نماذج من وصف الدموع عند الفراق . فن ذلك قول
ابن الرومي :

لو كنت يوم الفراق حاضراً وهنَّ يطفين غلة الوجد
لم نرَ إلا دموعاً باكية تقطر من مقلةٍ على خدٍ

كَأَنَّ تِلْكَ الدَّمْعَ قَطْرَ نَدَى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجِسٍ عَلَى وَرْدٍ
وَقَدْ يُؤْخَذُ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ مَا فِيهَا مِنَ النَّزْلِ فِي غَيْرِ حِينِهِ : وَهُوَ

كَقَوْلِ أَلَى نَوَاسٍ فِي جَنَّاتِ

يَاقِرًا أَبْصَرْتُ فِي مَأْتَمٍ يَنْدُبُ شَجَوًّا بَيْنَ أَتْرَابِ

يَبْكِي فَيَذَرِي الدَّرَمَ مِنْ نَرْجِسٍ وَيَلْطَمُ الْوَرْدَ بِمَنْأَبِ

وَالْأَدْبَاءُ يَرُونَ هَذَا مِنَ وَثَبَاتِ الْخَيَالِ ، وَنَزَاهَا أُخِيْلَةٌ عَادِيَّةٌ لَيْسَ لَهَا

جَمَالٌ خَاصٌ ، فَهَذَا شَاعِرٌ فِي الْجَمِيلَةِ الْبَاكِيةِ مَا يَنْسِيهِ وَصَفَ طَرَفُهَا السَّاحِرَ ،

وَوَخَّذَهَا الْأَسِيلَ ! ! وَقَدْ أَجَادَ ابْنُ الرَّومِيِّ أَوْ كَادَ فِي قَوْلِهِ

تَلَاقِينَا لِقَاءَ لَاقِرَاقٍ كَلَانَا مِنْهُ ذَوْ قَلْبٍ مَرُوعٍ

فَمَا أَقْرَبَتْ شَفَاةً عَنْ تَغْوِيرٍ بَلْ أَقْرَبَتْ جَفُونَ عَنْ دَمْعٍ

وَمَا جَمَعَ بَيْنَ بَرَاعَةِ التَّصْوِيرِ ، وَمَتَانَةِ التَّعْبِيرِ ، قَوْلُ الْمُتَنَبِّي :

لَمَّا قَطَعْتَ الْحَوْلَ قَطَعْتَ نَفْسِي أَسَى وَكَأَنَّهُمْ طُلُوحُ

وَجَلَا الْوَدَاعُ مِنَ الْخَيْبِ حَاسِنًا حَسَنُ الْعِزَاءِ وَقَدْ جُلِينَ قَبِيحُ

فَيْدٌ مُسَلِّمٌ ، وَطَرَفٌ مُشَاخَصٌ وَحَشًا يَنْدُوبُ وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ

يَجِدُ الْجَمَامُ وَلَوْ كَوَجْدِي لَا بَرَى شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الْجَمَامِ يَنْوَحُ

وَقَالَ مَهْيَارٌ فِي الْاِعْتِنَادِ عَمَّا لِلْمُودِّعِ مِنَ الزَّفَرَاتِ وَالْعِبْرَاتِ

دَعَوْنِي فَلَئِنْ زِمْتَ لَيْسَ وَقْفَةً أَعْلِمُ فِيهَا الصَّخْرَ كَيْفَ يَلِينُ

وَخَلُّوا دَمْعِي أَوْ يُقَالُ نَعَمْ بَكِي وَزَفْرَةٌ صَدْرِي أَوْ يُقَالُ حَزِينُ

فَلَوْلَا غَلِيلُ الشُّوقِ أَوْ دَمْعَةُ النَّوَى لَمَّا خَلَقْتَ لِي أَضْلَعُ وَجَفُونُ

وَهِيَ مَدَافِعَةٌ حَسَنَةٌ تَذَكِّرُنَا بِقَوْلِ صَرَدِ

إِذَا لَمْ أَفْزُ مِنْكُمْ بِوَعْدٍ فَنَظَرَةٌ إِلَيْكُمْ فَا نَعْنِي بِسَمْعِي وَنَاظِرَةٌ

وقال السرى الرفاء في ذكر مظاهر الوداع : من اللوعة ، والحنين ،
وتخديد الخلد بالدمع ، مع ذهاب العزاء :

وقفننا النوى على الكره منا * موقفاً ضمَّ شائناً ومشوقاً
حال ورد الخلد وفيه فاضحى النسر جس الفض بالدموع غريقاً
لوعة أفرطت فعادت حريقاً * وحنينٌ أربى فعاد شهيقاً
وخليقٌ بلوعة الحب صبَّ * لم يكن بالعزاء فيه خليقاً
ومن شجى الشعر في ذلك قول الشريف الرضى :

ولما توافقنا ذهلت ولم يحنَّ * لطير قلوب العاشقين وقوعُ
عشيةً لى من رقة الحى زاجرٌ * عن الدمع إلا أن تشدَّ دموعُ
وقد أمرت عينك عيني بالبكا * فقل لى أى الآمرين أطيع
ولهذا الشعر مزية خاصة : وهى ترتيب المعانى ترتيباً لولا حيرة المودع
لكان غايةً فى الوضوح . ولا يفوتنا أن نذكر هنا قول ابن زريق :
ودعته وودى لو يودعنى * صفو الحياة وأنى لا أودعه
وكم تشفع بى أن لا أفارقه * وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بى يوم الرحيل ضجى * وأدعى مستهلات وأدعته
ومن الشعراء من يفرح بالوداع ، إذ يمكنه من معشوقة قد لا تراها
العين إلا عند الرحيل . فمن ذلك قول البحتري :

إن للبين نعمة لا تؤدى * ويداً فى ثماضرٍ ييضاء
ججيوها حتى بدت لفراقٍ * كان داءً لماشقى ودواء

أضحك اليز يوم ذاك وأبكى * كل ذى صبوةٍ وسرٍّ وساء
فجعلنا الوداع فيه سلاماً * وجعلنا الفراق فيه لقاءً
وفي هذا المعنى يقول بعض الطرفاء :

لم أنس إذ ودعته والتقى * ذا البدن الناعم والناحل
كأنما جسمي على جسمه * غصنان ذاغضٍ وذا ذابل
ياربِّ ما أطيب ضمي له * إلى لولا أنه راحل :

وقد أُلِّمَّ الشريف بهذا المعنى في هذه الأبيات :

أثى كل يومٍ لفتةً ثمَّ عبرةً * على رسم دارٍ أو مطيٍّ موقِفُ
وركب على الأكواد يثنى رقابهم * لداعى الصبا عهد قديمٍ ومألفُ
فمن واجدٍ قد أَلِمْ القلبَ كفه * ومن طربٍ يعلو اليقاع ويشرفُ
ومُسْتَعْبِرٍ قد أتبعَ الدمعَ زفرةً * تكاد لها عوجُ الضلوع تشقِفُ
قضى ما قضى من أنه الشوق وأنثى * بدار الجوى والقلب يهفو ويرجفُ
ولم تَنَنْ حتى زایل البعد بيننا * وحتى رمانا الأُلم المتغطرفُ^(١)
كأنَّ الليالى كنَّ آلين حِلْفَةً * بأن لا يرى فيهنَّ شملٌ مؤلفُ
أيًا وقفة التوديع هل فيك راجعٌ * إشارتهُ ذاك البنان المطرفُ
وهل مُطْمَئِنٌّ ذاك الغزال بلفتةٍ * وإنْ نُورَ الركب العِجال وأوجفوا^(٢)

وهذه الأبيات وصف سابغ للمرور بمنازل الأحباب ، ولكن
فيها تصويراً لأنتهاب الحسن عند الوداع ، وإمتاع العين باللفتة وإشارة
البنان ، وليست هذه المتعة بالشئ القليل !

(١) لم تنن : لم تهم . والازل للمتطرف هو الدهر . (٢) أوجفوا : أسرموا

الدمع بعد الفراق

ذكرنا في الكلمة السالفة مذاهب الشعراء في وصف الوداع ،
واليوم نذكر أفانين من شعرهم في الدمع بعد الفراق . فن ذلك قول
دعبل في راحلين ما يدرى أيلقاهم وهو حي ، أم ينتظرم في عالم البقاء
ألم يأن للسفر الذين تحملوا * إلى وطن قبل المات رجوع
فقلت ولم أملك سوابق عبّرة * نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبين فكم دار تفرق شملها * وشمل شئت عاد وهو جميع
طوال الليالي صرفهن كما ترى * لكل أنس جذبة وريع
ويذكر صاحب « مواسم الأدب » أن المأمون كان يُعجب
بهذه الأبيات ، وكذلك كان المؤلفون « يسجلون » إعجاب الملوك
بما يقول الشعراء ، كأن الشعر « نقود » لا يتداولها الناس إلا إن حملت
شارات الملوك !! على أن من العدل أن نذكر بهذه المناسبة أن إقبال
المأمون على الشعر الجيد ، وتشجيعه للشعراء المحيدين ، كان مما رفع
الأدب ونهض بالأدباء وهناك ظاهرة أخرى لإعجاب المأمون
بهذه القطعة الوجدانية : هي إقبال كرائم النفوس على مناهل الوفاء ،
وان أسبغت عليها نعمة العلم والجاه !! ولنا أن تقول . إن في عجز العلم
والملك عن قتل الحب في صدور الملوك والعلماء لدليلاً على أن نعم
الوجود تتلاشى أمام هذه النعمة الساحرة ، القاهرة : نعمة الجمال !!

وفي الفزع من الموت قبل اللقاء ، يقول الطغرائي :
 إني لأذكركم وقد بلغ الظما * مني فأشرق بالزلال البارد
 وأقول ليت أحبتي عاينتهم * قبل الممات ولو يوم واحد
 وللشريف الرضي في الوجد بعد الفراق شعر بالكـ حزين .
 كقوله :

الدمع مذ بعد الخليط قريب * والشوق يدعو والزفير يجيب
 إن لم تكن كبدي غداة وداعكم * ذابت فأعلم أنها ستذوب
 داء طلبت له الأساة فلم يكن * إلا التعلل بالدموع طيب
 إما أقت فان دمعى غالب * لعواذلي ونجلدي مغلوب
 ومن الشعراء من ينفد دمه ، فيوصى بالبكاء عنه ، كما قال الشريف
 أيها الراح المغدّ تحمل * حاجةً للمقيم المشتاق
 إقر عني السلام أهل المصلى * فبلاغ السلام بعض التلاق
 وإذا ما مررت بأخيف فاشهد * أن قلبي إليه بالأشواق
 وإذا ما سئلت عني فقل نضبو هوى ما أظنه اليوم باق
 صناع قلبي فأنشده لي بين جمع * ومنى عند بعض تلك الحداق
 وأبك عني فطالما كنت من قبه * بل أغير الدموع للعشاق
 وتذكرنا هذه الأبيات بقول عبد الرحمن الداخل :

أيها الراكب الميمم أَرْضِي * إقر من بعضي السلام لبعضي
 إن جسمي كما علمت بأرض * وفؤادي ومالكه بأرض
 قدّر البين يبتنا فاقترقنا * وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى الله بيننا باقتراق * فمضى باجتماعنا سوف يقضى
ومن الشعراء من يبكى في القرب والبعد، كما قال بعض الظرفاء
وما في الأرض أشقى من محب * وإن وجد الهوى حلوا المذاق
تراه باكيًا في كل حال * مخافة فرقة أو لا شتياق
فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم * ويبكى إن دنا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التناي * وتسخن عينه عند التلاق
وليس لنا إلا أن نذكر أمثال هذا الشاعر بما قاله الأخطل لعبد الملك
ابن مروان وقد سأله كيف تشرب الخمر : وأولها مر ، وآخرها سكر ؟
فقال صدقت يا أمير المؤمنين ! ولكن بين السكر والمرارة لحظة
دونها ملكك الطويل العريض !
وبين دموع التلاق ، ودموع الفراق ، لحظة دونها حياة الأبرار
في جنات النعيم !!

ومن الشعراء من يتوجع على عهده قبل الفراق . كقول الشريف
هل عهدنا بعد التفرق راجع * أو غصنا بعد التسلب مورك
شوق أقام وأنت غير مقيمة * والشوق بالكلف المعنى أعلق
ما كنت أحظى في الدنوف كيف بي * واليوم نحن مغرب ومشرق
وفي البيت الأخير حسرة تذيب لقائف القلوب

وقد أجاد الأرجاني في وصف اليأس بعد الفراق ، حين قال :
رحلوا : أمام الركب نشر عيرهم * ووراءهم نفس المشوق الصادي
فكان هذا من وراء ركابهم * حادٍ لها وكأن ذلك هادي

لله موقف ساعة يوم النوى * بنى وأقار الحدوج بَوَادِ
لما تبعت وللمشيّع غايَةٌ * أظمانهم وقد أمتلكن قيادى
أتبعتهم عيني وقلبي واقفًا * فوق الثانية والمطى غَوَادِ
كيف السبيل الى التلاقى بعدما * ضرب الفيور عليه بالأسداد
والحى قد ركزوا الرماح بمنزل * فيه الأطباء ربائب الآسادِ
وعدا لى بهم فقلت لصاحبي * كم دون ذلك من عِدَى وعَوَادِ
عهدى بهم وهم بوجرة جيرة * سَقَيْتَ عهودهم بصوب عِمَادِ
فالיום من نفس للنسيم اذا سرى * نبى شفاء علائل الاكباد
ومن العشاق من يقف بالديار قبيكى لما صنعت بها أيدى الفراق

حين نفرت عنها الأطباء ، كسبط ابن التمايذى حين يقول :

ياموقفًا بالبيان لم تثمر لنا * غير الصباية والأسى شجراته
هل نُفِرْتَ لَانْفَرْتَ غزلانُهُ * أو صَوَّحْتَ لاصَوَّحْتَ بانانُهُ
عهدى به يلقى الديون قضائهُ * وتصيد ألباب الرجال مهائهُ
فاليوم لاجيرانه جيرانهُ * قدامًا ولافتيائهُ فتيائهُ
ياحادى الأظمان فى آثاركم * قلبٌ تقطعه جوى حسرائهُ
ولقد يرى ثَبَّتَ الحصاة فإله * أمست تذوب على البعاد حصائهُ (١)

شكوى الصباية

نظرت ما قال الشعراء في الشكوى فاذا هم مختلفون : فمنهم من يشكو الى من يعلم السر والنجوى ، ومن يقدر على تصريف الخواطر ، وتقلب القلوب

أَلَا نَ لِدَاوَدَ الْحَدِيدِ بِقَدْرَةٍ * مَلِيكَ عَلَى تَسْيِيرِ قَلْبِكَ قَادِرُ
وهؤلاء أصدق الناس حياءً وأحسنهم إيماناً . وسيدهم أبو صخر الهزلي حين يقول :

ييد الذي شفع الفؤاد بكم * تفريج ما ألقى من الهم
فانه جعل الهوى قدراً ، وجعل الأمر في تسيير قلب من يهوى وتذليله للذي خلق الحب ، وأودع الذل فيه . ولم أجد في هذا المعنى أوجع من قول قيس بن زريق

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَقَدْ لَبِئْتُ كَمَا شَكَا * إِلَى اللَّهِ بَعْدَ الْوَالِدَيْنِ يَتِيمُ
يَتِيمٌ جَفَاءُ الْأَقْرَبُونَ فِدْمَعُهُ * غَزِيرٌ وَعَهْدُ الْوَالِدَيْنِ قَدِيمُ
وإذا كان محالاً أن يحمد المرء بعد أبويه من يعوله ، ويحذب عليه ، ويمنحه من العطف والحنان ما كان جديراً أن يفوز به لو عاش أبواه ، فكذلك لا يحمد قيس من بين النساء من تبره برأبى . وهذا وجه الحسن في هذين البيتين ، اللذين يفيضان ناراً وحرقة . وقال ابن المعتز

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو الشَّوْقَ لِإِنْ لَقِيتُهَا * يَقْلُ وَلَا إِنْ بَنَتْ يَخْلُقُهُ الدَّهْرُ
مَقِيمٌ عَلَى الْأَحْشَاءِ قَدْ قَطَعَتْ بِهِ * فَسَاعَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَتُهُ دَهْرُ

ولم يذكر الشاعر هنا من موجب الشكوى غير فرط حبه ، وخلود
وجده . وإنما يشكو الحب قسوة الهجر ، ومرارة الصدود . وقال معين
الدين الخطيب في الشكوى من لوعته وحسن محبوبه

أشكو إلى الله من نارين واحدة * في وجنتيه وأخرى منه في كبدي
ومن سقامين سقم قد أحل دمي * من الجفون وسقم حل في جسدي
وهذا شعر منتقد . فانه اذا صح ان يشكو الحب إلى الله سقمه
ووجده ، أملاً في الراحة من بلاء الحب ، فالذي يريده بشكوى
السقم في جفن محبوبه والنار في خديه ؟ وقد أجاد أوقار في قوله
ومن ثمومين دمي حين أذكره * يذيع سرى وواش منه بالرصد
ومن ضعيفين صبرى حين يهجرنى * ووده ويراہ الناس طوع يدي
فانه لا بأس من شكوى الواشى والود الضعيف !

ومن المحبين من يشكو إلى المعاهد والرسوم . وهو نوع من الوله ،
وصنف من الصباية . تقربه عين الحب . وتطيب به نفس المشوق .
كقول ابن المعتز

أبا سيرة الوادى على المشرع العذب * سقاك حياحي الثرى ميت الجذب
كذبت الهوى إن لم أقف أشتكى الهوى * إليك وإن طال الطريق على صبحي
أصانع أطراف الدموع ومقاتى * موقرة بالدمع غرباً على غرب
وهل هي إلا حاجة قضيت لنا * ولوم تحملناه في طاعة الحب
تبدلت شيباً بالشباب فان كطر * شياطين لنا في يقن على قرب
ومنهم من يشكو إلى المسعد والرفيق . وهو أصل هذا الباب .

ومنه هذا البيت السائر

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة * يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ويعجنى في هذا المعنى قول البها زهير

أين من يرحنى أشكو له * انما الشكوى إلى من يرحم

أنا من قلبي ومنها آيس * لم يكن من مقلتها يسلم

أيها السائل عن وجدي بها * إنه أعظم مما تزعم

ولقد حدثت عن شرح الهوى * أنت يارب بحالى أعلم

طال ما ألقاه من نار الجوى * وحديثي لك يا من يفهم

عشق الناس ومثلى لم يكن * فاعلموا أنى فيهم علم

سُطرت قبلى أحاديث الهوى * وبمسك من حديثي تختم

وهذا شعر يشف عن كثير من سلامة الذوق ، وخفة الروح . ولعلك

لأنجد أظرف من قوله

أين من يرحنى أشكو له * انما الشكوى إلى من يرحم

فانه خير ما قيل في معناه . . . ومن المغمزين من يشكو إلى حبيبه وهو

أوجب لرحمته ، وأدعى إلى انصافه . ومنه قول الطغرأتى :

لعمرك ما يرجى شفائى والهوى * له بين جسمى والعظام ديب

أجلك أن أشكو إليك وأنطوى * على كدى إن الهوى لعجيب

وآمل براء من هوى خامر الحشا * وكيف بداء لا يراه طيب

نصيبك من قلبي كما قد عهدته * ومالى بحمد الله منك نصيب

وما أدعى الا اكتفاءً بنظرة * اليك ودعوى العاشقين ضروب

وما بحث بالسر الذى كان يئتنا * ولكنما لحظ المحب مريب

وقوله « نصيبك من قلبي كما قد عهدته » مأخوذ من قول ابن الأحنف

إليك أشكوردبّ ماحلّ بي * من صدّ هذا التائه المعجب
صبّ بعصيانى ولو قال لى * لا تشرب البارد لم أشرب
ان قال لم يفعل وان رسل لم * يذل وان عوتب لم يعتب
وقوله « وما أدعى إلا اكتفاء بنظرة » مأخوذ من قول الشريف
عشقت وما بي يعلم الله حاجة * سوى نظرى والماشقون ضروب
وما حسنت معانيه وصحت تقاسيمه — فى الشكوى إلى
المحبوب — قول بعض الأعراب

شكوت فقلت كل هذا تبرماً * بحبى أراح الله قلبك من حبي
فلما كتمت الحب قالت لشدّما * صبرت وما هذا بفعل شجى القلب
وأدنو فتقصينى فأبعد طالباً * رضاها فتعتدّ التباعد من ذنبى
فشكواى تؤذيها وصبى يسوءها * وتجزع من بعدى وتنفر من قربى
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها * أشيروا بها واستجواوا الشكر من ربى
وهذا شعر الطبع والسليقة ، والموفقون الى مثله قليل

وقد أجاد فى هذا المعنى من شعراء العصر حافظ بك إبراهيم حين قال :
كم تحت أذيال الظلام متيم * دأبى القواد وليله لا يعلم
مأنت فى دنياك أول عاشق * راميه لا يمنو ولا يترحم
أهرمتى ياليل فى شرخ الصبا * كم فىك ساعات تشيب وتهرم
لأنت تقصر لى ولا أنا مقصر * أتعبتنى وتعبت ، هل من يحكم

اللَّهُ مَوْقِفَنَا وَقَدْ نَاجَيْتَهَا * بِعَظِيمِ مَا يَخْفَى الْفَوَادِ وَيَكْتُمُ
 قَالَتْ مِنَ الشَّاكِي تَسَائِلُ سِرِّيهَا * عَنِي وَمِنْ هَذَا الَّذِي يَتَظَلَّمُ
 فَأَجِبْنَاهَا وَعَجِبْنِ كَيْفَ نَجَاهَلَتْ * هُوَ ذَلِكَِ الْمَتَوَجَّعُ الْمَتَأَلَمُ
 أَنَا مِنْ عَرَفْتِ وَمِنْ جَهَلْتِ وَمِنْ لَهُ * لَوْلَا عَيْونُكَ حِجَّةٌ لَا تُنْفَحُ
 أَسَلِمْتَ نَفْسِي لِلْهُوَى وَأَظْهَرْتُهَا * مِمَّا يَحْشَمُهَا الْهُوَى لَا تَسْلِمُ
 وَأَتَيْتُ بِمَحْدُودِي الرِّجَاءِ وَمِنْ أَتَى * مَتَحَرِّمًا بِفَنَائِكُمْ لَا يُحْزَمُ
 أَشْكُو لَذَاتِ الْإِخْلَالِ مَا صَنَعْتَ بِنَا * تِلْكَ الْعِيُونَ وَمَا جَنَاهُ الْمِعْصَمُ
 لَا السَّهْمُ يَرْفُقُ بِالْجُرْحِ وَلَا الْهُوَى * يُبْقِي عَلَيْهِ وَلَا الصَّبَابَةُ تَرْحُمُ
 لَوْ تَنْتَظِرِينَ إِلَيْهِ فِي جَوْفِ الدَّجَى * مَتَمَلِّمًا مِنْ هَوْلِ مَا يَتَجَشَّمُ
 يَمْشِي إِلَى كَنَفِ الْفَرَاشِ مَحَازِرًا * وَجَلًّا يُوْخِرُ رِجْلُهُ وَيَقْدُمُ
 يَرَى الْفَرَاشَ بِنَازِلِهِ وَيَنْشِي * جَزَعًا وَيَقْدُمُ بَعْدَ ذَلِكَ وَيَحْجُمُ
 فَكَأَنَّهُ وَالْيَأْسَ يَنْسِفُ نَفْسَهُ * لِلْقَتْلِ فَوْقَ فَرَاشِهِ يَتَقَدَّمُ
 رُشِقَتْ بِهِ فِي كُلِّ جَنْبٍ مُدِيَّةٌ * وَأَنْسَابُ فِيهِ بِكُلِّ رُكْنٍ أَرْقُمُ
 فَكَأَنَّهُ فِي هَوْلِهِ وَسَعِيرِهِ * وَادٍّ قَدْ أَطْلَعَتْ عَلَيْهِ جَهَنَّمُ
 هَذَا وَحَقِّكَ بَعْضُ مَا كَابِدَتْهُ * مِنْ نَازِلِيكَ وَمَا كَتَمْتِكَ أَعْظَمُ
 قَالَتْ أَهَذَا أَنْتَ وَيَحْكُ فَاتُّدَّ * حَتَّى مَ تَنْجِدُ فِي الْغَرَامِ وَتَنْتَهَمُ
 إِنَّا سَمِعْنَا عَنْكَ مَا قَدَرْنَا * وَأَطَالَ فَيْكَ وَفِي هَوَاكَ اللَّوْمُ
 أَصْنَفْتُ إِلَى قَوْلِ الْوَشَاةِ فَأَسْرَفْتُ * فِي هَجْرَهَا وَجَنَّتْ عَلَيَّ وَأَجْرَمُوا
 حَتَّى إِذَا يَثْسُ الطَّيِّبُ وَجَاءَهَا * أَنِّي تَلَفْتُ تَنْدَمْتُ وَتَنْدَمُوا
 وَأَنْتَ تَعْمُدُ مَرِيضَهَا لِابْلِ أَنْتِ * مِنِّي نَشِيعٌ رَاحِلًا لَوْ تَعْلَمُ

وفي هذه القصيدة صورة شعرية بديعة ، تمثل العاشق ، وقد طال عليه الليل ، وهجر جفنيه المنام . وهي غاية في حُسن القصص ، وسحر البيان

ولنذكر الشكوى الى ساق الراح في قول ابن المعتز :

أيها الساقى الليل المشتكى * قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم هيمت في غرته * وبشرب الراح من راحتِهِ
كلما استيقظ من سكرته * جذب الزُّق اليه واتكا
وسقاني أربعا في أربع

مالعيني عَشِيتُ بالنظرِ * أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبري * عَشِيتُ عيناى من طول البكا
وبكى بعضى على بعضى مئى

غصن بان مال من حيث التوى * مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الأحشاء موهون القوى * كلما فكر فى الين بكى
ويحجى يبكى لما لم يقع

ليس لى صبر ولا لى جلد * ياقوى عذلوا واجتهدوا
أنكروا شكواى مما أجد * مثل حالى حقه أن يشتكا
كد اليأس وذل الطمع

كبد حرى ودمع يكف * أصرف الدمع فلا ينصرف
أيها المعرض عما أصف * قد نما جى بقلبي وزكا
لا تقل فى الحب إنى مدعى

وفي هذه الموشحة شكوى أليمة . تهم بتلها النفس الشجية ، من حين
إلى حين !

وتعجبنى شكوى ابن الرومي في قوله :

ظليّ يصيدُ ولا يصاد محاذرٌ * نبل الهوى وحبائل الإيناسِ
غريّ شمسٌ إن أحسَّ بريةٍ * أعجبُ بجامع غيرةٍ وشماسِ
يسبي القلوب بمقلة مكحولةٍ * بفتور عُنجٍ لا فتور نُعاسِ
يألرّ جال الألعين لا يديّ * صبّ الفؤاد على ضعيفٍ قاسٍ^(١)
أيضيني خنث الشمائل لونيضاً * عنه غلاته حساه الحاسي ؟
ومن العجائب أن تحمل ظلامه * بفتى أناسٍ من فتاة أناسٍ
ومن المعذنين من يبتشكوا من دهره وإخوانه إلى صديق .
أقصته في بره الليالي . ومن شعراء العصر من قارب الإجابة في هذا
المعنى ، كصاحب البدائع حين يقول^(٢) :

أنت الذي علمتني * ياسيدي برّ الصديق
وتركتني في فتيةٍ * ما فيهم برّ رفيق
لم ألق بعدك منهم * إلا الجفاء أو العقوق
حتى كأنني لم أبت * منهم على عهدٍ وثيق
وكانهم لم يبصروا * في خلتي الحرّ الصدوق
ففسوا هواي ولم يفق * من ودع قلبي المشوق

(١) أيد : قوى . من الابد يسكون الياء وهو التوبة

(٢) أرسلت هذه القصيدة للصديق الوزير محمد محمود حسين

ونسوا طريف حديثنا * عند الصُّبُوحِ أو الغُبُوقِ
ليت الهوى ما قاذنى * يوماً إلى ذلك الطريقِ
أوليتنى لم أتمدح * جهلاً بهاتيك البروقِ
بل ليتنى بعد الذى * عانيت من صبحى أُفِيقِ



مولائى لو أبصرتنى * لفزعت من دمعى الطليقِ
وشجاك جسمى ناعلاً * وكأنه الطيف الطروقِ
أشكو إليك وإنما * يشكو المضميم إلى الشفيقِ
فارحم فديتك مهجّةً * أودي بها الحزن العميقِ
حزن يقطع في الحشا * فكانه غدرُ الصديقِ



يا وَّحِّ قلبى لم يزل * يهفوه الروح الخفوقِ
وتقوده الذكرى إلى * عهد الهوى الغض الرقيقِ
أيامَ نرح في الصبا * في ذلك العيش الأنيقِ
أيامَ نُسقى في الهوى * والود كأساً من دحيقِ
تلك الليالى لم تدع * من بعدها حسناً يروقِ
كلّاً ولا خلت لنا * إلا الزفير أو الشهيقِ

عند منازل الأَحباب

كان أبو نَواس يكره الشعر في بكاء الرسوم والأطلال ، وأدباء
هذا العصر يمدون هذه النزعة توديعاً للقديم ، وترحيباً بالجديد ، وهذا
حق إذا لوحظ أن الشعراء كانوا يبدأون قصائدهم ببكاء الديار ، وإن لم
يكونوا بنار الفراق من المحرقين ! ولكن من العبث في تحليل العواطف
أن نجعل ما يجده المحبون عند المرور بديار أحبابهم المبعدين ، ومن الغبن
للآداب العربية أن تغفل ما قيل في منازل الأَحباب من الشعر الباكي
الحزين ! وهانحن أولاء نسط القول عن هذه الوقفة الأليمة ، وقفة
الحب على ديار خلت عُرفها من الظباء الغرائر ، وعفت سُرها من
النساء الحرائر ، بعد أن كان ساكنوها أمل الآمل ، وأمنية المتمنى !
فإن ذلك قول بعض الأعراب وقد وقت (بالحزن) بفتح الحاء . وكان
ملعب شبابهِ ، ومتندي هواهِ ، وصورة أيامهِ الخوالى :

ومستنجد (بالحزن) دمعاً كأنهُ * على الخدم ما ليس يرقاً حائراً
إذا ديمة منه استقلت تهلاّت * أوائل أخرى ما هن أواخرُ
ملا مقلتيه الدمع حتى كأنه * لما نهل من عينيه في الماء ناظر
وينظر من بين الدموع بمقلة * دى الشوق في إنسانها فهو ساهرُ
وفي هذا المعنى يقول ابن الملوّح :

نظرت كأنى من وراء زجاجةٍ * إلى الدار من ماء الصبابة أنظرُ
فعينائى طورا تفرقان من البكا * فأعشى وطورا يحسران فأبصرُ

ومما يغرى القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، قول البحترى :

وقفنا فحينئذ لأهلك بالوى * ربوع ديار دارسات المعالم
ذكرنا الهوى العذرى فيها فأنسى * عزاها مشوقات القلوب الهوام
خلعنا بها عذر الدموع فأقبلت * تلوم وتلحى كل لاح ولائم
لقد حكم البين المشتت بالبلى * عليك وصرف الدهر أجور حاكم
لعل الليالى يكتسين بشاشة * فيجمعن من شمل الهوى المتقادم
ونود لو تأمل القارئ ما فى هذه الآيات من الترتيب والتنسيق :

فقد وقف الشاعر بالديار ، ثم حياها وهو يتنقل بروحه بين الشقاء الحاضر
والنعم الماضى ، ثم اشتعل الحزن فى قلبه اشتعالاً ، فنسى جمال الصبر
وحسن العزاء ، فاندفع يبكى ويتعجب ، ثم أغرب فى البكاء والنحيب ،
حتى خشع ماذلوه ، وخضع لأموره !! ثم توجع للديار مما حكم عليها
البين وصنعت بها الليالى !! ثم تمنى لو ضحك الزمن بعد العيوس ،
فاجتمع الشمل بعد الفراق !! وقال أبو فراس :

على لرب العامرية وقفة * ليملى على الشوق والدمع كاتب
فلا وأبى المشاق ما أنا عاشق * اذا همى لم تلعب بصبرى الملاعب
ومن مذهبي حب الديار وأهلها * وللتناس فيما يشقون مذهب
ولا يفهم أحد كيف يكون حب الديار وأهلها مذهباً لأبى فراس ،
مع أن آياته هذه ليست شيئاً فى جانب ما قيل فى منازل الأحباب ،
ويكفى أن نذكر قول نيهان العبسى فى البئر الذى كانت تشرب منه
محبوبته سليمان

سأسرى الى الماء الذى شربته به * سليعى وبن ملّ السرى كل واحد
والصق أحشائى يبرد ترابه * وان كان مخلوطاً بسم الأسود
ويذكرنى هذا بقول بعض الأعراب فى (الوشل) وهو ماء كان
يطالع عنده وجوه الكواكب :

إقرأ على الوشل السلام وقل له * كلّ المشارب مدهجرت ذميم
سقياً لظلك بالعشى وبالضحى * ولبرد مائك والمياه حميم
لو كنت أملك منع مائك لم يذق * مافى قلائك ما حيت لئيم^(١)
وللشريف الرضى فى بكاء الديار بدائع ، فن ذلك قوله :

ترافر صبحى يوم ذى الأثل زفرة * تذوب قلوب من لظاها وأضلع
منازل لم تسلم عاين مقلّة * ولا جف بعد البيزفين مدمع
قدمع على بالى الديار مفرق * وقلب على أهل الديار مؤزّع
ألا ليت شعرى كل دار مشته * ألا موطن يذنب شمل ويجمع
ومن جيد شعره فى هذا المعنى قوله من كلمة ثانية :

وقفت على تلك الديار ووحشها * دوان ومن يحكين غير دوان
فأنكرت العينان والقلب عارف * قليلاً ولجأ بعد فى الحملان
وهذا آخر ما يقال فى رسوم الديار ، فحسب أطلالها من البلى ،
ورسومها من العفاء ، أن تنكرها العينان ، ولا يعرفها القلب الا قليلاً !!
والأدباء ينكرون أن يتردد القلب فى معرفة دار كانت بالأمس جنة
ونعما ، ولعمجبون بقول طريح بن اسماعيل الثقفى :

(٢) الغلات جمع قلت فتح فسكون وهو النفرة تكون فى الصغرة

تستخير الله من القفار ولم تكن * لرد أخباراً على مستخير
فظللت تحكم بين قلب عارف * منى أحبته وطرف منكر
ومن الشعراء من يرى الديار الخالية ، وكأنها بأهلها مأهولة ، كأن
نواس حين يقول :

لمن دمن ترداد طيب نسيم * على طول ماقوت وخسن رسوم
تجافى البلى عنهن حتى كأننا * لبسن على الإقواء ثوب نعيم
وكقول الأخطل :

لأسماء تحل بناظرة البشر * قديم ولما يعفه سالف الدهر
يكاد من العرفان يضحك رسمه * ولم من ليالٍ للديار ولم شهر
وكقول ابن أحر العقيلي :

تراها على طول القواء جديدة * وعهد المغاني بالحلول قديم
والمعروف في هذا المعنى أن الديار تجد مثل ما يجد المتيم المحزون ،
كقول محمد بن وهب :

طللان طال عليهما الأمد * درسا فلا علم ولا قصد
لبسا البلى فكانتا وجدا * بعد الأحبة مثل ما أجد
وكقول مالك ابن أسماء الفزاري :

ينام سكن لجارهم * ذكروا الفراق فأصبحوا سفرا
فظللت ذا ولو يعاتبني * من لا يرى مثلي له أمرا
بكت الديار لفقد ساكنها * أفعد قلبي أبتغي الصبرا
ومن بديع الشعر في هذا الباب قول ابن سنان الخفاجي :

ولما وقفنا بالديار وعندنا * مدامع نسديها لكم ونثيرها
شكونا اليها مالتينا من الضنى * فمرفقنا كيف السقام دثورها
وقد درست إلا أماره ذاكر * تلوح له بعد التمدادى سطورها
خليلى قد عم الأسى وتقاسمت * فنون البلى عشاق ليلي ودورها
فلا دار إلا دمنة ورسومها * ولا نفس الا لوعة وزفيرها
لعمر الليالى ما حمدت قديمها * فيوحثنى ذهابها ومروورها
وقالوا عطاء الدهر بلى جديدة * ومن لى بدنيا لا يزول سرورها
ونود لو تأمل القارى إبداع ابن سنان فى هذين البيتين

خليلى قد عم الأسى وتقاسمت * فنون البلى عشاق ليلي ودورها
فلا دار الا دمنة ورسومها * ولا نفس الا لوعة وزفيرها
وحسب العاشق من موجب الأسى ، وداعى الحزن ، أن يرى منازل
أحبابه هامدات ، باليات

تعفو المنازل إن نأوا * عنها وتغير البلاد

والحى أولى بالبلى * شوقا اذا بلى الجماد

وهل تأملت كيف شكا الى الديار مالتى من الضنى ، وكيف عرف ما به
من السقم لما تبين دثورها ، وتعرف عفاءها ! وياليت شعرى هل شكت
اليه ما تجد من بعد سكنها ، وبين ملاكها ؟ أما والهوى إنها لتشكو
فى صمتها الرهيب : اذ كانت تحزن بغير قلب ، وتبكي بغير دمع ١١

كفى حزنا للهائم الصب أن يرى * منازل من يهوى معطلة قفرا
ومما يقرب من فلسفة الشعر ، وفقه الأدب ، فى بكاء الرسوم الهوامد ،

والأطلال الدوارس ، مع الإفصاح عن الأسمى والبث : والشجى والحزن ،
قول ابن الخياط في ديار لقيت من بعد سَكَّانها مالتى المحب بعدم من
الضنى والنحول :

وقفت أدارى الوجد خوف مدايح * تبيح من السر المنع ما أحمى
أغالب بالشك اليقين صباية * وأدفع من صدر الحقيقة بالوهم
وهذا من خير ما قيل في مصانعة النفس ، ومغالبة الوجد : فقد عرف
الديار بقلبه ، لما ضمنت منه الضلوع لأهلها النازحين ، وأنكرها بطرفه ،
لما لقيت من الدثور والعفاء ، فهو يريد أن يعتصم بالشك ، لينجو من قسوة
اليقين ، ولكنه غلب على أمره فقال :

فلما أبى إلا البكاء لى الأسمى * بكيت فثأبت للرسم من رسم
كأنى بأجزاء النقية مُسلم * إلى ثأر لا يعرف الصفح عن جرم
يرحمه الله !! فهل رأى ثأراً أظلم من الوجد ، وحاكاً أجور من الصباية !!
ثم أخذ يقارن بين بليتة وبليتة الديار ، فقال :

لقد وجدت وجدى الديار بأهلها * ولو لم تجد وجدى لما سقمت سقمى
عليهنَّ وسمَّ للفراق وإنما * على له ما ليس للنار من وسم
وهذا من الإبداع في وصف الديار الخالية ، وهل تجد المنزل بعد أهله إلا
باكية حزينة ؟ أو ليست وحشة المنزل الخالى ذلةً باديةً يطالع بها الراح
والغادى ، عساه يعرف شيئاً عن سكانه الراحين ، وملاً كه الغائبين ؟
إن السكان للمنازل كالأرواح للأجسام ، فإذا ارتحلوا آن جِهاًمها ، وحان

ذئورها، وحلّ دمارها : وقد رأى الشاعر بعد ذلك أن الين جائر
في قسمة الضنى بينه وبين المنزل الخالي ، فقال :

وكم قسم الين الضنى بين منزل * ويني ولكن الهوى جائر القسم
منازل أدراس شجاني نحو لها * فهلا شجاها نأحل القاب والجسيم
وهذه استغانة بالطلل البالي ، يشعر بمثلها ذو اللوعة الحزين !

وكان ابن الخياط من أغزر الناس دمعاً عند مغاني الأحباب ، فمن

ذلك قوله :

يا عمرؤ ما وقفةٌ في رسم منزلةٍ * أثار شوقك فيها نحو أنار
أنكرت فيها الهوى ثم اعترفت به * وما اعترافك الا دمعك الجارى
لو كنت ناسي عهد من تقدمه * نسبتُ فيها لباناتي وأوطاري
أيامٍ يفتك فيها غير مرتقبٍ * ظبي الكناس بليث الغابة الضاري
لأرسل اللحظ الا كان موقفه * على شמושٍ منيرات وأقار
ما أطيب العيش لو أنى وفدت به * على زمانٍ ودهرٍ غير غدار
وهذا شعر يخاطب النفس ، ويلابس الفؤاد ، ومثله في اللوعة قوله

من كلمة ثانية :

أجذك ما تنفك بالفرور ناشداً * فؤاداً بنجد ؟ يا قلبك من نجد !
وانى لتصميني سهام اذكاركم * وان كان راي الشوق منى على بعد
تمادى غرام ليس يجرى الى مدى * وفرط سقام لا يقيم على حد
وما أنسَ لا أنسَ الحى وأهله * تضلّ ومن حق الأهلة أن تهدي
زماناً إخال الجهل فيه من النهى * وحباً أعد النى فيه من الرشد

غَدِيرَ وَمَاتُولَن نِيلاسوى الجوى * وَبَيْنَ وَمَا زُوْدَن زَادَاسوى الوجْدِ
خَلِيلِي مَا أَحْلَى الْحَيَاةَ لَوْ أَنَّهَا * لَطَاعِمَهَا لَمْ تَخْطُ الصَّابَ بِالشَّهْدِ
لَقَدْ حَالَتِ الْأَيَّامُ عَنْ حَالِ عَهْدِهَا * وَمَنْ لِي بِأَيَّامٍ تَدُومُ عَلَى الْعَهْدِ
وَمَنْ بَدِيعَ الشَّعْرِ فِي بَكَاءِ الدِّيَارِ قَوْلُهُ مِنْ كَلِمَةٍ طَوِيلَةٍ :

وَبِالْجَزَعِ حَتَّى كَلَّمَاعَنْ ذَكَرَهُمْ * أَمَاتِ الْهُوَى مَنِ فَوَادَى وَأَحْيَاةَ
تَمْنِيَتِهِمْ بِالرَّقَّتَيْنِ وَدَارُهُمْ * بَوَادَى الْغَضَا يَا بُعْدَ مَا تَمْنَاهُ
سَقَى الْوَاهِلَ الرَّبْعَى حَائِلَ رَبْعِهِمْ * وَرَاوَحَهُ مَا شَاءَ رَوْحٌ وَغَادَاهُ
وَجَرَّ عَلَيْهِ ذَيْلَهُ كُلَّ خَاطِرٍ * إِذَا مَا مَشَى فِي مَاطِلِ التَّرَبِّ حِلَاةُ
وَمَا كُنْتُ لَوْلَا أَنْ دُمِىَ مِنْ دِيمٍ * لِأَحْمَلُ مِنْهُ لِّلْسَحَابِ بِسَقِيَاهُ
وَمَنْ الْمَعَانِي الْمَوْلُودَةُ فِي الدَّمْعِ عِنْدَ الرِّسْمِ قَوْلُ الْأَرَجَانِي :

وَقَفْتُ بِأَطْلَالِ الدِّيَارِ مُسَلِّمًا * وَعَهْدِي وَمِلءُ الْوَادِيَيْنِ قِبَابُ
فَأَبْرَقَ عَذَالِي مَلَامًا وَأَرْعَدُوا * وَأَمْطَرَتْ أَجْفَانِي قَتْمٌ سَحَابُ
بِهِ غَنَيْتُ أَرْضَ الْحَيِّ عَنْ مُصْبِحٍ * يَقُولُ سَقَى دَارَ الرَّبَابِ رَبَابُ
وَهُوَ خِيَالٌ يَبْدُو كَأَنَّهُ طَرِيفٌ ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الْأَخْيَلَةِ الْجَوْفَاءِ ! وَفِي

هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ ابْنُ التَّمَاوِيذِيِّ :

سَقَى دَارَ الْحَبِيبِ وَإِنْ تَنَاءَتْ * مِثْلُ مِثْلٍ أَجْفَانِي هَطُولُ
وَلَا بَرَحَتْ تَسْحَبُ لِلْفَوَادَى * وَطَوْرًا لِلصَّبَا فِيهَا ذِيُولُ
لِجَفْنِي وَالنَّهَامَ لَهَا غَدِيرٌ * وَقَلْبِي وَالنَّسِيمَ بِهَا عَلِيلُ
وَعَنْفَنِي عَلَى الْمَبْرَاتِ صَبْحِي * عَشِيَّةَ قُرُوضِ الْحَيِّ الْحُلُولُ
وَقَالُوا أَسْتَبِقُ لِلْأَحْيَابِ دَمْعًا * فَقَدْ شَرِقَتْ بِأَدْمَعِكَ الطَّلُولُ

معاذ الحب أن ألقى سحولاً * وقد سارت بمن أهوي الخول
وعاد أن ترم ليوم بين * جهلم ولى صبر جميل
ومن الشعراء من يحمل الحنين إلى الوطن كناية عن الحنين إلى ليالى
الشباب التى قضاها بمرأى من كواكبه السواطع ، ونجومه اللوامع .
وقد نوّه بذلك صاحب زهر الآداب فذكر أن ابن الرومى جاء إلى على
ابن عبد الكريم النصيبى وأنشده هذه القطعة البديعة :

ولى وطن آليت أن لا أيسه * وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منما * بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم * ما رب قضاها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم * عهود الصبا فيها فحنوا لذلك
فقد ألفتة النفس حتى كأنه * لها جسد إن بان غودر هالكا
ثم قال : أنصفنى وقل الحق . أيهما أحسن ؟ قولى فى الوطن أم قول الاعرابى
أحب بلاد الله ما بين مَنعيج * إلى وسلى لا يصوب سحابها
بلاد بها نيطت على تمانى * وأول أرض مس جسمى ترابها
فقال له : بل قولك أحسن ، لأنه ذكر الوطن ومحبته . وأنت ذكرت
العلة التى أوجبت ذلك ۥ وقد يشعر القارئ بالحاجة إلى معرفة المخاطب
فى قول ابن الرومى :

عمرت به شرخ الشباب منما * بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وخلاصة الحديث أن القطعة التى نقلناها من شعر ابن الرومى عن
الوطن هى جزء من قصيدة قدمها إلى سليمان ابن عبد الله بن طاهر

يستعديه على رجل من التجار أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرانها،
فما فيها من التحريض قوله :

وإني وإن أضحي مُدلاًّ بماله * لآمل أن أضحي مدلاًّ بمالك
فإن لم تصبني من يمينك نعمة * فلا تخطئنه تقمة من شمالك
فكم لني العافون بدءاً وعودة * نوالك والعادون غمر نكالك
وقال ابن الرومي من كلمة أخرى يتشوق إلى بغداد :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا * ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيت * وعليه أغصان الشباب تيمد
والآباء يرون أن مثل هذا الشعر ليس بكاء على الوطن ، ولا بكاء
على اللهو ، ولكنه بكاء على الشباب ، ويذكرون قول ابن الرومي من
كلمة ثانية :

لا تلح من يبكي شبيبته * إلا إذا لم يبكها بدم
عيب الشبيبة غول سكرتها * ومدار ما فيها من النعم
لسنا نراها حق رؤيتها * إلا أوان الشيب والهزم
كالشمس لا تبدو فضيلتها * حتى تُغشى الأرض بالظلم
ولرب شيء لا يسر به * وجدانه إلا مع العدم
والذين يؤولون شعر ابن الرومي هذا التأويل يرون أنه تبع في وصف
الوطن بشار بن برد حين يقول :

متى تعرف الدار التي بأن أهلها * بسعدى فإن العهد منك قريب
تذكرك الأهواء إذ أنت يافع * لديها فغنناها إليك حبيب

ولعلنا لا نبالي إذا ذكرنا هؤلاء بأن بكاء الشباب ليس إلا بكاء
لما أقطع بعده من دواعي الطيش ، وموجبات الجنون ، فبعض العقل
رذء ، وبعض الوقار بلاء ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !!

ولقد سافر العباس بن الأحنف مع هرون الرشيد الى خراسان
فاستدعاه ليلة لينشده شيئاً من الشعر ، فأنشده هذه الأبيات :

قالوا خراسانُ أقصى ما يراد بنا * ثم الفُؤولُ فقد جئنا خُراسانا
مضى الذي كنت أرجوه وآملهُ * أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدرُ الله أن يذني على شَحَطٍ * سكان دجلة من سكان جيحانا
فقال له : لقد اشتقت يا عباس ! فأجابه ، نعم يا أمير المؤمنين !

فأذن له بالرجوع ... وقال ابن ميادة مخاطب الوليد بن يزيد
ألا ليت شعري هل أبينُّ ليلةً * بجرّة نيلي حيث ربّني أهلي
بلاد بها نيطت على تمانّي * وقُطّعن عني حين أدركني عجلي
فإن كنت عن تلك المواطن ماني * فأقرّر على الرزق واجمع بها شملي
وهذا البيت من أرق ما قيل في الحنين إلى الأوطان ، وما أدرى
أكان شوق ابن ميادة إلى بلاده رفقاً بالأهل والعشيرة ، أم كان برّاً
بمن فيها من فائنات الحدود ، وساحرات العيون ، وقاسيات القلوب ؟
لا يعلم ذلك الا الذي يقول :

ومن ينات الحب أن كان أهلها * أحبّ إلى قلبي وعيني من أهلي
وقال مالك ابن الربيع يتشوق إلى اليمامة ونسيما العليل :

سقى الله الليمامة من بلادٍ * نوافجها كأرواح الغواني^(١)
 وجوَّ أزهريِّ الريح فيه * نسيم لا يرثع الترب واني
 به سقت الشباب إلى مشيب * يقبح عندنا حسن الزمان
 وقال بعض الاعراب في توديع نجد ، ومالتى بها من نضارة العيش ،
 وطيب الحياة :

أقول لصاحبي والعيس تهوى * بنا بين المنيفة فالضمار
 تتمتع من شميم عرار نجدٍ * فإ بعد العشية من عرار
 ألا يا حبذا تفحات نجدٍ * ودياً روضه بعد القطار
 وأهلك إذ يحلّ الحى نجداً * وأنت على زمانك غير زار^(٢)
 شهور ينقضين وما شعرنا * بأنصاف لهن ولا يرار
 وهذا حين يذل له عصيُّ الدمع . ويشبهه قول ابن المعتز في دار
 كانت ملعب صباه :

لامثل منزلة الدورية منزلٌ * يادارُ جادكٍ وابلٌ وسفالكِ
 بؤساً لدهرٍ غيرتك صروفهُ * لميمحُ من قلبي الهوى ومحالكِ
 لم يحلّ للعينين بعدك منظرٌ * دُمّ المنازل كلهن سواكِ
 أى المعاهد منك أئدب طيبةُ * ممسالكِ بالأصال أم مفداكِ
 أم تردّ ذلك ذى الفصون وذى الجنى * أم أرضك الميثاء أم ريبكِ
 وكأئنما سُعطت مجامر عنبرٍ * أوفتَ فار المسك فوق ثراكِ
 وكأئنما حصباء أرضك جوهرٌ * وكان ماء الورد دمع نداكِ

(١) النوافج بالميم جمع نافجة وهى الريح تبدأ بشدة (٢) غير زار : غير طاب

وكأنا أيدى الربيع ضحية * نشرت ثياب الوشى فوق رُبَاكِ
وكأنّ درعا مُفرغاً من فضة * ماء الغدير جرت عليه صباكِ
وبما يقرب من بكاء الديار ذكر منازل اللهو والقصف . وقد كان
الشعراء يتخذون الأديار موطناً لعبث الصبا ولعب الشباب ، ولكثير
منهم حنين موجه إلى سكانها من ظرفاء الرهبان ، وربما عدنا إلى
بسط ذلك في غير هذا الحديث ، ونكتفي الآن بنفثات العشاق
في التغنى بمنازل الشراب . فن ذلك قول محمد بن عاصم المصري في دير
القصور ، وقد كان ملعباً للشعراء المصريين :

إن دير القصور هاج أدكارى * لهو أيامنا الحسانِ القصارِ
وزماناً مضى حميداً سريعاً * وشباباً مثل الرداء المَارِ
ولو أن الديار تشكو اشتياقاً * لشكت جفوق وبعد مزارى
ولكادت تسير نحوى لما قد * كنت فيها سيرت من أشعارى
وكأنى إذ زرته بعد هجرٍ * لم يكن من منازل وديارى
إذ صعدى على الجياد إليه * وأنحدارى فى المعتقات الجوارى
بصقور الى الدماء صوادٍ * وكلابٍ على الوحوش ضوارى
منزلاً لست محصياً ما لقلبي * ولنفسى فيه من الأوطارِ
كم شربنا على التصاوير فيه * بصغارٍ محثوثةٍ وكبارِ
صورة فى مصوِّرفيه ظلت * فتنة للقلوب والأبصارِ
أطربتنا بغير شدة فأغنت * عن سماع العيدان والمزمارِ
لا وحسن العينين والشفة اللـمـيـاء منها وخدها الجلتارِ

لا تخلفتُ عن مرادى دهرًا * هي منه ولو نأى بي مزارى
وفي دير القصير هذا يقول كشاجم :

سلام على دير القصير وسفحه * فجنات حلوان إلى النخلات
منازل كانت لي بهنَّ مآرب * وكن مواخيرى ومنزهاتى
إذا جئتُها كان الجياد مراكبي * ومنصرفى فى السفن منحدرات
ومن الأديار التى خلدها الشعراء « دير قنّا » بالقرب من بغداد ، وقد
أبدع فى وصفه المؤرخون ، ثم طواه الدهر فيما طوى من ملاعب
الشباب ، ولم يبق غير ذكره فى قول ابن جهمور :

يا منزل اللهو بدير قنّا * قلبى الى تلك الرّبي قدحنا
سقيًا لأيامك لما كنا * نتار منك لذةً وحسنًا
أيام لا أنعم عيشًا منا * إذا انتشيننا وصحونا غدنا
إذا فنى دنّ بزلنا دنّا * حتى يُظن أننا جنينا
ومُسعدٍ فى كل ما أردنا * يحكى لنا الفصن الرطيب اللدنا
أحسن خلق الله اذ تحنّا * وجسّ ذبر عوده وغنا
بالله يا قبس يا افنا^(١) * متى رأيت الرشا الأغنا
متى رأيت فتنتى تجنى * آه إذا ماماس أوثنى
أسأت إذا أحسنت فينا الظنا !

ومن الشعراء من تهيج حفيظته على قطر فيتغنى بقطر آخر كان
ملعب هواه ، كما قال السرى الرّفاء يمدح الموصل ويذم العراق :

(١) قد يكون أصل الكلمة يا أبا فناء بعدت المدة تخنيفا والمراد به ساكن دير قنّا

لحاً الله العراق وساكنيه * فما للحرّ بينهم قرارُ
 وجاد الموصل المبيض غيث * مجود للبروق به انفسارُ
 كما انهلّت مدامع مستهام * تلهّب منه في الاحشاء نارُ
 ففي أيامه حسن التصابي * وفي أفيائه خُلم العذار
 ليلى كان لى في كل يوم * الى الحانات حج واعمار
 فعن ذكر القيامة في صدور * وعن ساح المساجد في نفاذ
 ولى خندان همها المعالي * وشأنهما السكينة والوقار
 وساق تضحك الدنيا إليه * اذا ضحكت بكفيه العقار
 يطوف بها وقد حلت حباباً * كما حمل السقيط الجنّار^(١)
 كأنّ الثرب ينتهبون ناراً * لها لهب وليس لها شرار
 رأى الدهر اجتماع الشمع منا * فبدّده وللدهر الخيار

إلى هنا وقف القارىء على نماذج في بكا الديار الخالية ، والحنين إلى
 الوطن النائي ، والشوق إلى مواطن اللهو والشراب ، فلنذكر شكوى
 العشاق من المنزل القريب المأهول ، حين يصبح أهله كالنكواكب
 قريبة الضوء ، بعيدة المنال ! اوحين يصبح تمنع الحبيب أقدس من النوى ،
 وأمر من الفراق . وأبدع الشعر في ذلك قول راشد بن إسحق الكوفي :
 ومُسْتَوْحش لم يمس في دار غربة * ولكنه مُنَّ يجب غريبُ
 طواه الهوى واستشر الوصل غيره * فشطّت نواه والمزاد قريبُ
 سلامٌ على الدار التي لا أزورها * وإن حلها شخص الى حبيبُ
 وإن حَجَبَتْ عن ناظري ستورها * هوى تحسُن الدنيا به وتطيبُ

هوى لضحك الذات عند حضوره * ويسخن طرف اللهو حين يغيب
 تنني به الأعطاف حتى كأنه * إذا اهتز من تحت الثياب قضيب
 ألم ترصعتي حين يجرى حديثه * وقد كنت أدعى باسمه فأجيب
 رضيت بسعى الدهر بيني وبينه * وإن لم يكن للعين فيه نصيب
 أحاذر إن واصلته أن ينالني * وإياه سهم للفراق مصيب
 أرى دون من أهوى عيوناً تربيني * ولا شك أنى عندهن مرب
 أدارى جالسي بالتجلد في الهوى * ولى حين أخلو زفرة ونحيب
 وأخبر عنه بالذى لا أحبه * فيضحك سنى والفؤاد كئيب
 مخافة أن تغرى بنا ألسن العدا * فيقطع فينا كاشح فيعيب
 كأن مجال الطرف في كل ناظر * على حركات العاشقين رقيب
 أرى خطرات الشوق يبكين ذا الهوى * ويصبين عقل المرء وهو لبيب
 وكم قد أذل الحب من متمتع * فأضحى وثوب العز منه سليب
 وإن خضوع النفس في طلب الهوى * لأمر إذا فكرت فيه عجيب
 وقد نقل صاحب زهر الآداب عن أبي شراة القيسى أنه كان
 في مجلس العتيبي مع عبد الصمد بن الممذل ، وأنهم تذاكروا ما أبدع
 المولدون من الشعر الرقيق ، فقال عبد الصمد أنافى ذلك أشعر الناس ،
 فقال أبو شراة أشعر منك الذى يقول :

ومستوحش لم يمس فى دار غربة * ولكنه بمن يحب غريب
 الى آخر القصيدة . وأن عبد الصمد حين ممها لم ينطق بحرف !!
 وعندى أن صاحب هذه القصيدة لم يوفق فى وصف مشاعره وصفاً

منظماً يصح أن يكون «صورة شعرية» بل نراه جمع بين أشياء متنافرة
حفظها من الائتلاف قليل : ألا نراه يذكر في أول القصيدة أنه قريب ،
ولكنه في قربه غريب ، لأن انساناً غيره يتمتع بذلك الحبيب ؛ ثم ألا
تراه بعد ذلك يذكر أنه يحاذر الوصل طائفاً لئلا يصيبه ويصيب من
يهواه سهم الفراق ؟ وهذا بالطبع شطط في تصوير النفس المعذبة ،
لأن الذي يتصور أن محبوبه قد يطوق بذراع عاشق غيره لا يتغنى بأنه
يترك مواصلته اتقاءً لميون الوشاة !!

ينقص هذه القصيدة اذن ما أسميه « الصورة الشعرية » ولا يمنع
هذا أن تكون في جلتها جميلة لما تحويه من الأبيات المختارة . وأنصح
أن العتيبي صادق على أن صاحبها أشعر الناس فانا نشك في أذواق الأدباء
الأقدمين ورتاب في حاستهم الفنية . وأحب أن يفهم بعض الناس معنى
« الخاسة الفنية » فان كثيراً من أدعياء الأدب لا يفقهون ما يقولون
وما يكتبون ، فضلاً عن أن يفقهوا ما تنأثر على بساط الدهر من ثمرات
العقول !!

وأمثال هؤلاء يعرفون فقط ما يسمع أو يرى أو يلمس أو يشم
أو يذاق !! ولكنهم لا يعرفون ما يدرك ، إذ لم يرزقوا الإدراك !! ومحال
أن يجدوا طعماً لقول الشاعر :

أسمع في قلبي ديب المنى * وأمس الشبهة في خاطري
لأنهم لا يدرون أين تكون الخواطر . وأين تكون القلوب !! من
أجل هذا أشير على طالب الأدب بأن يتروى ويتريث حين يقرأ آثار

الكتاب والشعراء ، وأن لا يعتمد في اختياره على الأذواق العامة لعلماء
البيان : فقد غفل الدهر عن كثير من المتصدرين فظنوا أنهم على شيء ،
وأن الأدب لحياتهم مدين !!

وقد يمر العاشق بيت من يهوى ثم لا يملك التحية ، لأن الوشاة
له بالمرصاد . فن ذلك قول السرى الرفاء :

مردنا بالمعيق فكم عقيق * تفرق في محاجرنا فذا
ومن معنى جعلنا الشوق فيه * سؤالا والدموع له جوابا
وفي السكال التي غابت شمس * اذا شهدت ظلام الليل غابا
حملت لهم أعباء التصابي * ولم أحمل من السلوان عابا
ولو بعدت قبالك قاب قوس * من الواشين حيث القبابا
الى هنا عرف القارى ألوان العوادف عند منازل الأحياب ، فقد
رأى نقشات المحبين عند الديار الخالية ، وشهد بكاءهم على الوطن النائي ،
وحينهم الى مواطن اللهو والشراب ، ثم رأى زفرائهم عند المنزل يدنو
وهو بعيد ، لنفور ما فيه من الظباء !! ويجمع شتيت هذه المعاني قول
بعض الأعراب :

بكل تداوينا فلم يُشف ما بنا * على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع * اذا كان من هواه ليس بذي عهد
وربما عدنا الى تفصيل هذه النوازع القلبية ، حين نتحدث عن آراء
الشعراء في أفنان الجمال

وشاية الدموع

من العشاق من يؤثر الكتمان : فهو يخشى أن تفضحه الدموع !
وأشهر الشعراء في إخفاء الحب العباس بن الأحنف ، وسنبسط الكلام
عن مذهبه حين نتكلم عن الكتمان . ونكتفي الآن بشعره عن قهره
بالدموع : وقد رأيتُه يتوجع حيناً من عجزه عن كتم الحب وقد غلبه الدمع ،
فيقول :

هبوني أغض إذا ما بدت * وأملك طرفي فلا أنظرُ
فكيف أستتار إذا ما الدموع * ع نطقن فبحن بما أضمرُ
أمنى تخاف انتشار الحديث * وحظي في صونه أوفرُ
ولولم يكن في بقيا عليك * نظرت لنفسى كما تنظرُ

ويغضب حيناً على دمع عينيه فيقول :

لا جزى الله دمعي خيراً * وجزى الله كل خير لسانى
نمّ دمي فليس يكتم شيئاً * ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي * فاستدلوا عليه بالعنوان
وبالنق في هذا المعنى حتى ليرى قلبه بالمداوة ، فيقول :

قلبي الى ماضرتي داعي * يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف أحتراسي من عدوى اذا * كان عدوى بين أضلاعي
ومن الشعراء من يئس من كتم الهوى حين تنهمر الدموع ،
كما يقول البحري :

علاقة حبٍ كنت أكنم بنها * إلى أن أذاعتها الدموع الهوامع
إذا العين راحت وهي عينٌ على الجوى * فليس بسرٍ مأسرٍ الأضالع
وقد أقصص الأرجاني عن غاية ذلك : وهي نصر الوشاة ، بقوله :
ولى نفسٌ إذ ما أمتدَّ شوقاً * أطار القلب من حرق شظايا
ودمعٌ ينصر الوشين ظلماً * ويظهر من سرائري الخبايا
وأكرم من هؤلاء جميعاً الشريف الرضى حين يقول :

أيسمح جفني بالدموع وأعتدى * ضنيناً بها انى إذن للثيم
ولو بخلت عيني إذن لعتبتها * فكيف ودمع الناظرين كريم
وقد نظر أبو نواس الى قول بشاش بُرد :

يُرْوَعُ السَّرار بكل شيء * مخافة أن يكون به السَّرارُ
ثم حاكاه بهذه الأبيات في نيمة الدمع :

قد تسرتُ بالسكوت وبالإطراق جُهدى فتمتِ العينانِ
تركنتي الدموع نُصبَ المشيرينَ وأخذوتُ بكل مكانِ
مأدى خالين للسر إلا * قلت ما يخلوان إلا بشافى

وهي صورة شعرية ، تمثل العاشق المروّع أصدق تمثيل
ومن المحبين من نتم عليه دموعه الغزار ، وأنفاسه الحرار ،
كالبحترى حين يقول :

إن الخطوب طَوَّنتني ونشرتني * عبت الوليد بجانب القرطاس
ما شبت من طول السنين وإنما * طول الملامة فيك شيب راسي
تمت على مافي ضميري أدمعي * وتتابع الصعداء من أنفاسي

ومن رائع الشعر في فضيحة الدمع لصاحبه قول مهبّار :
 طرختُ يجمع نظرةً ساءَ كسبُها * وتبعثُ شرّاً للعيون المطارحُ
 فان سَرتُ تلكَ الثلاثُ على مَنّي * هوأى فيومُ النّفَر لا شكّ فأضحُ
 بكيتُ ولا مَ العاذلاتُ فلم تنضُ * على رُقِيّة العذل الدموعُ السوافحُ
 وأُحب أن يتأمل القارئُ قوله « نظرتُ بجمعٍ نظرةً ساءَ كسبُها »
 ليعرف كيف يسوءُ كسبُ العيون ، حين تجنى على القلوب !

سلطان الحب

سألنا حضرة الشيخ محمد علي الخالدي عن الحب : أختياري هو أم
 اضطراري ؟ وهل الحب مضطر أم مختار ؟ وقد اختلف الناس من قبل
 في هذه المسألة ، وأوضحها ابن أبي حجلة في كتاب « ديوان الصباية »
 وأنا نقلُ هنا نبذة من ذلك الكتاب الذي انتهى منه مؤلفه في منتصف
 القرن الثامن الهجري ، لأنه يمثل لنا رأى علماء ذلك العصر في مثل هذه
 الشئون . قال ابن أبي حجلة في سذاجة غريبة مانصه :
 « هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره . وأسفر كالصباح أمره . اذ
 للناس فيه كلام من الطرفين ، وتبخر من الصّفين . فقائل بأنه اضطراري .
 وقائل بأنه أختياري . ولكل من القولين وجه مليح . وقد رجح .
 ونحن نذكر من ذلك مايم به الاتّفاق . وتكلم في طوله وعرضه بالباع
 والذراع (١١) فن ذلك ما قاله القاضي أبو عمرو التوتاني في كتابه تحفة
 الطرف : المشاق معذرون على كل حال . مغفور لهم في جميع الأقوال

والأفعال . إذ العشق إنما دعاء على غير اختيار . بل أعتراهم على جبر
وأضطرار . والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور . لافي المقضى
عليه والمقدور . وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن
الحامل كانت ترى يوسف عليه السلام فتضع حملها . فكيف تراها وضعتها ؟
أباختيار منها كان ذلك أم باضطرار ؟ لا . بل باضطرار ، وقد اقتدار .
وهذا مما لا يشك فيه ذولب . ولا يختلج خلافة في قلب »

ثم نقل عن الفضيل بن عياض أنه قال : لو رزقني الله دعوة مجابة
لدعوت الله بها أن يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية . ونقل عن
أبي محمد بن حزم أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين إني
رأيت امرأة ففشتها . فقال عمر : ذلك مما لا يملك . قال « وما أحسن
قول بعض بني عُذرة وقد قال له بعض العرب : ما لأحدكم يموت عشقا
في هوى امرأة يألفها ؟ إنما ذلك ضئف نفس ، ورقة ، وخَوَر ، تجذونه
فيكم يا بني عُذرة . فقال : أما والله لو رأيتم الحواجب الزُّجج ، فوق النواظر
الدُّعُجج ، تحتها الملباس المُفْلج ، لاتخذتموها اللات والعزى ! »

ثم قال بعد كلام طويل « إن العشق يختلف باختلاف بني آدم وما
جُبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية ، وغلظ الكبد ، وقساوة القلب ،
ونفور الطباع ، وغير ذلك . فمنهم من إذا رأى الصورة الحسنه مات من
شدة ما يرد على قلبه من الدهش . ومنهم من إذا رأى الميخ سقط من
قامته ، ولم يعرف نعلَه من عمامته » — العاقبة عندكم يا شيخ محمد : — ثم
قال « فهذا وأمثاله عشقه اضطرارى ، والمخالفة فيه مكابرة في المحسوس »

والذى أراه أن الحب مضطرب غير مختار، وما ذكرت هذه التفاصيل
الآ ترويحاً للنفس . أما الشعر في سلطان الحب فكثير . فن الشعر
من يجعله سحراً ، كالطغرائى حين يقول

إن لم يكن سحرًا هوأك فأنه * والسحر قُداً من أديم واحدٍ
مازلت أزهد في مودة راعب * حتى ابتليتُ برغبةٍ في زاهدٍ
ولربما نال المراد مُرفقه * لم يسع فيه وخاب سعى الجاهدِ
هذا هو الداء الذى صاقت به * حيل الطيب وطال يأس العائدِ

ومنها من يذكر أنه قتل نفسه غير متعمد ، كقول ميار :
وعنّفى سعد على فرط ما أرى * فقلت أتعنيفٌ ولم تك مُسعدى
وما ذاك إلا لأن عجلتُ بنظرةٍ * قتلتُ بها نفسى ولم أتعمدِ
ومنها من يرى الحب يصب على القاب كالفضاء المحتوم لامرء له .
كقول المتنبي :

أيدرى الربيع أى دم أراقا * وأى قلوب هذا الركب شاقا
لنا ولأهله أبداً قلوبٌ * تلاقى في جسوم ما تلاقى
فليت هوى الأجابة كان عدلاً * فحمل كل قلب ما أطاقا

ومنها من يجعله قضاءً من الله . كقول عمرو بن ربيعة الرقائى :
تضيق جفون العيز عن عبراتها * فتسفعها بعد التجلد والصبرِ
وغصة صدرٍ أظهرتها فرفهت * حزا زهرة حرّ في الجوانح والصدرِ
ألا ليقل من شاء ماشاء إنما * يلام الفتى فيما استطاع من الأمرِ
قضى الله حب المالكية فاصطبر * عليه فقد تجرى الأمور على قدرِ

ويدخل في هذا الباب خلود الحب . فن الشعراء من يجعل سببه
خلود المحاسن في الحبيب ، كقول ابن الرومي :
هل الملالة إلا مُنْقَضَى وطر * من مُتَعَةٍ يُطْعَى من غيرها وطرُ
وفيك أحسن ما تسموا النفوس له * فأين يرغب عنك السمع والبصرُ
وكما قال ابن عَنَيْن :

خبروها بأنه ما تصدّى * لساو عنها ولو مات صدّا
وأسا لوها في زوزة من خيال * إن تكن باتجمن الهجر بُدّا
ظلية تخجل الغزالة وجهاً * وبهاء وتقضض الفصن قدّا
وكما قال أبو الأسود الدؤلي :

أبى القلب إلا أم عمرو وجهها * عجوزاً ومن يُحب عجوزاً يفند
كبرد الياني قد تقادم عهده * وردفته ما شئت في العيز واليد
وهو رأى منتقد : فكل زهر الى ذبول ، وكل جمر الى خمود ،
وكل حسن الى فناء ، ولا خلود للحب اذا كان داعيه الحسن الفاني والجمال
الزائل

ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب كثرة دواعيه ، كقول
صردر :

ولقد عرضت على السلوجوا نحي السحري فلم يرهن دار مقام
كيف الساو وليس يسلك مسمى * إلا حنين أو بكاء حمام
وكما قال ابن الزيات :

لم يزدني العذل إلا ولما * ضرتني أكثر مما نفعا

ذهبت بالقلب عين نظرت * ليثها كانت وإياه معا
كل يوم لي منها آفة * تركتني للهوى متبعا
وكما قال ابن التعاويذي :

يلوم عليك خال من غرامي * رويدك أين سمعي والملام
سلو مثل عطفك لا يرجي * وصبر مثل وصلك لا يرام
فكيف أطيع عذالي وعندي * هموم قد سهرت لها وناموا
وهذا أيضاً منتقداً ، فإن أمثال هؤلاء الشعراء ينسون الحب إذا نفدت
دواعيه !!

ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب تغافل الوجد في الأحشاء .
كما قال الأبيوردى :

أرى كل حب غير حبك زائلاً * وكل فؤاد غير قلبي ساليا
إذا استخبر الواشون عما سره * حمدت سلوى أو ذممت التصايا
أيذهل قلب أنت سر ضميره * فلا كان يوماً عنك ياعلو ساليا
وكما قال الغزالي :

يا خليلي لو ملكت فؤادي * جاز أن يملك الصواب عنائي
ظلمي من أراد إنصاف نفسي * من هواها وأمرى من نهائي
قد تورطت في تمسك شوقي * حيث لا يعرف السلو مكاني
وكما قال الطغرائي :

خليلي هل من مسعدٍ أو معالجٍ * فؤاداً به داء من الحب ناكس
وهل ترجوان البرء مما أكنه * فاني وبيت الله منه لا يس

هوئى لا يُدِيلُ القرب منه ولا النوى * ولا هو من طول التقادُم دارسُ
 سرى حيث لا يدري الضمير مكانه * ولا تهتدى يوماً اليه الهواجسُ
 إذا قلت هذا يوم أسلو تراجمت * عقايل من أسقامه ووساوس
 وأرجو أن لا يغفل القارى عما فى هذا الشعر من فنون الجمال
 وهناك مذهب رابع يجعل خلود الحب مُواتاة للطبع ، ونزولاً
 عند حكم الخليفة ، وهو أجمل المذاهب . ومنه قول ابن التعاويدى :
 من بات ذا قلبٍ سليمٍ من جوئى فأنا السليمُ ^(١)
 مالى إذا رمت السلو * تلوّم القلب المليم ^(٢)
 وإذا كتمت الحب با * حَ بسرهِ دمعُ نهمُ
 عيسى وقلبي فى الهوى * عونٌ علىّ فمن ألومُ
 وأظهر منه قول المتنبي :

إلامَ طماعةُ العاذلِ * ولا رأى فى الحب للعاقلِ
 يراد من القلب نسيانكم * وتأبى الطباع على الناقلِ
 وهبت السلو لمن لامنى * وبت من الشوق فى شاغلِ
 ولا أنكر أن من الشعراء من يرى غير ما ذهبت اليه فى هذا الحديث .
 ولكنى أرى الحب الصادق حليف الخلود . وقد أوضحت هذه المسألة
 فى كتاب « حب ابن أبي ربيعة وشعره » فليرجع إليه من شاء

غرام النساء بالنساء

سألتني حضرة محمد شبيب عبد الناصر بديروط « عما قالته الفوانى في غرامها وحنينها إلى بنات جنسها إن كان هناك شيء من ذلك » بمناسبة ماحدث في برلين من غرام المسزكلين بالمسزريب ، وما جنت يداهما في سبيل هذا الحب الغريب !!

وأسف كثيراً أيها الاديب لأستحالة الجواب بالتفصيل في صحيفة سيارة : فقد درج الناس هنا على تفضيل الجهل في سبيل الوقار ، ويكفي أن ألفت نظرك إلى حديث مسطور في كتب الأدب جاءت فيه هذه العبارة « هذا شيء يحتاج إلى حبال ورجال » وإلى ذوقك يترك تقدير الظروف لأمثال هذه الوقائع !! وقد جاء في كلام رسول الله انتهى عن « السحاق » كما جاء في القرآن النهي عن الزنا !! والفرق واضح بين الكلمتين في اللفظ والمدلول !! والمطلع على آداب الفرنسيين يجد في اعترافات النساء عجائب وغرائب تعجز عن مثلها الشياطين !! والآداب العربية مملوءة بأمثال هذه الأعاجيب . والناس هم الناس في كل قطر وفي كل جيل ، فلا تصدق ما تسمع من أن الإسرار في المجاعة بدعة ابتدعها نساء برلين !! وعندى أن آفة المصلحين في الشرق هي جهلهم بدقائق الحياة الإنسانية ، وإغفالهم الركن الأساسي للإصلاح ، وهو تشخيص الداء قبل وصف الدواء ، وإقدام كثير منهم على الأمر بما لا يأتربه

والنهي عما لا ينتهي عنه ، ومن البلية أن يكون المصلحون منافقين !!
 ألم نصف الآداب الغريبة بالإسراف في وصف النساء ؛ لقد
 جعلنا ذلك سيئة لا تقبل الغفران ، ولكنها في رأي من الحسنات ، إذ
 كان الواجب على كل مصلح أن يقوِّى ما بين الرجل والمرأة من الميول
 الطبيعية ، حتى لا نشكو غرام المرأة بالمرأة ، وحب الرجال للرجال !!
 اقرءوا هذا وتأملوه قبل أن تصدّعوا رؤوسنا بالدعوة الى الفضيلة
 من حيث لا تعلمون !!

وبعد ذلك ألفت نظر قراء « مدامع العشاق » إلى أن شعر النساء
 في الحب قليل : فقد كان العرب يستنكرون أن تعشق المرأة ، وكان
 الرجل منهم يذوب خجلاً إذا قالت إحدى قريباته بيتاً واحداً في غلام
 جميل ، وقد تأر طويس المعنى لنفسه من عبد الرحمن بن حسان بن ثابت
 حين غناه شعر عمته قارعة بنت ثابت في عبد الرحمن بن الحرث المخزومي

يا خليلي نابي سُهْدَى * لم تَم عيني ولم تكدرِ
 فشرابي ما أُسِينْ وما * أشتكى ما بي إلى أحدِ
 كيف تلحوني على رجلٍ * آنسٍ تلتذُّه كبدى
 مثل ضوء البدر طلعتُهُ * ليس بالزُميلة النكدِ
 نظرت عيني فلا نظرت * بعده عيني إلى أحدِ

وحديث عُليَّة بنت المهدي معروف ، فقد حرَّم عليها أخوها
 هارون الرشيد أن تشبَّ بفلامها ظل ، فكان من نتيجة ذلك أن
 تشببت بجاراتها زينب وقالت فيها

وجد الفؤاد بزينا * وجداً شديداً مُتعباً
وهو شعر سخيّف ، ولكنه يدل على أن عشق المرأة كان مما
تسيفه النفوس في ذلك العهد . وليس معنى ذلك أننا ننكر أن زينب
هنا كناية عن طلبة ، ولكن معناه أن تشبيب عليّة زينب كان حيلة
سائغة لستر هواها الصحيح ، ولم نر في الكتب الأدبية من أنكر على
عليّة هذا الميل الذي أنكرناه اليوم على نساء الألمان !! وهناك أبيات
لفضل الشاعرة قالتها في « قبيحة » جارية المتوكل :

سلافة^١ كالقمر الباهر * في قدح كالكوكب الزاهر
يديرها خشف^٢ كبد الدجى * فوق قضيب أهيف^٣ ناضر^(١)
ولا مريم في أن العرب قتلوا عواطف المرأة ، وحرموها من التشبيب ،
ولهم في ذلك عذر مقبول ، فإن الغيرة لم توجد ، ولن توجد ، في مثل
النفوس العربية ، والعرب بطبيعتهم عمالقة يكرهون الشريك ،
أو شبه الشريك . ويأبون أن يسمعا حديث المرأة عن هواها المشبوب ،
بل يغارون من تحدث الرجل عن هواه ، حتى يقول شاعرهم

لم ألق ذا شجن ييوج بحبه * إلا حسبتك ذلك المحبوبا
حذراً عليك وإنني بك واثق * أن لا ينال سواي منك نصيبا
وإذا عزّ على المرأة أن تقول شعراً في الرجل ، فإنه يعزّ عليها من باب أولى
أن تقول شعراً في أخيها المرأة ، فضلاً عن بعد ذلك من الحاجة
الطبيعية ، فإن « هذه الشهوة » تعتبر فضولاً في باب الشهوات !!

والحق أننا حرمنا خيراً كثيراً حين حُرِّمنا شعر النساء ، انظر
الى قول فضل في حبيب حرمها طيب الرقاد :

إن من يملك رِق * مالك رِق الرقابِ

لم يكن يا أحسن العا * لم هذا في حسابي

وتأمل ما غنته عبيدة الطنبورية

كن لى شفيعاً اليكا * ان خفَّ ذاك عليك

وأعفى من سؤالى * سواك ما فى يديكا

يا من أَعز وأهوى * مالى أهون لديك

اننا نشتى أن تتكلم المرأة ! إننا نحب أن نسمع حديثها العذب
الجميل ! ولكنهم يزعمون أن كلام المرأة فسق ، وأن حديثها فجور ،
فيا ليت شعري متى يفقهون !

طيف الخيال

من الشعراء من يصف الحسرة التى تودى برشده حين تحرره
اليقظة من الاستمتاع بالطيف ، فاذنى يقول :

وزارنى طيف من أهوى على حذر * من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا

فكدت أوقف من حولي به فرحاً * وكاد يهتك بسر الحب بى شغفا

ثم أتنبت وآمالى تكذبني * نيل المنى فاستعالت غميطى أسفا

ومنهم من يذكر العلة فى طروق الطيف ، والسبب فى زيارة

الخيال ، كقول أبى تمام :

زار الخيال لها لا بل أزاركه * فكر إذا نام فكر الخلق لم ينم

ظلي^١ تنقصته لما نصبت له * في آخر الليل أشرا كما من الحلم
وقوله من كلمة ثانية :

استزادته ففكرتي في المنام * فأنا في خفية واكتسام
يالها ليلة نزهت الأر * واح فيها سر آمن الأجسام
مجلس^٢ لم يكن لنا فيه عيب^٣ * غير أنا في دعوة الأحلام
وكقول عبد الصمد بن المعذل :

وصل النوم بيننا بعد هجر * فاجتمعنا ونحن مفترقان
غير أن الأرواح خافت رقيقاً * فطوت سرها عن الأبدان
منظر^٤ كان لذة القلب إلّا * أنه منظر^٥ بغير عيان

فالعلة عند أبي تمام في طروق الخيال إنما هي احتيال فكره، ونصبه أشرا كما
من الحلم. والسبب في زيارة الطيف عند ابن المعذل هو النوم، مع إبداعه
في طي^٦ الأرواح سرها عن الأبدان، خوفاً من الرقباء :

وهناك فكرة لابن العفيف ألطف من هاتيز وأطرف : وهي أن
الحبيب سطع نوره وعم^٧، حتى شمل النائمين، وتجلّى لأعينهم، على بعدم
منه، ونأيهم عنه. وله في هذه الفكرة البديعة هات الأيات الحسان :

يا حبذا طيفك من قادم * يا أحسن العالم في العالم
طيف^٨ تجلّى نورُه ساطعاً * حتى رآته مقلة النائم
يا غائباً يحكم في مهجتي * على طالت غيبة الحاكم
عارث على حسنك أن يشتكي * حظي منه أنه ظالم

والبحرئى على شهرته بالخيال، لم يكن ممن يُعنون بذكر السبب

في قدومه ، والعلقة في طروقه ، وإعما يجيد في وصف أنعطافه ، وأنصرافه ،
كقوله :

سقى الغيثُ أجراً عاهدتُ بجوِّها * غزالاً تراعيه الجاذرُ أغسدا
إذا ما الكرى أهدى إلى خياله * شقى قربه التبرج أو تقع الصدى
إذا أنزعته من يدي أنتباهه * عدتُ حبيباً راح مني أو غدا
فلم أدر مثلينا ولا مثل شأننا * نُعذبُ أيقاظاً وننعمُ هجداً
ومن بديع الشعر في ذهاب الخيال قوله :

ألمتُ بنا بعد الهدوء فساحت * بوصل متى نطلبه في الجدِّ تمنع
وولتُ كأنَّ البين يخلج شخصها * أو أن تولت من حشاي وأضلعي
وهو غاية في الإبانة عن اللفظة ، والإقصاص عن الحرة ١١
ومن الشعراء من يحمد للطيف سماحه بالنعيم المباح ، كقول
بشار :

ولقد تعرّض لي خيالكم * في القرطوا والخلخال والقلب
فشربت غير مباشر حرجاً * برضاب أشنب باردٍ عذب

وكقول المتنبي فيما يقرب من هذا المعنى :

بتنا يناولنا المدام بكفه * من ليس يخطر أن نراه بباله
نُجنّي الكواكب من قلائد جيده * ونُنال عين الشمس من خلخاله

وقد نص البحتري على ما ذكرناه من النعيم المباح بقوله :

وما نلتقي إلا على حلم هاجدٍ * يحلُّ لنا جدواك وهي حرام
إذا ما تبادلنا النفاس خلّتنا * من الجدِّ أيقاظاً ونحن نيام

وَأَلَمْ بِهِ فِي قَوْلِهِ :

بِنَفْسِي خَيَالًا مِنْ أَثِيلَةٍ كَلِمًا * تَأْوَهَتْ مِنْ وَجْدِي تَعْرِضُ يُطْمَعُ
تَرَى مَقَاتِي مَا لَا تَرَى مِنْ لِقَائِهِ * وَتَسْمَعُ أَذْنِي رَجْعَ مَا لَيْسَ تَسْمَعُ

خيال البحتري

وقد يكون من الوفاء لتاريخ الآداب أن نذكر كيف اشتهر البحتري
بالخيال حتى قالوا (خيال البحتري) وضربوا به الأمثال . وقد تأملت
هذه الشهرة فوجدتها ترجع إلى تربيته لزيارة الطيف في غير ضعف ولا
فضول : فتارة يصف الخيال بالكرم وقد ضن المحبوب ، والقرب وقد
شطت ديار الجباب ، حتى ليبعث الهوى من جديد ، كقوله :
وقفنا فلا الأطلالُ ردتْ أجابةً * ولا العذلُ أجدى في المشوق المحاطِبِ
تمادت عقايلُ الهوى وتطاوت * لجاجةً معتوبٍ عليه وعائبِ
إذا قلتُ قضيتُ الصبابةَ ردّها * خيالٌ ملّمٌ من حبيبٍ مُجانبِ
يجود وقد ضنّ الألى شغفى بهم * ويدنو وقد شطت ديار الجبابِ
وتارة يذكر أن الطيف أَلَمْ بِهِ فِي الظلام فلم يجد مكاناً يأوى إليه ،
لأن الكرى طردته الدموع ، كقوله :

تلك البخيلة ماوصلني بنصرف * عنها ولا صدّها عنى بمصدودِ
أَلَمْ بِي طيفها وهناً فأعوزهُ * عندي وجود كرى بالدمع مطرودِ
وأحب لو تأمل القارئ وصفه لحبيته بالبخل ، وعفا الله عن
هؤلاء البخلاء : ! وما أمتاز به البحتري شكواه هجر الخيال . وقد أكثر

من ذلك حين حُرِّم من غلامه نسيم ، ولغلامه هذا قصة عجيبة : فقد ذكروا أنه كان يبيعه ، ثم تطير نفسه اليه فيشتريه ، حتى وقع في يد من لا يبيع روائع الجمال !! وقد أوضح شكواه هجر الخيال في هذه الأبيات الحسان :

أنسيمُ هل للدهر وعدُّ صادقٌ * فيما يؤمِّلُه الحبُّ الوامقُ
مالي فقدتك في المنام ولم يزل * عونَ المشوق إذا جفاهُ الشائقُ
أُمْنِعتَ أنت من الزيادة رِقْبَةً * منهم فهل مُنِعَ الخيالُ الطارقُ
اليومَ جازَ بي الهوى مقدارُهُ * في أهله وعلمت أني عاشقُ
ثم ردَّد هذا المعنى في داليتِه الجميلة ، التي يقول فيها :

دعا عبرتي تجري على الجور والقصدِ * أظنَّ نسيمًا قارف الهجر من بعدى
خلا ناظري من طيفه بعد شخصه * فيا عجباً للدهر فقدأ على فقدِ
بنفسى حبيبٌ تقلَّوه عن اسمه * فبات غريباً في رجاء وفى سعدِ
فيا حائلاً عن ذلك الإسم لا تحلُّ * وإن جهد الأعداء عن ذلك المهدِ
أباً الفضل في تسع وتسعين نعمةً * غنىَّ لك عن ظبي بساحتنا فردِ
أناخذُهُ منى وقد أخذ الجوي * ماأخذُهُ مما أُسرَّ وما أبدى
ونخطو اليه صبوتى وصباتى * ولم يخطه بئى ولم يعده وجدى
ونحب أن لا يتعقبنا حضرة (البدوى المثلّم) فيطالبنا بتحقيق بيع
البحترى لغلامه نسيم ، ليعرف أكان ذلك عن حاجة أم كان طمعاً
في المال ، فقد ردَّد في ذلك المؤرخون !! أليس هو الذي لمَح الينا حين
ذكرنا أن عُلَيَّة بنت المهدي كُنَّت عن طلِّ بزئب ، ولفت نظرنا الى

أنها إنما كنت بزئب عن رشاً ؛ رويدك أيها الصديق ، فليس في هذه
المجاهل يقين ، وحسبك أن تعلم أن ذلك سر من أسرار القصور ،
وناهيك بقصر الرشيد !

وبهذه المناسبة أذكر أن التعبير الحديث « شربوا نخب مصر !
وشربوا نخب فرنسا » كان له عند العرب بديل جميل ، انظر قول عليّة
في غلامها رشاً :

اشربْ على وجه الغزال * الأهيفِ الحلوِ الدّلالِ

اشربْ عليهِ وقلْ لهُ * ياغُلُّ ألبابِ الرجالِ

وانظر قول اسحق في غلامه زياد :

أدرها على بُعد الحبيب فربما * شربنا على بُعد الأُحبةِ والفخفرِ

فما بلغنني الكأس إلا شربها * وإلا سقيت الأرض كأساً من الدمعِ

وقال ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مُدَمَّةً * سكرناهما من قبل أن يخلق الكرمُ

فأى التعبيرين أجمل ؟ أقول العرب : شربت على وجهه ، وعلى

بُعدِهِ ، وعلى ذكره ؟ أم قولنا شربت نخبه ؟ أجيبوا أيها المتكلفون ! !

ونعود فنذكر تشبث البحترى بالطيف عند الصباح في قوله .

وليلةٌ هوّمتنا على العيس أرسلت * بطيف خيال يشبه الحق باطلة

فلولا بياضُ الصبح طال تشبّتي * بعِطْفَى غزالٍ بتُّ وهناً أغازلُ

وكم من يدٍ لليل عندى حميدةٍ * وللصبح من خطب تُذمُّ غوائلُ

أثذكر أيها القارئ أن لسانك أُنمقد، وقد رأيت دُمعية من دُمى
الجمال، فلم ترد على أن قلت : هذه فتاة حسناء؛ ألا مرهنا كذلك، فاعذرني
إن لم أزد على أن أقول : هذا شعر جميل !
ويظرف البحتري كثيراً حين يحمل هجر الطيف نوعاً من العتاب .
انظر قوله :

تَناءَتْ دَارُ عُلُوَّةٍ بَعْدَ قَرَبٍ * فَهَلْ رَكِبْتُ بِلَهْفِهَا السَّلَامَا
وَجَدَدَ طَيْفِهَا عَتَبًا عَلَيْنَا * فَا يَتَبَادَّانَا إِلَّا لِيَامَا
وَرَبَّتْ لَيْسَلَةٌ قَدْ بَتُّ أَسْقَى * بَعِيْنَهَا وَكَفِيْنَهَا الْمُدَامَا
قَطَعْنَا اللَّيْلَ لَيْثًا وَأَعْتَنَّا * وَأَفْنَيْنَاهُ ضَمًّا وَالْإِزَامَا
وقد تعجب لتشبيه الزائر النحيل بالطيف الطروق : انظر قوله :
وَزَوْرُ أَتَانِي طَارِقًا خَسْبَتُهُ * خِيَالًا أَتَى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ يَطْرُقُ
أَقْسَمَ فِيهِ الظَّنُّ طَوْرًا مَكْذَبًا * بِهِ أَنَّهُ حَقٌّ وَطَوْرًا أَصْدَقُ
أَخَافُ وَأَرْجُو بُطْلَ ظَنِّي وَصَدَقَهُ * فَلَهُ ظَنِّي حِينَ أَرْجُو وَأَفْرَقُ
وَقَدْ ضَمْنًا وَمِنْكَ التَّلَاقُ وَلَفْنَا * عَنَّا عَلَى أَعْنَاقِنَا نَمَّ ضَيْقُ
فَلَمْ نَرِ إِلَّا مَخْبِرًا عَنْ صَبَابَةٍ * بِشَكْوَى وَإِلَّا عِبْرَةً تَتَرَفَّقُ
فَأَحْسَنَ بِنَا وَالِدَمْعَ بِالِدَمْعِ وَاشْجَعُ * تَمَازُجُهُ وَالْخُدَّ بِالْخُدِّ مَلْصَقُ
وَمِنْ قَبْلِ قَبْلِ التَّشَاكِي وَبَعْدَهُ * نَسْكَادُهَا مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ نَشْرُقُ
فَلَوْ فَهَمَ النَّاسُ التَّلَاقُ وَحَسَنَهُ * لَحَبَّبَ مِنْ أَجْلِ التَّلَاقِ التَّفَرُّقُ
وقد يأسى البحتري ويشجى حين لا تبقى له الليالي غير الذكري
والخيال ، تأمل قوله :

حبيب نأى إلا تعرض ذكره * له أو لم طائف من خياله
أمنع في هجرانه من صباية * وقد كنت صباً مغرمًا في وصاله
ويأمرني بالصبر من ليس وجده * كوجدى ولا إعلان حالى كحاله
فان أفقد العيش الذى فات باللوى * فقديماً فقدت الظل عند انتقاله
ولقد أذكر أنى قرأت منذ سنين رواية (رافيل) وهى بدءة
فى الآداب الفرنسية. فأقسمت لأزورن إن أستطعت قبر (لامارتين)
واليوم أقسم إن أستطعت لأزورن قبر البحرى !
أليس هو القائل فى طيف الخيال :

أترى جى لسعدى قاتلى * وإذا ما أفرط الحب قتل
خطرت فى النوم منها خطرة * خطرة البدر بدائم أضمحل
أى زور لك لو قصد أسرى * ولم منك لو حقاً فعل
يتراءى والكبرى فى مقتل * فاذا فارقتها النوم بطل
ولتقى الدين السروجى قصيدة بديعة ختمها بيتين فى الخيال ، وقد
زاره فاحققه لفرط سروره به ، ثم ولّى عنه فادرى كيف يدركه ، ولا
عرف كيف يلحقه . قال :

أنم بوصلك لى فهذا وقته * يكفى من الهجران ما قد ذقته
أنفقت عمرى فى هواك وليتنى * أعطى وُصولاً بالذى أنفقتة
يامن شغلت بجه عن غيره * وسلوت كل الناس حين عشقتة
كم جال فى ميدان حبك فارس * بالصدق فيك إلى رضاك سبقتة
أنت الذى جمع المحاسن وجهه * لكن عليه تصبرى فرقتة

قال الوشاة قد ادعى بك نسبة * فسررت لما قلت قد صدقته
 بالله إن سألوك عنى قل لهم * عبدى وملك يدى وما اعتقته
 أو قيل مشتاق اليك فقل لهم * أدرى بذا وأنا الذى شوقته
 يا حسن طيف من خيالك زارنى * من فرحى بلفاك ما حقته
 فضى وفى قلبى عليه حسرة * لو كان يمكنى الرقاد لحقته
 والشعراء يشكون غالباً ألا يمكث الطيف طويلاً . وقد شذ
 الطغرائى فذكر أن محبوبته عتبت عليه لغيبه الطيف عنده ، وطول مكثه
 لديه . وذلك قوله :

بعثت إلى تلومنى فى هجعة * أهلت إلى خيالها المذعورا
 وتقول ما للطيف أبطأ بعد ما * كنا أشرطنا أن يقيم يسيرا
 فأجبتها بالعذر وهو مبين * لو كان يُنصف لاثم معذورا
 أطبقت أجفانى عليه وسُمته * خوض الدموع فأستطاع عبورا
 وهذا الخيال على طرافته متتقد . فان الطيف لا يدخل العيز ، حتى
 يضطر إلى عبور الدمع ، وهدى الله قوماً يحسبون هذا الشعر من وثبات
 الخيال :

قالوا : وأول من طرد الطيف طرفه ابن العبد فى قوله :
 فقل لخيال العامرية ينقلب * إليها فأتى واصل حبل من وصل .
 وتبعه جرير فقال :

حركاتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجى بسلام
 وهذا حدس وتخمين ، فانه ليس الى توقيت النوازع القلبية من سبيل

ومن طريف الشعر في طرد الخيال قول ابن هاني الأندلسي :
 ألا طرقتنا والنجوم ركود * وفي الحى أيقاظ ونحن هجود
 وقد أمجل الفجر الملمع خطوها * وفي أخريات الليل منه عمود
 سرت عاطلاً غصبي من الدروحة * فلم يدر نحر مادهاه وجيد
 فابرحت إلا ومن سلك أدمى * فلائد في لباتها وعقود
 ألم يأتها أنا كبرنا عن الصبا * وأنا بلينا والزمان جديد
 ومن الشعراء من يعتذر عن النوم في بعد الحبيب باحتياله لزيارة
 الخيال . انظر قول علي الأيادي :

أما انه لولا الخيال المراجع * وعاص يرى في النوم وهو مطاوع
 لأشفق واستحي من النوم واله * يرى بعد روعات النوى وهو هاجع
 وأود لو تأمل القارئ قوله (وعاص يرى في النوم وهو مطاوع)
 فظالما قدم النوم هؤلاء العصاة وهم للحب خاضعون !!

وأصل هذا المعنى لقيس بن الملوح في قوله :

واني لأستغشى وما بي نعة * لعل خيالاً منك يلقي خيالها
 وأخرج من بين الجلوس لعلنى * أحدث عنك النفس في السر خالها
 تقطع أنفاسي بذكرك أنفاساً * يرذن فما يرجعن إلا صواديا
 وأوضح منه قول قيس بن ذريح

واني لا هوى النوم في غير نعة * لعل لقاء في المنام يكون
 تخبرني الأحلام انى أراكم * فياليت أحلام المنام يقين
 والظاهر أن نعمة الطيف لا تسوى بين المشاق جميعا . فهي عند

بعضهم لوعة وغليل ! فقد جعلها حسين بن الضحاك قناعة تقضى بها
الضرورة حين يقول :

وماذا يفيدك طيف الخيا * ل والهجر حظك ممن تحب

غنائم قليل * ولكنى * تمنيتُ بقنوع المحب

ومن الشعراء من يعجب لزيارة الخيال ، كأن يزوره الطيف وهو سجين ،
كقول جعفر بن عتبة

عجبت لسراها وأنى تخلصت * الى وباب السجن دونى مُنلق

ألمت فحيت ثم قامت فودعت * فلما تولت كادت النفس تزهق

فلا تحسبى أنى تخشعت بمدكم * لشيء ولا أنى من الموت أفرق

ولا أن نفسى يزدهيها وعيديم * ولا أننى بالمشى فى القيد أفرق

ولكن عرثي من هواك صباية * كما كنت ألقى منك إذا أنا مطلق

وقد ترفق زياد بن حُلّ فجعب كيف زاره طيف حبيبته مع أنها

ضعيفة المشى مكسال. وذلك قوله من قصيدة طويلة :

زارت رويقة شعناً بعدما هجموا * لى نواحل فى أرساغها الخدم

وقت للزور مرتاعاً فأرقنى * فقلت أهى سرت أم عادنى حُلم

وكان عهدى بها والمشى يهظها * من القريب ومنها النوم والسأم

وبالتكاليف تأتى بيت جارتها * تمشى الهوىنا وما تبدو لها قدم

سود ذوائبها بيض ترائبها * دُرّم مرافقها فى خلقها عَمَم

رويق إنى وما حجّ الحبيج له * وما أهلّ يجنبى نخلة الحرم

لم ينسنى ذكركم مُذلم الأقم * عيش سلوت به عنكم ولا قدم

ولم تشاركك عندي بعد غانية * لا والذي أصبحت عندي له ذمم
ومن هذا يعتذر فريق من الشعراء عن هجر الطيف لبعده الشقة
كقول ابن عنين :

سامحت كُتُبك في القطيعة عالمًا * ان الصحيفة أعوزت من حامل
وعذرت طيفك في الجفاء لأنه * يسرى فيصبح دوننا بمراحل
وقال كشاجم في مثل هذا العذر الطريف :

لقد بخلت حتى بطيف خيالها * على وقالت رحمةً لنحبي
أخافُ على طيفي إذا جاء طارقًا * وسادك أن يلقاه طيف رقيب

طرف أومية

وقد يكون من المستلح أن نذكر جملة من الطرف تتناسب مع
طيف الخيال . فن ذلك ما أرسله بعض الشعراء الى الحسن بن سهل
رأيت في النوم اني راكب فرسًا * ولي وصيف وفي كفي دنانير
فقال قوم لهم فهم ومعرفة * رأيت خيراً وللأحلام تعبير
رؤياك فسرّ عنداً عند الأمير تجد * في الحلم دراً وفي النوم التبشير
فوقع في أسفل الكتاب « أضغاث أحلام وما نحن بتأويل
الاحلام بمالين » ١١ ودخل بعض الشعراء على بشر بن مروان فأنشده
أغفيت عند الصبح نوم مسهد * في ساعة ما كنت قبل أنامها
فرأيت انك رعتي بوليدة * رعبية حسن على قيامها
ويبدرة حملت إلى وبغلة * دهاء مشرقه يصل لجامها

فدعوت ربى أن يثيبك جنة * عوضاً يصيبك بردها وسلامها
فقال له : أبشر فى كل شئ إلا البغلة فأتى لأملك إلا شهباء ! فقال :
امرأتى طالق ان كنت رأيتهما إلا شهباء غير أنى غلطت !

وتقل عن أبى العبر أنه كان عنده حمار فأتى فى النوم ينشد
شعراً يقول فيه انه مات عاشقاً ، فسأله المتوكل ما الذى كان من شأنه ؟
فقال : كان يأمر المؤمنين أعقل من القضاة ، ليس له هفوة ولا زلة !
فاعتل على حين غفلة ، فأتى ، فرأيت فى النوم فقلت له : ألم أنق لك
الشعير ، وأبرد لك الماء ، فاسبب موتك ؟ فقال أنذ كر إذ وقفت على
باب الصيدلاني ؟ قلت نعم ، قال مرت إذ ذاك أتان فاقتنت بها ومت !
فقلت وهل قلت شيئاً فى ذلك ؟ فقال نعم وأنشد :

هام قلبى بأتان * عند باب الصيدلاني
تيمتنى يوم رُحنا * بثناياها الحسانِ
وبخدي ذى دلال * مثل خد الشيقران
فيها مت ولوعشت اذا طال هوانى

فقال له يا أبا معاذ . وما الشيقران ؟ فقال أنا مشغول بما أنا فيه !
وهذا كلام تعرفه الحميز ! فاذا رأيتم حماراً ، أو من كان أولاً حماراً ،
فلسألوه ۱۱ فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، ثم أمر له بعشرة
آلاف درهم ، جزاء بما أبدع فى هذا الخيال

اليأس والرجاء

ليس في العشاق من لم يُرزق الأمل والرجاء، وليس فيهم من
لم يُرزأ باليأس والقنوط

وقد تأملت ما قال الشعراء في اليأس، فرأيت منهم من يترك لأجله
العتاب، كقول ابن الأحنف

سكوتى بلاء لا أطيق أحتماله * وقلبي ألوف للهوى غير نازع
وأقسم ما تركى عتابك عن قلبي * ولكن لعلنى أنه غير نافع
وأني إذا لم ألزم الصبر ظانماً * فلا بدّ منه مكرهاً غير طائع
إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعته * فلا خير في ودّ يكون بشافع
وقد عزى نفسه ابن الأحنف حين يئس بقوله :

لعمري لقد جلبت نظرتي * إليك على بلاء طويلا
فيا ويح من كلفت نفسه * بمن لا يطيق اليه السبيلا
هي الشمس مسكنها في السماء * فعزّ الفؤاد عزاء جيلا
فلن تستطيع إليها الصعود * ولن تستطيع إليك النزولا
وإني لأتني أن يرحمني الله من عذابي، بتريد هذا البيت الجليل
فيا ويح من كلفت نفسه * بمن لا يطيق اليه السبيلا
ومن العشاق من يرى اليأس أروح من الطمع. كما قال صردر
لا أمدح اليأس ولكنه * أروح للنفس من المظم

ياليت أنى قبل وَقْدِ الهوى * أذنت للعدل على مسمى
 أين بدور من بنى دارم * تبخل أن تُسفر فى مطلع
 لافى سراد الشهر تبدو لنا * ولا لىالى العشر والأربع
 أودعتهم قلبى وما خلدُهم * يستحسنون الغدر بالودع
 لو زارنى طيفهم ما درى * من الضنى أنى فى مضجى
 ومن المتيمن من يعتذر عن نسيانه ، يأسه وقنوطه . ولم أجد فى هذا
 المعنى أبعد من قول الطغرائى :
 من مبلغ الحى شطت دارهم ورضوا * بالجار جاراً وما أرضى بهم عوصنا
 قد طاب عنكم فؤاد طاب قبلكم * عن الرضاع تقضى والشباب مضى
 إن الزمان الذى كانت بشاشته * للقلب والعين ملهى بأن فانقرضنا
 فان نسيت قياس لم يدع طمعاً * وإن ذكرت فغرق ساكن نبضا
 حكمت فى مهجتي من ليس ينصفنى * ولست أبلغ من تحكيمه غرضنا
 سيان عندى وأمرى صار فى يده * قضى على مجور أم الى قضى
 وليس بعد اليأس إلا الرجاء ، وإن عجب لذلك بعض الناس . فن
 المحبين من يلجج بالأمل ترويحاً لنفسه ، وترفيهاً لقلبه ، كالذى يقول :
 أعلل بالئى قلبى لعل * أروح بالأمانى الهم عنى
 وأعلم أن وصالك لا يرجى * ولكن لأقل من التنى
 ومنهم من يجعل الرجاء نصيب المبعد الحزين : كما قال ياقوت
 لله أيام تقضت بكم * ما كان أحلاها وأهناها
 مرّت فلم يبق لنا بعدها * شئ سوى أن تمنّاها

ويكاد الامل يصرخ في قول مسلم ابن الوليد
 أدهراً تولى هل نعيمك مقبل * وهل راجعٌ من عيشنا ما تؤمل
 أدهراً تولى هل لنا منك عودة * لملكٍ يعدى آخراً منك أول
 وأوجع الشعر في هذا المعنى قول ابن زريق :
 لأصبرنَّ لدهرٍ لا يمتعني * بهٍ ولا بى في حالٍ يمتعه
 علماً بأن أخطباري معقب فرجاً * فأضيق الأمر لو فكرت أوسعهُ
 علّ الليالي التي أضنت بفرقتنا * جسمي مستجمعني يوماً وتجمعه
 ولو سُئِلت عن رأيي في اليأس والرجاء ، لقدمت لسائلي هذه
 الدعوة المستجابة التي أدعو بها عقب كل صلاة « يا ربى ! إننى ماجئدت
 نعمتك يوم رزقتنى بهم ، ولا جهلت حكمتك يوم أقصيتهم عنى ،
 وهأنذا أنتظر فضلك وطولك ، فى ردمٍ إلىّ ، وعطفهم علىّ . فلو لا
 الثقة برحمتك ، والايان باحسانك ، لذهبت النفس عليهم حشرات .
 وقُطِعَ القلب فى آثارهم قطعاً »

العتاب

خير العتاب ما كان ظاهر الذل ، بادی الخضوع ، نزولاً عند
 حكم الهوى ، وإيماناً بعودة الحبيب ، كقول القائل
 يا غاية القصد وأقصى المتى * وخير مرعى مقلّة الناظرِ
 إن كان لى ذنبٌ ولا ذنب لى * فاله غيرك من غافرِ
 أعوذ بالود الذى يبتنا * أن يفسد الاول بالآخرِ

وحسبك من موجب العطف ، ودواعي الرحمة ، أن يتوسل المحب بسالف
حبه ، وماضى عهده ، وأن يجعل الأمر في غفر ذنبه لحبيبه .

وقال ابن التعاويذي :

يا أبنة القوم كيف ضاعت عهودي * بينكم والوفاء في العُرب دينُ
كيف أسلمت فيك قلبي إلى الأشجان لولا أن الغرام جنون
أتريني على النوى مضمرًا عندك سلوًا إني إذن خلثون
أنا من قد علمت عهدي على النأي وثيق وحبل ودي متينُ
ولا يكون العتاب بابًا للرضى إلا حين يصبح إنابة خالصة ، كقول
ابن زيدون :

يا قرأ أطلعه المغرب * قد ضاقت بي في حبك المذهبُ
ألزمني الذنب الذي جئتُه * إلى فاصح أيها المذنب
وكقول الآخر

إذا مرضتم أئينا كم نعودكم * وتذنبون فتأنيبكم فنعتذر
فأما قول البحترى

قد كان مني الوجد رغبت تذكُر * اذ كان منك الصدغ تناسي
تجري دموعي حيث دمعك جامد * ويرق قاي حيث قلبك قاسي
فهو بالتأنيب أشبه منه بالعتاب ، وخير منه قول البحترى نفسه
في كلمة ثانية

إني وإن لم أبح بوجدي * أسر فيك الذي أسرُ
يا ظالمًا لي بغير جرم * اليك من ظلمك المفرُ

أنت نعيمى وأنت بؤسى * وقد يسوء الذى يسرُّ

وقوله من كلمة أخرى تسيل ذلَّةً وتفيض خضوعاً :

أياقر التمام أعنت ظلماً * على تطاول الليل التمام

أما وقتور لحظك يوم أبقي * تقلِّبه فتوراً فى عظامى

لقد كلفتنى كلفاً أعنى * به وشغلتنى عما أمانى

أعينك أن يراق دم حرام * بذاك الدَّلَّ فى شهر حرام

ويمجز القلم عن وصف مالهذا الشعر من روعة الجمال ، وأتمنى لو تأمل

القارى قليلاً هذا البيت الجميل

ياظلماً لى بغير جرم * اليك من ظلمك المفرُّ

فأنه خير من قول أبى زيدون

أزمتنى الذنب الذى جثمهُ * إلى فاصفح أيها المذنبُ

وهل رأى القارى ، أروح للنفس ، وأمتع للقلب ، من هذا القَسَم :

أما وقتور لحظك يوم أبقي * تقلِّبه فتوراً فى عظامى

وهل رأى حيرة للحب أشق من حيرة الذى يقول :

لقد كلفتنى كلفاً أعنى * به وشغلتنى عما أمانى

ألا ليت الذين يكتبون رسائلهم باللغة العامية ، يعلمون مانعلم

من جمال اللغة الفصيحة ليعرفوا أنهم يحنون على أنفسهم ، وعلى قرائهم

اذيحمرونهم من التطلع الى جنة الادب ، وقطوفها الدانية ! ولو عرضت

على كتاب العامية هذا البيت :

انى وان لم أجدى * أسرفيك الذى أسرُّ

ثم سألتهم ما فيه من وجوه الحسن لحسبك من المسرفين ، وكيف يفهم جمال هذا البيت من يتدلى الى اللغة المتبذلة المهلهلة عجزاً عن الكتابة باللغة التى رحبت بشمرات العقول فى جميع الأمم الاسلامية ، وكانت لغة العالم زمناً غير قليل

ولا يحسب واحد من هؤلاء أن الحسن فى الأدب لا حد له ولا تعريف ، بل هناك حقائق أدبية يرتكز عليها الجمال ، فى الشعر البديع والنثر الجميل ، وقاعدة الحسن فيما نحن فيه أن العرب يستملحون بعض ألفاظ الشمول فى كثير من المواطن ، إيماناً بالتفخيم والتهويل ، كلفظة « ما » فى قوله تعالى (ففشيهم من اليم ماغشيهم) للدلالة على أن ما غاوه من طغيان الماء يفوق الوصف ، ويعجز عنه التمثيل ، ومنها قول البحرى : —

برح بى حبك المعنى * وغرّنى منك مايفرُّ

إذ كانت دواعى الحب ، وأسباب العشق ، مما يقصر عن ادراكه المحب المفتون ، والعاشق المأسور ١١

ومن ذلك لفظة « الذى » فى هذا البيت المختار :

انى وان لم أجدى * أسرفيك الذى أسرُّ

إيماناً بأن ما يُجنُّه من اللوعة ، وما يكنه من الشوق ، أجلُّ من أن يحيط به الوصف ، أو يناله البيان : ١

ومن العاشق من يضيف الى ذلة العتاب ، ذلة الإقرار بالذنب ،
كقول الشريف .

أيا شاكياً منى بذنب جنيته * فديتك من شاكٍ الى حبيب
لئن راب منى ما يرب فانى * على عدواء الداء غير مريب
وإني لأرعى منك والوديننا * هوى قلما يرعى بظهر مغيب
فهبلى ذنباً واحداً كنت قلت * فما زلة من حازم بمجيب
فيا حسن حال الود ما دمت مذنباً * أتوب وما دامت تعد ذنوبى
والبيت الأخير يذكركنا بقول بشار :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه
ومن بديع الشعر فى وصف العتاب ، وما فيه من ذلة العاشق ،
وعزة المعشوق ، قول الشريف

ومقبل كفى وددت لو أنه * أو ما الى شفى بالتقبيل
جاذبه طارف العتاب وبيننا * كبر الملول وذلة الملول
ولحظات عقد نطاقه فكأنما * عقد الجلال بقرطى ملول
جدلان ينفض من فروج قيصه * أعطاف غصن البانة المطول
من لى به والدار غير بعيدة * من داره والمال غير قليل
وقوله :

ومقبل كفى وددت لو أنه * أو ما الى شفى بالتقبيل
يذكرنا بقول صاحب بن عبّاد :

أهوى لتقبيل يدي * فقلت لا . بل شفى ١

وحيرة أمثال الشريف الرضى والصاحب بن عباد في أمثال هذه
 المواقف حيرة رهيبة ، فكلا الرجلين عالم جليل ، ولكن الحب كالموت
 لا يعصم منه البرج المشيد ، والحصن المنيع ، وقد يتقرب بعض الناس
 الى مثل الشريف الرضى بتقيل يمتناه ، فيود هذا لو قبل شفتيه ، لأن
 الحب شغله عن الاحتفاظ بالمظمة ، وقضى عليه بتقديس الجمال !! وهنا
 يظهر بطش الحب وعدوانه : حيز يذهب بوقار العلم ، وجلال الجاه ،
 وغرور المال ، ثم يسوى بين الأقدار ، ريثما ينسى العالم علمه ، والوجيه
 جاهه ، والغنى ماله ، حتى اذا أنست تلك النفوس العاتية الى هذه المساواة ،
 عاد فيزأهل الحسن ، ورفع أرباب الجمال ، وصير المحبين أذلة ، بالرغم من
 أنف العلم والجاه والمال !! ويقول العرب : الهوى اله معبود ، وانهم
 لمصادقون . غير أنه يحسن أن نعرف أن هذا الآله ليس برحمن ولا رحيم ،
 ولكنه قهار جبار !! ولولا الرحمة بضعفاء اليقين لأعطيت هذا البحث
 ما يستحقه من البيان ، وليننت للقارئ رأى الفلاسفة في مملكة الجمال ،
 ولكن الدين في كثير من القلوب كالسكرى في عين الخائف المذعور :
 يؤدى به مر الطيف وهبوب النسيم ، والذين يختلفون في النظرة البريئة
 أحرام هي أم حلال ، لا يعقلون كيف يكوى الهوى اله ، وكيف يكون
 له ملائكة مقربون ، من الشعور ، والعيون ، والحدود ، والثغور ،
 والنحور ، والصدور ، وهم إن عقلوا هذه الألوهية ، فلن يعقلوا كيف
 يكون لها من كتاب الحب أنبياء مرسلون ، بل كل محب عندهم ما جن
 خليع ، قاتلهم الله أتى يؤفكون !!

ونعود فنبين أن الشريف أجاد تصوير العتاب بقوله
 جاذبته طرف العتاب وبيننا * كبر الملول وذلة الملول
 والمراد بكبر الملول عزة المعشوق ، الذي تحذنه عن هجره وصدده ،
 فكأنما نُسِمه هُجر القول ولغو الحديث ، فيتبرم ويتملّل ، ويود لو
 أرحته من حديث الحب : إذ كان الحسن يسدّ أذن الجليل ، فلا يسمع
 الشكوى ولا يفقه العتاب ، وما أبدع الغزل في قوله
 جذلان ينفض من فروج قيصره * أعطاف غصن البانة المطلول
 ولا يكاد حضرة الشاعر الكبير حافظ بك إبراهيم يذكر الشريف
 الرضى الا ذكر له هذا البيت ، وله فيه تأويل عجيب ١١ ولعل أبرع
 ما قيل في التطلع إلى الاستمتاع بالجمال ، قوله في هذا البيت المختار :
 من لى به والدار غير بعيدة * من داره والمال غير قليل
 ولعل صديقنا الشيخ عبد العزيز صقر يتسلى بأن الشريف الرضى على
 جاهه كان يشكو بعد الدار ، وقلة المال ١ :
 فدع ذكر سعدى إن فيك تقيّة * ألا اتما يبنى المها من يصيدها
 وقد ليصبح العتاب وهو لوم للنفس ، وعذل للقلب ، على الكلف
 بحبيب ليس للحب عنده جزاء ، فمن ذلك قول بعض الأعراب :
 أحبباً على حبٍّ وأنت بخيلة * وقد زعموا أن لا يحبّ بخيلٌ
 بلى والذي حجّ الملبّون بيته * ويشقى الهوى بالنيل وهو قليل
 وإن بنا لو تعلمين لغلّة * اليك كما بالحائمات غليلٌ

وقد يعكس هذا المعنى ، فيجب العاشق ظلم معشوقه ، ويجب
من أجل ذلك أعداءه الظالمين ، كقول أبي الشيص الخزاعي
وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي * متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذينة * حباً لذكرك فليعنى اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أجهم * اذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً * مامن يهون عليك ممن أكرم
ومن العشاق من يمزج العتاب بذكر مالتى في سبيل الحب من
البلايا ، كقول ابن الدمينه

وأنت إلى كلفتني دج السرى * وجؤن القطا بالجهتين جؤم
وأنت التي قطعت قلبي حرازة * وفرقت فرح القلب فهو كليم
وأنت التي أحفظت قومي فكلمهم * بعيد الرضاداني الصدود كظيم
وقد أجابته بحبوبته أمامة فذكرت مالميت في سبيل حبه من
سفاهة الوشاة ، وشماة اللامعين ، حين تقول :

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني * وأثمت بي من كان فيك يلو
وأبرزتني للناس ثم تركتني * لهم غرضاً أرمى وأنت سليم
فلو ان قولاً يكلم الجسم قد بدا * يحسمى من قول الوشاة كلوم
وقد ضعف ابن الدمينه عن مجاراتها في قسوة العتاب ، فبعث
إليها الايات الآتية ، يسألها الصفح والغفران :

وإذا عتبت عليّ بت كآئني * بالليل مختلس الرقاد سليم
ولقد اردت الصبر عنك فعاقتني * علق بقلبي من هواك قديم

يبقى على حدث الزمان وريبه * وعلى جفائك إنه لكريم
ومن المحبين من تعجزه الحيلة ، فيذكر أحبابه بأن الحياة قصيرة ، لا تتسع
للصد ، ولا تحتمل الحجر ، كقول الطغرأتى :

ويا زُفَّةً مرّت بجزء ممالك * تؤم الحى أنصاؤها والمطاليا
نشدتكُم بالله الا نشدتم * بها شعبة أضللتها من فؤاديا
وقلتم لى نازلين بقربها * أقاموا بها وأستبدلوا بجواريا
رويدكم لا تسبقوا بقطيعى * صروف الليالى إن فى الدهر كافيا

وأصل هذا المعنى لا يأس ابن القائف إذ يقول :
إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها * فقدت صديقى والبلاد كجاهيا
فأكرم أخاك الدهر مادتما معاً * كفى بالمرات فرقة وتناثيا
وقد كاد سعيد بن حميد يضع لهذا المعنى صورة شعرية بقوله
فى النهى عن العتاب :

أقل عتابك فالبقاء قليل * والدهر يعدل تارة ويميل
لم أبك من زمن ذممت صروقه * الا بكيت عليه حين يزول
ولكل نائبة ألت مدة * ولكل حال أقبلت تحويل
والمنتمون إلى الأخاء جماعة * إن حصوا أفتانم التحصيل
فلن سبقت لتبكين بحسرة * وليكثرن على منك عويل
ولتفجعن بمخلص لك وامق * حبل الوفاء بحبله موصول
ولن سبقت ولا سبقت لبيضين * من لا يشا كله لى خليل
وليذهبن بهاء كل مروعة * وليفقدن جمالها المأهول

وأراك تكلف العتاب وودنا * باق عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرة * فعلام يكتر عتبنا ويطول
على أن الرفق الذي ألم بالطغرائي فجعله يرجو أحبابه أن لا يسبقوا صروف
الليالي ، لم يمنعه من أن يصرخ شاكياً في نفس القصيدة ، فيرمى أحبابه
بالخيانة والنسيان ، وذلك قوله :

أفي الحق اني قد قضيت ديونكم * وأن ديوني باقيات كما هيا
فوا أسنى ، حتام أدرعى مضيقاً * وآمن خوَّانا وأذكر ناسيا
وما زال أحبابي يسيئون عسرتي * ويحفونني حتى عذرت الأعدايا
والبيت الأخير يذكرنا بقول أبي تمام

أحبابه لم يفعلون بقلبه * ما ليس يفعله به أعداؤه

وقد بسط الأرجاني هذا المعنى فقال :

أحبابنا كم تجرحون بهجركم * فؤاداً يبيت الليل بالهم مكمداً
إذا رمتم قتل وأنتم أحبة * فإذا الذي أخشى اذا كنتم عدا
سأضمر في الاحشاء منكم تحرقاً * وأظهر للواشين عنكم تجلدا
وأمنع عيني اليوم أن تكثر البكا * لتسلم لي حتى أراكم بها غدا
ومن هؤلاء المساكين الذين لا يمدون حيلة غير تذكير أحبابهم
بقصر الحياة أبو صخر الهذلي في هذه الايات الموجهة

نيد الذي شغف الفؤاد بكم * تفريج ما ألقى من الهم
قد كان صرماً في المات لنا * فمجلت قبل الموت بالصرم
ولما بقيت لبقين جوى * بين الجوانح مضرع جسمي

فعلّمني أن قد كلّفت بكم * ثم أفلّى ماشئت عن علم
وما ذكرت هذه المعاني المحزنة إلا تغنيت بهذا البيت الذي لأراه إلا
زفرة تتصعد، أو عبرة تتدفق

وأرى الأيام لاتدنى الذي * أرتجى منك وتدنى أجلى !
ومن الشعر الممتع في وصف الحيرة، يرى بها المحب العميد، قول
الشریف يعاتب حبيداً أغراه بالحب، ثم أصلاه الصدود :

يا صاحب القلب الصحيح أما شتني * ألم الجوى من قلبي المصدوع
أأسأت بالمشتااق حين ملكته * وجزيت فرط نزاعه بنزوع
هيات لا تكلفني لى الهوى * فضح التطبع شيمة المطبوع
كم قد نصبت لك الجبائل طامعاً * فنجوت بعد تعرض لوقوع
وتركتنى ظمان أشرب غلى * أسفاً على ذاك اللى المنوع
قلبي وطرفى منك هذا فى حى * قيظٍ وهذا فى رياض ربيع
كم ليلة جرّعتهُ فى طولها * غصص الملام وموالم التقريع
أبكى ويبسم والدجى ما بيننا * حتى أضاء بشغره ودموعى
تفلى أنامله التراب تعللاً * وأناملى فى سنى المقروع
قرُّ اذا أستخجلته بعتابه * لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لوحيث يُستمع السرار وقفما * لمحبتنا من عزه وخضوعى
أبغى هواه بشافع من غيره * شر الهوى مانته بشفيع
أهون عليك اذا امتلات من الكرى * أنى أبيت بليلة الملسوع
قد كنت أجزيك الصدود بمنله * لو أن قلبك كان بين ضلوعى

وقد أرتبت في ييتين وردا في خلال هذه القصيدة ، وبينهما وبين موضوعها بون شاسع ، وهما قوله :

ما كان الا قبلة التسليم أر * دفها الفراق بضمة التوديع
كمدى قديم في هواك وانما * تاريخ وصالك كان مذا أسبوع
فان هذا الوصل الحديث خليق بمعوذ لك العتب القديم ، والتنافر
بين هذين البيتين وبين موضوع القصيدة ظاهر على الأقل من مقابلتهما
بهذا البيت الجميل :

أهون عليك اذا امتلأت من الكرى * انى أيت بليلة المسوع
فانه يدل على ان الحبيب غير بعيد ، وانه في قرية نافر شرود ، مما
يذكرنا بقوله من كلمة ثانية :

أيت والليل مبثوث حباثة * والوجد يقنص منى كل مجلود
شوقا اليك واشفاقا عليك ولى * دمعان ما بين محلول ومعقود
ليس الغريب الذى تنأى الديار به * ان القريب قريب غير مودود
وانما أوردنا هذه الملاحظة لنتنبه القارئ الى أن فى الدواوين أشياء
كثيرة نسبت زورا الى الشعراء ، وربما عدنا الى تحقيق ذلك فى مبحث
خاص . والأدباء يعجبون بعينية الشريف هذه فى العتاب ، وقل منهم
من لا يحفظ هذا البيت المختار :

لو حيث يستمع السرار ووقتما * لعجبنا من عزه وخضوعى
والعز والخضوع فى هذا البيت يذكرنا بالعز والذل فى قول عمارة
البنى فى المجون :

ونافر الأعطاف عاملته * باللفظ حتى سكن النافر
ولم أزل أمسح أعطافه * ورأيه في قصتي حائر
حتى غدا من خجل مطرقاً * وكل إعراض له آخر
عجبت من ذل ومن عزه * في موقف عاذله عاذر
في ليلة ساهرها نائم * فما له سمع ولا ناظر
مددت فيها الفخ لما خلا لا * جوأ إلى أن وقع الطائر
فبت من فرط اغتباطي به * أظن أني غائب حاضر
وأبن التماويذى يحيد الشعر في العتاب ، وهو صاحب هذه
الآيات المختارة :

خذ في أفانين الصدود فان لي * قلباً على العيلات لا يتقلب
أظنني أضمرت بعدك سلوة * هيهات عطفك من سلوى أقرب
قد كنت تنصفني المودة راكباً * في الحب من أخطاره ما أركب
فاليوم أقنع أن يمر بمضجى * في النوم طيف خيالك المتأوب
وهو أيضاً صاحب هذه القطعة التي تمثل الوجد الدفين :

يا نازحاً ليس يدنو * وعائباً ليس يرضى
يا واجداً وديونى * في حبه ليس تقضى
أمرت عيني ففاضت * ومضجى فأقضا
ارقد هنيئاً فاني * ما ذقت بعدك غمضا

ومن الظلم للعواطف أن لا تفصل مذهب العباس بن الاحنف
في العتاب ، فان شعره آية الآيات في الشكوى من المهجر ، والتوجع

من الصدود، وهو مع هذا يعد أيام الهجر أحسن أيامه، ويقول :
وأحسن أيام الهوى يومك الذى * تُرَوِّع بالهجران فيه وبالعتب
إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رصناً * فأين حلاوات الرسائل والكتب
ولكن هذا أمل بعيد، فليس كل عتب تدور فيه رسائل الحب،
وصحف الهوى، وكذلك رزى ابن الأحنف بمن ينبذ كتبه، ويمزق
رسائله، وفى هذا المعنى قرأنا له هذه القطعة الباكية :

وصالك مظلم فيه التباس * وعندك لو أردت له شهاب
وقد تحملت من حبيك مالو * تقسم يز أهل الأرض شاووا
أفريق من عتابك فى أناس * شهدت الحظ من قلبى وغاوا
يظن الناس بى وبهم وأنتم * لكم صفو المودة واللباب
وكنت إذا كتبت إليك أشكو * ظلمت وقلت ليس له جواب
فشت أقوت نفسى بالأمانى * أقول لكل جامعة إياب
وصرت إذا انتهى منى كتاب * إليك لتعطى نبيذ الكتاب
وإن الود ليس يكاد يبقى * إذا كثر التجنى والعتاب
خفضت لمن يلوذ بكم جناحى * وتلقونى كأنكم غضاب
وقد أكثر ابن الأحنف من التوجع لحرمانه من كتب من
يهوى، وهو صاحب هذا البيت الحزين :

ويمنعنى من أحب كتابه * ويمنعني، إنه لبخيل
وكثيراً ما يميل ابن الأحنف إلى الصفح الجميل، إذ يرى العتاب
لا يطفئ القلوب، إن لم تضر الحنان. وقد أفصح عن ذلك فى هذه
الآيات :

أنكر الناس ساطع المسك من دج لة قد أوسع المشارع طيبا
فهمو يمجبون منه وما يدرو * ن أن قد حلت منه قريبا
قاسمى هذا البلاء والآن * فاجعلنى من التعزى نصيبا
ان بعض العتاب يدعو الى العتب ويؤذى به المحب الحبيب
واذا ما القلوب لم تضمر العطف فلن يمطف العتاب القلوبا
وما أجل العزة فى قوله :

خففت لمن يلوذ بكم جناحى * وتلقونى كأنكم غضابُ
وقوله : —

خففت طرفى لأذى من يلوذ بكم * حتى احتقرت وما مثلى بمحتقر
وأى كريم لم يلق مثل هذه الذلة فى سبيل الصباة ؟ ومتى عرف
الهوى قيمة العزة فى نفوس الأعراء ، فعصمها عن مداراة قوم يحيطون
بالجمال ، إحاطة الاشواك بالورود ؟

وقد نرى ابن الأحنف يألسا من نفع العتاب ، فنقرأ له هذه الأبيات
فى التبرم بالسكوت :

سكوتى بلاء لا أطيق أحتماله * وقلبي ألوف للهوى غير نازع
فأقسم ما تركى عتابك عن قلبي * ولكن لعلنى أنه غير نافع
وأنى اذا لم أظم الصبر طائما * فلا بد منه مكرها غير طائع
إذا أنت لم يعطفك الا شفاعه * فلا خير فى ود يكون بشافع
وربما رأيتاه زاهدا فى العتاب ، لأن محبوبته لا تصد صد العائب ،
بل صد الملول : وذلك قوله

لو كنت عاتبة لسكن لوعتي * أملى رضاك وزدت غير مراقب
 لكن مللت فلم تكن لي حيلة * صد الملول خلاف صد العاتب
 ماضر من قطع الرجاء بيظه * لو كان علاني بوعد كاذب
 على أن ابن الاحنف لم يقض كل حياته في هذا العذاب، بل رأيناه
 يعجب بنصره في الحب ، وقهره لقلوب الحسان ، أليس سعيداً من
 يقول :

يارب جارية أسبلت عبرتها * من رقة ولنرى قلبها قاسي
 كم من كواعب ما أبصرن خطبدي * إلا تمنين ان يأكلن قرطاسي
 وكان البهازير ، أحد وزراء مصر في أيامها الخوالي ، من أرق
 الشعراء في القتاب ، حتى لتحبب شعره نجوى بين الحب والحبيب ،
 أورنين الحلى عند عناق الحسان ، أو خفوق الأمل في قلب اليائس
 المحزون . انظر الى اعتذاره عن محبوبه ، ورضاه عما جنت يد الدلال يسكر
 به المعشوق الجميل :

مولاي من سكر الدلا * لبعثت والسكران عابث
 ونكثت عهداً في الهوى * ما خلت أنك فيه ناكث
 لك لا أشك قضية * أنا سائل عنها وباحث
 وقد يكثر في شعر البهازير وصف الدلال وماله من النشوة والسكر ،
 فراه في موطن آخر يقول :

أضنى الفؤاد فن يرمحه * وحي الرقاد فن يبيحه
 ونضا من الأجفان سيفاً قلما يبق جريمه

نشوان من خمر الدلا * ل غبوقه وبها صبوحه
والذى يعنينا الآن شرح مواقفه فى العتاب ، لانها تمثل الروح المصرية ،
ومالها من الساحة المصحوبة بالشتم والاباء . فحينئذ ينفي ما ذاع من سلوه ،
حتى هجره أحبابه ، فيقول

يا هاجرين وحقكم * هوتم مالا يهون
قلتم فلان قد سلا * ما كان ذاك ولا يكون
وحياتكم وهى التى * مامثلها عندى يمين
ماخنت عهدكم كما * زعم الوشاة ولا أخون
يا من يظن بأننى * قد خنته غيرى الخئون
لو صح ودك صح ظنك بى وبان لك اليقين
يا قلب بعض الناس كم * تقسو على وكم أليف
يا ويلتاه لمن يُخنا * طِبُّ أولم يشكوا الحزين
قد ذل من كان المعين له هو الدعم المعين
وحينئذ يمزج العتاب بالشكوى فيقول :

يا أعز الناس عندي * كيف خنت اليوم عهدي
سوف أشكوك بعدى * فعسى شكواى تجدى
أبن مولاي يرانى * ودموعى فوق خدى
أقطع الليل أقاسى * ما أقاسى فيه وحدى
ليتنى عندك يامولا * ي أوليتك عندي

ثم يترفق فى شكواه وأمانيه ، فيقول

من لى بقلبٍ أَشْتَرِيهِ من القلوب القاسية
إني لأطلب حاجةً * ليست عليك بخافية
أنعم عليّ بقبلةٍ * هبةً وإلاّ عارية
وأعيدها لك لاعدمت بعينها وكما هية
وإذا أردت زيادةً * خذها ونفسي راضية
فمسيّ يجمود لنا الزما * ن بخلوقةٍ في زوايه
أوليتني ألقاك وحسبك في طريق خالية

وهذه غاية الغايات في رقة النجوى و لطف العتاب ، ولكن
البهازير كما قلنا مصرى الروح : فهو في رفته غضوب : ألم تر اليه وقد
تبدّل من يهوى ، فرماه بهذه الصاعقة

. يامن تبدّل في الهوى * يهنّيك صاحبك الجديد
إن كان أعجبك الصدو * كذلك أعجبنى الصدو
وأعلم بأنّي لا أريد إذا رأيتك لا تريد
وأنا القريب فإن تغيّر صاحبي فأنا البعيد
وقد أوضح هذا المعنى ووفاه ، في الكلمة الآتية

سأعرض عن راح غنى معرصاً * وأعلن سلواني له وأشيعه
وأحجب طرفي عنه فهو رسوله * وأحجب قلبي عنه فهو شفيعه
وكيف ترى عيني لمن لا يرى لها * ويحفظ قلبي في الهوى من يضيعه
وأقسست لتجري دموعي على اري * إذا كان لا تجرى على دموعه
فلو خان طرفي ماحوته جفونه * ولو خان قلبي ماحوته ضلوعه

وأوضح من هذا قوله من كلمة ثانية :

هو حظي قد عرفته * لم يحل عما عهدته
 فاذا قصر من أهوا * ه في الحب عذرتة
 غير أنى لى فى الحب طريق قد سلكتة
 لو أراد البعد عنى * نور عيني ما تبعته
 إن قلبي وهو قلبي * لو تجنى ما صحبتة
 كل شيء من حبيبي * ما خلا الغدراً احتملته
 أنا فى الحب غيور * ذاك خلقى لاعدمته
 أبصر الموت اذا أبصر غيرى من عشقته

نوح الحمام

لقد أئمتنا الإمامة قصيرة بنوح الحمام عند أسباب المدامع ، واليوم
 تفصل مذاهب الشعراء فى هذا الباب : فمنهم من يحن الى الحمام الشادية ،
 ويتمنى لو عدن إليه ، فاذا عدن أسلمته الى البكاء ، كما قال المجنون :
 ألا يا حمامات اللوى عدن عودة * فاقى الى أصواتكن حزين
 فعُدن فلما عدن كدن يمتننى * وكدت بأشجانى لهن أئين
 فلم تر عيني مثلن بواكيا * بكين ولم تذرف لهن عيون
 ومن الشعراء من يذكر أن الحمام الباكية تبعث الهوى فى قلب
 الخلى ، فكيف بالشجى ، وأن أنعامها ليست دموما ولكنها أمضى
 من الدموع ، كما قال أبو تمام :

بعث الهوى في قلب من ليس هائماً * فقل في فؤاد رُعْنُهُ وهو هائمٌ
 لما نغمٌ ليست دموعاً فإن علت * مضت حيث لا تمضي الدموع السواجمُ
 ومنهم من يستريح الى نوح الحمام، ويراه تدواوياً من الداء بنفس
 الداء، كقول ابن عبد ربّه :

فكيف ولي قلبٌ اذا هبت الصبا * أهاب بشوق في الضلوع دفينِ
 ويحتاج منه كلما كان ساكناً * دعاء حمام لم تبت بوكون
 وان أرتياحى من بكاء حمامة * كذى شجنٍ داويته بشجونِ
 كان حمام الأيك لما تجاوزت * حزينٌ بكى من رحمةٍ لحزينِ
 ويسمون الحمامة « مطوقة » لطوقها المخضب الجميل، كما قال ابن
 عبد ربّه :

ونائح في غصون الأيك أرقني * وما عُنيت بشئٍ ظلٌ يعنيه
 مطوقٌ بمخضابٍ ما يُزِيلُهُ * حتى تزيله إحدى تراقيه
 قد بات يشكو بشجو ما دريت به * وبت أشكو بشجو ليس يدر به
 ومن الشعراء من يقارن بينه وبين الحمامة الباكية، فيذكر أنها
 تبكى بلا دمع، وأن إلها منها قريب، كما قال أبو محمّد الشيباني من
 قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين، وقد كبرت سنه، وطالت غربته :

وأرقني بالرى نوح حمامة * فنحت وذو الشجو الغريبُ بنوح
 على أنها ناحت ولم تذر دمعاً * ونحت وأسرابُ الدموع سُفوح
 وناحت وفرخاها بحيث تراها * ومن دون أفرأخي مهامه فيحُ
 ألا يا حمام الأيك إلفك حاضرٌ * وغصنك مبادٌ فقيم تنوحُ

أفق لا تنح من غير شيء فاني * بكيت زماناً والفؤاد صحيح
ولوعاً فشطت غربة دار زينب * فهأنا أبكي والفؤاد جريح
ومما يجدر أن يكون « صورة شعرية » في وصف الحماة الباكية
قول الطغرائي :

أبكيت صدحت شجواً على فني * فأشعلت ماخبا من نار أشجاني
ناحت وما فقدت إلهاً ولا فُجعت * فذكرتني أوطاري وأوطاني
طليقة من إسار الهم ناعمة * أضحت تجدد وجد الموثق العاني
تشبهت بي في وجدى وفي طربي * هيهات ما نحن في الحالين سيان
ما في حشاها ولا في جفنها أثر * من نار قلبي ولا من ماء أجفاني
ياربة البانة الغناء تحضنها * خضراء تلتف أغصاناً بأغصان
إن كان نوحك إسعاداً لمغترب * ناء عن الأهل ممنو بهجران
فقارضيني إذا ما اعتادني طرب * وجداً بوجد وسلواناً بسوان
أولاً فقصرك حتى أستعين بمن * يعنيه شأني ويأسو كلى أحزاني
ما أنت مني ولا يعنك ما أخذت * مني الهموم ولا تدرين ماشاني
كلني إلى النعيم إسعادى فان له * دمعاً كدمعي وإرنا ناكراً ناني
وهذه القصيدة من أبدع ما قال الشعراء في الحماة الشاديات . وهي
انموذج للملاحة التقسيم ، وبراعة التصوير ، وحلاوة التعبير ، ويقرب
منها قول ديك الجن

حائم وُرُق في حمى وُرُق خضر * لها مقل تجرى الدموع ولا تجرى
تكلفن إسعاد الغريبة أن بكى * وإن كن لا يدرين كيف جوى الصدر

لها حُرْقٌ لو أنْ جَنَسَاءُ أَعُولَتْ * بهن لَأَدَّتْ حَقَّ صَخْرٍ إِلَى صَخْرٍ
فَقُلْتُ لِنَفْسِي هَاهُنَا طَلَبُ الْأَسَى * ومعدنه إن فَانِي طَلَبُ الصَّبْرِ
وقد يحسن لفت النظر الى الخرافة القديمة في نوح الحمام : فان
العرب يذكرون أنه كان لمن ملك في عهد نوح يسمى (الهديل) فمن
يكيئنه الى الآن ؟ وهو المعنى بقول نصيب

لقد راعني للبين نوح حمامة * على غصن بانٍ جاوبتها حمامٌ
هوائفٌ أمّا من بكيئ فمهده * قديمٌ وأما شجوهن فدامٌ
ومن ذكر الهديل محمد بن ثور في هذه الأبيات الحسان :

إذا نادى قرينته حمام * جرى لصبا بتي دمعٌ سفوحٌ
يُرْجَعُ بالدعاء على غصون * هتوفٌ بالضحي غريدٌ فصيحٌ
هفاً لهديله منى إذا ما * تفرّد ساجعاً قلبٌ قريحٌ
فقلت حمامة تدعو حماماً * وكل الحب نزاعٌ طموحٌ

قال أبو بكر بن دريد : خرجنا من عُمان في سفر لنا ، فزلنا
في أصل نخلة ، فنظرت فإذا فاختتان تزقوان في فرعها ، فقلت :

أقول لورقاوين في فرع نخلة * وقد طفّل الإماء أو جنح المصّر
وقد بسطت هاتي لتلك جناحها * ومال على هاتيك من هذه النحر
ليهنكما أن لم تُراما بفرقة * ومادب في تشتيت شملكما الدهر
فلم أر مثلي قطع الشوق قلبه * على أنه يحكي قساوته الصخر
ومن جيد الشعر في الموازنة بين العاشق وبين الحمامة الشادية

قول ابن سنان الخفاجي

أُظِنَ الورقُ في الأيَّامِ تَغْنَى * أنها تَضْمُرُ حُزْنَها مثلَ حُزْنِي
لَأُراكَ اللهُ نَجْدًا بَعْدَها * أيُّها الحادِي بها إنْ لَمْ تَجِبْنِي
هَلْ تُبادِنِي إلى بَثِّ الجَوَى * في ديارِ الحَى نَشَوِي ذاتِ غُصْنِ
هَبْ لها السَّبْقَ وَلَكِنْ زادنا * أَتُنا نَبْكِ عليها وتَغْنَى
يَازمانَ الخَيفِ هَلْ مِنْ عودَةٍ * يَسمحُ الدَهرُ بها مِنْ بَعْدِ ضَنْيِ
أَرْضينا بَنياتِ الأولى * عَنِ زُرودِ يَها صَفقَةَ غَبْنِ
وقد يَنكرُ الشاعِرُ على الحَمامَةِ أنْ تَشكو الفِراقَ ، وَهي كَثيرَةُ
الألَافِ ، وَحالِيَةِ بالطَّوقِ والخُضابِ ، كَقولِ ابنِ سَنانَ صاحِبِ
الايَّامِ السالِفَةِ :

وَهاتِفَةٍ في البانِ تُمَلِّى غَرامِها * عَلينا وتَلو مِنْ صِبا بَها صُحُفا
عَجِبْتَ لها تَشكو الفِراقَ جِمالَةً * وَقَدْ جَوابَتْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ إلَها
وَيُشجِي قُلُوبَ العاشِقِينَ حَنيَها * وَما فَهَمُوا مِمَّا تَغَنَّتْ بِهِ حَرفا
وَلَوْ صَدَقْتَ فِما تَقولُ مِنَ الأَسَى * لَمَّا لَيسْتَ طَوقًا ولا خُضْبَتِ كَفا
وَلَكِنْ الأَرْجاءُ يَصِفُها بِصَدقِ اللَوعَةِ ، فَيَذكُرُ أَنَّها مَزَقَتْ
أَثوابَ الحِدادِ ، وَأَنَّ صَدورَها صَنَاقَتْ بِأَنفاسِها فَفَضَّتْ بِجامِعِ الأَطَواقِ
وَأَنَّها نَزَفَتْ دَمَها وَأَفْتَتَهُ بِطولِ البَكا ، وَذلكَ في قولِهِ :

وَمما شَجا نِي وَقَدْ ودَّعُوا * بَكا الحَمامِ على ساقِها
تَنوحُ على بَعدِ الأَلفِها * وَلَظَهرِ مَكونِ أَشواقِها
لِيسَنِ حِدادًا وَمَزَقَنَّهُ * فَلَمْ تَدَخَّرَ غَيرَ أَزِياها

وصاقت صدوراً بأنفاسها * ففضت مجامع أطواقها
وقد زفت في الهوى دمعها * فلم يبق ماء بآفاقها
ولم يكثر الشعراء من الحديث عن غناء الكروان . ويظهر أنهم
لم يتمتعوا بأغانيه الجميلة على صنفان النيل في سنتريس ، والدهر
كله فداء للحظة واحدة من الأصائل ، أو العشيات ، أو الأسحار ،
في مغاني سنتريس

ويعجني في وصف الكروان قول الأستاذ عباس العقاد :
يا مَحْيَ الليل البهيم تهجداً * والطير آوياً إلى الأوكانِ
يحدو الكواكب وهو أخفى موضعاً * من نابغ في غمرة النسيانِ
قل يا شبيه النابغين اذا دعوا * والجهل يضرب حولهم بجرانِ
كم صبيحة لك في الظلام كأنها * دقائق صدر للدجينة حانِ
خفاقة النفثات تطفر في الدجى * فوق النسيم طفرة النشوانِ
هُنَّ اللغات ولانبات سوى التي * رُفِعَتْ بهنَّ عقيرة الوجدانِ
إن لم تقيدها الحروف فانها * كالوحي ناطقة بكل لسانِ
أغني الكلام عن المقاطع واللغى * بث الحزين وفرحة الجذلانِ
إني لأسمع منك إذ ناديتني * معنى يقصر عنه كل بيان
أصغى إليك اذا هتفت وفي يدي * سفرٌ يغرد صامت الأوزانِ
شعر الطيور ولاريا يشوبه * يذرى يبدع قصائد الإنسانِ
ياساليكشكو ويصدق وحده * علمٌ سميرك راحة السلوانِ
ومن خير ما وُصِفَتْ به الحمامة من ناحية الخلق الجميلة ، قول
بعض الأعراب :

وقبلى أبكى كل من كان ذاهوً * هتوف البواكى والديارُ البلاقعُ
وهنَّ على الأطلال من كل جانب * نوائحٌ ماتخضلُّ منها المدامعُ ^(١)
مُزبَّجة الأعناق غرَّ ظهورها * مُخَطَّمة بالدرِّ خضرُ روائعُ ^(٢)
ترى طُرداً بين الخوافى كأنها * حواشي بُردٍ زينتها الوشائعُ ^(٣)
ومن قطع الياقوت صبغت عيونها * خواضبٌ بالحناء منها الإصابع
ويعجبنى خطاب عبد البرين فرسان الغساني لطائر مغرَّد ضم
أفراخه إليه :

أعدهنَّ الحاناً على سمع مُعربٍ * يطارحُ مرتاحاً على القضبِ مُعجياً
وطر غير مقصوص الجناح مُرفها * مُسَوِّغٌ أشتاتِ الجبوبِ مُنمعا
تُخلى وأفراخاً بوكرُك نُوماً * ألا ليت أفراخي معي كن نُوما
وقد أبدع الرصافي شاعر الأندلس حين تنقئ يوماً من أيام شبابه
وقد خلا فيه عن يهوى في روضة لم يشاركهم في سكنها غير الهديل،
وأياته الآتية غاية من غايات الحسن في وصف الشمس وهي تجنح
للغروب :

وعشيَّ رائق منظره * قد طعناه على صِرف الشمول
وكان الشمس في أثنائه * ألصقت بالأرض خدَّ الانزول
والصبا ترفع أذيال الرُّبا * ومُحييَّ الجو كالسيف الصقيل
حبذا منزلنا مُتَبَقِّعاً * حيث لا يطرُقنا غير الهديل

(١) المدامع هنا أماكن الدمع وهي السيون (٢) مزبجة : من الزبرج وهو الزخرف والزينة . ومخطة من الحطم بفتح فسكون وهو مقار الطائر (٣) الوشائع جمع وشية وهي الطرائق في الثوب

طائرٌ شاذٍ وغصنٌ مننٌ * واللّجى تشرب صهباء الأصيل
ومما يقرب من هذا الباب وليس منه قول القاضي ابى حفص
القرطبي :

ثم نظروا لواحظها فهموا * وتشرب لبّ شاربها المدام
يخاف الناس مقتلها سواها * أيدعر قلب حامله الحسام
سما طرفي إليها وهو بالك * وتحت الشمس ينسكب الغمام
وأكر قدها فأنوح وجداً * على الأغصان ينتحب الحمام
وأعقب يثنها في الصدر غمّا * اذا غربت ذكاء أنى الظلام

التقرب بالدموع

خير ما تقرب به الحب الى حبيبه دمع مسفوح ، وقلب مجروح
ووجد مشبوب ، وصبر مغلوب ١١ والتقرب بالدمع نوع من الاستعطاف
تغزى به قلوب الحسان ، ومن طريقه قول الابيوردى :
أشكو الهوى لترقى يا أميمة لى * فطالما رفق المشكو بالشاكي
يشقى ييمضى بعضى فى هواك فا * للعين باكية والقلب يهواك
وهذا المعنى غير معروف عند العرب : فهم يرون بكاء العين من
فضل حزن الفؤاد ، حتى يقولون : نعمت العين ، وشقى القلب ،
ولكن الابيوردى عكس المعنى ، فجعل نعيم القلب فى الهوى ،
وعذاب العين فى البكاء ، ثم قال :
إن يحك ثغرك دمعى حين أسفحه * فإننى جدت للمحكى بالحاكى

ما كنت أحسب أن الدر مسكنه * يكون جيدك أوعيني أوفاك

وأوضح من هذا وأجل قول الشريف :

أهون بما حلتني من الضنى * لو أن طيفك كان من عوادي

ولقأما زار الخيال بمقلة * روعاء نافرة بغير رقاد

ما لتلقى الأجفان منها ساعة * وإذا ألتقت فلفض دمع باد

لا يبعدن قلبي الذي خلفته * وقفاً على الإلهام والإنجاد

إن الذي غمر الرقاد وساده * لم يدركيف نبا على وسادى

ولقد بعثت من الدموع اليكم * بركايب ومن الزفير بحادى

لولا هواك لما ذلت وانما * عزى يميني بذل فؤادى

وهكذا يجمع الشريف الرضى بين العزة القرشية ، والذلة العذرية :

فهو عزيز ذليل !! وللبحتري حوار لطيف في هذا الباب ، فن

ذلك قوله :

صلى مغرمًا قلدوا تر الشوق دمعته * سجاماً على الخدين بعد سجام

فليس الذى حلته بحلل * وليس الذى حرّمته بحرام

وقد رددها هذا المعنى في موطن آخر فقال :

ألام على هواك وليس عدلاً * إذا أحببت مثلك أن ألاما

فقد حرّمت من وصلى حلالاً * وقد حللت من هجرى حراما

ولا يسعنى وقد أسرف البحتري في ذكر الحرام والحلال ، إلا الرجاء

في أن ينصف هذا المظلوم يوم يقوم الحساب !! وقد رق شعر العباس

ابن الأحنف حين يقول :

أما أستوجبت عيني فديتك نظرة * إليك وقد أبكىتها حججاً عشراً
لعمري لن أفررت عيني بنظرة * إليك لقد عذبتها بالبكا دهرها
ويقرب من هذا قوله من كلمة ثانية

جرى السيل فاستبكا في السيل إذ جرى * وفاضت له من مقلتي غروباً
وما ذاك إلا حين أيقنت أنه * يمر بوادٍ أنت منه قريب
يكون أجاباً دونكم فاذا انتهى * إليكم تلقى طيبكم فيطيب
أيأساكني أكناف دجلة كلمكم * إلى القلب من أجل الحبيب حبيب
وقد تطفأ ابن التماويدي في شكوى حاله إلى من يهوى بقوله :

ياموحش العين التي * أنست بطول بكائها
غادرت بين جوانحي * نفساً تموت بدائها
تشتاق عيني أن ترا * لك وأنت في سودائها
فاذا بخلت بنظرة * سمحت بجمة ماها

ومن مبتدحات المتأخرين في هذا المعنى قول بعض الشعراء
وقلتُ شهودي في هواك كثيرة * وأصدقها قلبي ودمعي مسفوح
فقال شهودٌ ليس يقبل قولها * فدمعك مقذوف وقلبك مجروح
وهو كلام قد يطمئن له الفقهاء والمحدثون ، لطول ما يبحثون
في القذف والتجريح ، وما أغنى الشعر عن تفسير أولئك وتأويل هؤلاء !!

وقد يتوسل الحب بفنائه في الوجد ، ومن شعراء العصر من أجاد
هذا المعنى ، كصاحب البدائع حين يقول :

يا أهل أسبوطَ لازِلتم بعافيةٍ * وإن تمرَّدَ في وجدى بكم دائي
أسلمتوني لدهرى بعد ما بليت * من قسوة الصدِّ والتَّبَرُّجِ أحشائي
فلو أنت ظييةُ الحمراء غازيةٌ * قلبى لما وجدته غير أشلاء ^(١)
يا ونيح نفسى ، أنسوتنى وأذكركم * مقرَّحَ الجفن فى صبح وإمساء



إن الذين بأمر الحب قد ملكوا * لم يتقوا الحب فى ضررى وإيذاى
لم يذتنى الشوق يوماً من منازلهم * إلا تولوا مع الأيام إقصائى
كم رُحْتُ أحمل آمالى لحبيهم * وعدتُ أحمل آلامى وأرزائى
بالوعة القلب لاشكواى نافعةٌ * ولا بكلئ بشافٍ مسَّ ضرائى
أبيتُ أندب عهداً مرَّ طيبه * كلحة البرق فى أعطاف ظلماء
وأرسل الزفرة الحمراء لافحةٌ * كوقدة الجمر فى آجام قصباء



يا من يعزُّ علينا أن نجازيهم * صدًا بصيدٍ وإغضاء بإغضاء
لو ترحمون وصلتم شيقًا كلفًا * ألقى جفاكم عليه ألف بأساء

(١) الحمراء حى جميل من أحياء أسبوط

ثورة الوجد

نذكر هنا طرفاً من الشعر الموجه ، الذى يمثل ثورة الوجد ، ولوعة
الأسى ، فمن ذلك قول أبى تمام

سقيمٌ لا يموت ولا يفيقُ * قد أقرحَ جفنه الدمعُ الطليقُ
شديد الحزن يحزن من يراهُ * أسير الصبر ناظره أريقُ
ضجيج صبايةٍ وحليف شوقٍ * تحمل قلبه مالا يطيقُ
يَظُلُّ كأنه مما احتواهُ * يُسرَّ في جوانبه الحريقُ

وأى حال أدعى للرحمة ، وأوجب للإشفاق ، من حال هذا المحب
السقيم ، الذى لا يموت ولا يفيق . والذى يحزن من يراه : لصبره
الأسير ، وناظره الأريق ، والذى حالف فى ضعفه الشوق ، وضاجع
الصباية ، حتى لكانه مما به ، تسرَّ النار فى ضلوعه ؟ !

ويقرب من هذا قول ابن الرومى فى فراق اثنين من خلّاته
لم يسترح من له عينٌ مؤرقةٌ * وكيف يعرف طعم الراحة الأرقُ
محمدٌ وعلىٌ فتناً كبدي * إذا ذكرتهما والعيسُ تنطلقُ
خلانٌ حل بقلبي من فراقهما * ما كنت أحذر منه قبلَ تَفَرُّقِ
قلبٍ رقيقٍ تلظت فى جوانبه * نار الصباية حتى كاد يحترقُ
وِدَدْتُ لو تم لى حجبى بقربها * ما كلُّ ما تشهيه النفس يتفقُ
ومما يمثل ثورة الوجد فى الصدر ، مع الغيظ مما جنت يد الديالى ،

قول المتنبي :

أَكِيداً لَنَا يَا بَيْنَ وَاصِلَتْ وَصَلْنَا * فَلَا دَارَنَا تَدْنُو وَلَا عَيْشَنَا يَصْفُو
أَرْدَدُ وَيَلِي ، لَوْ قَضَى الْوَيْلَ حَاجَةً * وَأَكْثَرَ لَهْفِي ، لَوْ شَفَاعَةً لَهْفُ
ضَنِّي فِي الْمَوْتِ كَالسَّمِّ فِي الشَّهْدِ كَامِنًا * لَذَذْتُ بِهِ جَهْلًا وَفِي اللِّذَّةِ الْخِتَفِ
وَكَانَ الْأَيُّورْدَى يَمِثُلُ وَجْدَهُ يَوْجِدُ الطَّبِيبَةَ تَتْرُكُ وَلَدَهَا فِي طَلَبِ
الْكَلَامِ تَعُودُ سَرِيعَةً إِلَى لِقَائِهِ فَتَجِدُهُ مَاتَ ١ وَإِلَيْكَ مِنْ شَعْرِهِ هَذِهِ
الْوَلْوَلَةُ الْفَتَانَةُ :

وَمَا أَثْمُ سَاجِي الطَّرْفِ مَالٌ بِهِ الْكَرَى * عَلَى عَذَابَاتِ الْجَزَعِ تَحْسِبُهُ قَلْبًا
تُرَاعَى بِأَحَدِي مَقْلَتِيهَا كِنَاسَهَا * وَتَرَى بِأُخْرَى نَحْوَهُ نَظَرًا غَرْبًا
فَلَا حَ لَهَا مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ مَرْتَعٌ * كَأَنَّ الرِّبْعَ الطَّلُقَ الْبَيْسَهُ عُصْبًا
فَالَتْ إِلَيْهِ وَالْحَرِيسُ إِذَا غَدَتْ * بِهِ سُورَةُ الْأَطَاعِ لَمْ يَحْمَدِ الْعُقْبَى
وَأَنَسَهَا الْمَرْعَى الْخَصِيبَ فَصَادَفَتْ * مَدَى الْعَيْنِ فِي أَرْجَائِهِ بَلَدًا خَصْبًا
فَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ اللَّبَانَةَ رَاجِمَةً * طَلَاهَا فَأَلْفَنَتْهُ قَضَى بَعْدَهَا نَحْبًا
أُتِيحَ لَهُ عَارَى السَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ * يَخُوضُ إِلَى أَوْطَارِهِ مَطْلَبًا صَعْبًا
فَوَلَّتْ عَلَى ذُعُرٍ وَبِالنَّفْسِ مَابَهَا * مِنَ الْكَرْبِ لَا تُقْبِتُ فِي حَادِثٍ كَرْبًا
بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ عَجَّتْ رُكْبَهَا * لَبِينٌ فَلَمْ تَتْرُكْ لَنِي صَبْوَةً لُبًا
وهذه الصورة الشعرية كثيرة الأمثال في الآداب القديمة ،
وانما نسبناها الى الأييوردي لانه يرددناها في شعره ، فمن ذلك قوله
في كلمة ثانية :

وَمَا مَغْزَلٌ تَعْطُو الْأَرَاكَ يَهْزُهُ * نَسِيمٌ تَنَاجِيهِ الْخَمَائِلُ ١٠ وَإِنْ ١١

(١) المغزل : أم الغزال : الخمائل جمع خيبة وهي ألفاف الشجر

وَتُرْجَى بِرَوْقِهَا أَغْنَى كَأَنَّهُ * من الضف يطوى الأرض بالرَّسْفَانِ^(١)
 قال الى الظلِّ الأراكى دُونَهَا * وكانا به من قبلُ يرتديان
 وَضَبَّتْ عَلَيْهِ الطَّلْسُ وَهِيَ سَوَاغِبٌ * تجوبُ اليه اليَدُ بالنسلان^(٢)
 فمادت اليه أُمُّهُ وفؤادُها * هفأَ كجناح الصقر في الخفَقَانِ
 وظلَّتْ على الجرعاء وَلَهَى كَثِيبَةٌ * وقد سال وادِها بأحمرَّان
 تَسُوفُ الثرى طوراً ويعبث تارةً * بها أولقُ من شدة الوَلْهَانِ^(٣)
 بأوجدَ مني يومَ سَرْتُ الى الحمى * وقد نزلتُ سمرا سَفْحَ أَبَانِ^(٤)
 ونحب أن نلفت القارىء الى ما فى أمثال هذه الصُّور الشعرية
 من الكلف بتصوير الطبيعة ، وما فيها من حياة الحيوان ، فقد أغرم
 شعراء العرب بهذا الأسلوب ، فزاد شعرهم جمالاً الى جمال . ولولا الرغبة
 فى الإيجاز لنقلت قطعة من شعر (ألفريد دى ميسيه) ثمائل شعر
 الأبيوردى فى هذا الجانب من البيان . والناس عم الناس ، فى كل قطر ،
 وفى كل جيل ، والتباين قليل فى الميول ، وفى تذوق ألوان الحياة ،
 وإن عظم الفرق حيناً فى التعبير عن نزعات النفوس ، وشهوات العقول
 ومن خالده الشعر فى ثورة الوجد نونية الوزير ابن زيدون ، وقد
 رأينا أن نثبتها هنا كاملة — كما فعل المقرئ صاحب نفع الطيب — لأنها
 ذكرت مفرقة فى أكثر المؤلفات .

أضحى التناؤ بديلاً من تدانينا * وناب عن طيب لقيانا تجافينا

(١) الرسفان : المني فى القيد (٢) الطلس : القناب . ولواغب : الجباع . والنسلان :
 معنى القنب إذا اسرع (٣) تسوف : تنهم . الاوراق : الجنوب (٤) أبان : جبل شرق
 الحاجر قيه محل

من مُبْلَغِ الْمَلْسِينَا بِانْتِزَاحِهِمْ * حَزَنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُبْلِينَا
 أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي قَدْ كَانَ يَضْحَكُنَا * أَنْسَا بِقَرَبِهِمْ قَدْ عَادَ يُسْكِنُنَا
 غَيْظُ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فِدَعَوْا * بَأَنْ نَقْصَرَ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
 فَاتَّحَلَّ مَا كَانَ مَقْهُودًا بِأَنْفُسِنَا * وَانْبَتَّ مَا كَانَ مُوصُولًا بِأَيْدِينَا
 بِالْأَمْسِ كُنَّا وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا * فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِنَا
 يَا لَيْتَ شَعْرَى وَلَمْ نُعْتَبِ أَطَادِيكُمُ * هَلْ نَالَ حِطًّا مِنَ الْعُتْبَى أَعَادِينَا^(١)
 لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ * رَأْيَا وَلَمْ تَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
 كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسْلِينَا عَوَارِضُهُ * وَقَدْ يَتُسَّنَا ، فَالْيَأْسَ يُغْرِينَا
 بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا أَتَلَّتْ جَوَانِحُنَا * شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا
 نَكَادَ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَائِرُنَا * يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَمْسَى ، لَوْلَا تَأْسِينَا^(٢)
 حَالَتْ لِبُعْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَّتْ * سَوْدًا وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضًا لِيَالِينَا
 إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَالِفُنَا * وَمُورِدُ الْهَوَى صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
 وَإِذْ هَصَرْنَا فَنَوْنَ الْوَصْلَ دَانِيَةً * قَطُوفُهَا لَجْنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا
 لَيْسَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السَّرُورِ فَمَا * كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَا حِينَا
 لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا * إِذْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْحَيِينَا
 وَاللَّهِ مَا طَلَبْتُ أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا * مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفْتُ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

يَا سَارَى الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ فَاسْقِي بِهِ * مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوَدِ يَسْقِينَا
 وَأَسْأَلُ هُنَاكَ هَلْ عَنَى تَذَكُّرُنَا * إِلْفًا تَذَكُّرُهُ أُمْسَى يَعْنِينَا^(٣)

(١) أَعْتَبَهُ : أَرْضَاهُ . وَالْعُتْبَى : التَّوْبَةُ . (٢) التَّأْسَى : حَتَامًا : أَشَقَامًا

ويانسج الصبا بلغ تحيتنا * من لو على البعد حيا كان يحينا
 ويبت ملك كأن الله أنشأه * مسكا وقد أنشأ الله الورى طينا
 أوصاغه ورقا محضا وتوجه * من ناصع التبر إبداعا وتحسينا^(١)
 إذا تاود آدته رفاهية * تذى المقول وأدمته البرى لينا^(٢)
 كانت له الشمس ظنرا فى تكلله * بل ما تجلى بها إلا أحينا^(٣)
 كأنما نبئت فى صحن وجنته * زهر الكواكب تعويدا وتريينا
 ماضر أن لم نكن أكفاءه شرفا * وفى المودة كاف من تكافينا^(٤)
 ياروضة طالما أجت لواحظنا * وردا جناه الصبا غضا ونسرينا
 ويأحياة تملانا بزهرتها * مئى ضروبا ولذات أفانينا^(٥)
 ويأنعما خطرنا من نصارته * فى وشى نعى سحبا ذيله حينا
 لسنا نسيمك إجلالا وتكرمة * فقدرك المعلى عن ذاك يغنينا
 إذا اتفردت وما شورك فى صفة * فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيننا



ياجنة اغلذ أبدلنا بسلسلها * والكوتر العذب زقوما وغسلينا
 كأننا لم نبئت والوصل ثلثنا * والسعد قد غص من أجفان واشينا
 سيران فى خاطر الظماء تكثنا * حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
 لا غرو فى أن ذكرنا الحزن حين نهت * عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
 إننا قرأنا الأسى يوم النوى سورًا * مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

(١) ورق ككتف: النضة . (٢) تاود: تثنى . آدته: أعتله . البرى: الخلايل
 (٣) الظفر من معانيه جانب القصر (٤) التكافى: التكافؤ والتماثل (٥) تملانا: تمتعنا

أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَشْرِهِ * شَرِبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِنَا فَيُظْمِنَا^(١)
 لَمْ نَجْغُ أَفْقُ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبُهُ * سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجِرْهُ قَالِنَا
 وَلَا اخْتِيَارًا تَجَنَّبْنَاكَ عَنْ كَشْبِهِ * لَكِنْ عَدْتْنَا عَلَى كُرْهِ عَوَادِنَا^(٢)
 نَأْسَى عَلَيْكَ إِذَا حُشَّتْ مَشْعَشَعَةٌ * فِينَا الشُّمُولُ وَغَنَانَا مُغْنِينَا
 لَا أَكُوْثُ مِنَ الرَّاحِ تَبْدَى مِنْ شَمَائِلِنَا * رَسِيماً أَرْتِيَا حِجَاحَ وَلَا الْأَوْتَارَ تَلْهِينَا
 دَوَى عَلَى الْعَهْدِ مَادَمْنَا مَحَافِظَةً * فَالْحَرِّ مِنْ دَانٍ إِنْصَافًا كَمَا دَرِينَا
 فَمَا اسْتَعْصَمْنَا خَلِيلًا عَنْكَ يَحْبِسُنَا * وَلَا اسْتَفْدَنَا حَبِيبًا مِنْكَ يُغْنِينَا
 وَلَوْ صَبَّاحُنَا مِنْ أَفْقٍ مَطْلَمِهِ * بَدْرُ الدَّجَى لِيَكُنْ حَاشَاكَ يَصْبِينَا
 أَوَّلَى وَفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْدُلْ صَلَةً * فَالطَّيْفُ يَقْنَعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا
 وَفِي الْجَوَابِ شَفَاءٌ لَوْ شَفَعْتَ بِهِ * بَيْضُ الْأَيْدَى الَّتِي مَازَلْتَ تَوَلِينَا
 وَقَدْ أَغْرَمَ الشُّعْرَاءُ بِتَضْمِينِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ ، وَتَسْدِيسِهَا ،
 وَتَشْطِيرِهَا ، وَكَذَلِكَ شَغَلَتْ الْأُذْهَانَ زَمَنًا غَيْرَ قَلِيلٍ . وَقَدْ أُرْسِلَ
 ابْنُ زَيْدُونَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ إِلَى مَعْشُوقَتِهِ وَلَادَةٍ ، وَهِيَ سَيِّدَةُ أُنْدَلُسِيَّةٍ
 ظَرِيفَةٍ مِنْ بَنَاتِ الْخُلَفَاءِ الْأُمَوِيِّينَ ، وَقَدْ كَانَتْ فِي جَمَالِهَا شَاعِرَةً مَحِيذَةً
 وَمِنْ شِعْرِهَا هَذَانِ الْبَيْتَانِ تَدْعُو بِهِمَا ابْنَ زَيْدُونَ :
 تَرَقَّبْ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي * فَانِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِلسَّرِّ
 وَبِي مِنْكَ مَا لَوْ كَانَ بِالْفَجْرِ لَمْ يَلُحْ * وَبِاللَّيْلِ لَمْ يُظْلَمْ وَبِالنَّجْمِ لَمْ يَسْرِ
 وَلَا بِنِ زَيْدُونَ فِي وَلَادَةِ مَقْطَعَاتِ حِسَانٍ ، كَقَوْلِهِ :
 وَاهَاً لِعَطْفِكَ وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا * صُبِغَتْ نَضَارَتُهُ يَبْرُدُ صَبَاكَ

(١) الشرب بكسر الشين كالشرب وهو المورد (٢) عن كتب: عن قرب

والليل مهما طال قصر طوله * هاتي، وقد غفل الرقيب، وهاك
أما منى نفسى فأت جيعها * ياليتنى أصبحتُ بعض مُناك
يُدق مثالك حين شطبه النوى * وهم أكاذبه أقبل فاك
ومن موج الشعر قوله

يبنى وبينك ما لو شئت لم يضع * سر إذا ذاعت الاسرار لم يذع
يابالغا حظه منى ولو بذلت لى الحياة بحطى فيه لم أبع
والصديقنا الأستاذ أنيس ميخائيل وكع غريب بانشاد قول
ابن زيدون :

إني ذكرك بالزهراء مشتاقا * والأفق طلق ووجه الروض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله * كأنما رق لى فاعتل إشفاقا
والنهر عن مائه الفضى مبتسم * كما حلت عن اللبات أطوقا
يوم كأيام لذات لنا أنصرت * بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر * جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرق * بكت لما بى جبال الدمع دقراقا
ورد تألق فى ضاحى منابت * فأزداد منه الضحى فى العين إشراقا
سرى ينالغ نيوفر عبق * وسنان نبه منه الصبح أحداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا * إليك لم يعد عنها الصدر أن صناقا
لو كان وفى المنى فى جمنا بكم * لكان من أكرم الأيام أخلاقا
لا سكن الله قلبا عن ذكركم * فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حمل نسيم الريح حين هفا * واناكم بفتى أضناه مالاقي

كان التجازى بمحض الود مذْمن * ميدان أنسٍ جرينا فيه أطلاقا
فالاّن أحمد ما كنا لهدكم * سلوتم وبقينا نحن عُشاقا
وانى لمفتون بهذا الشطر الحزين :

سلوتم وبقينا نحن عُشاقا

فانه يمثل الحب ، وقد سلا أحبابه ، ونقى وحده يعانى آلام الوجد ،
وأهوال الصدود

الارق والسهاد

شكا الشعراء قديما وحديثا طول الليل بعد الفراق ، وعند المهجر
والصدود . فتهم من يستنجد بحبوه ، ويستعديه على وحشة الليل ،
ومضاضة الأرق ، كقول الأبيوردى :

أُمَيِّمَ إِن خَفَيْتَ عَلَيْكَ صَبَاحِي * فَسَلَى ظِلَامَ اللَّيْلِ كَيْفَ أَكُونُ
وَأَسْتَخْبِرِي غَيَّ النُّجُومِ فَقَدَرَاتُ * سَهَرَى وَأَزْوَاقَ الْغِيَاهِبِ جُؤُنُ
وَلَنْ أَذَلَّتْ مُصَوْنٌ دَمْعِي فِي الْهَوَى * فَعَلَى الْبُكَاءِ يُعَوَّلُ الْحَزُونُ

وهذه الايات من خير ما قال المحبون فى شكوى الوجد ، وعبثه
بكرائم النفوس . ومنهم من يستعين من حوله ، ويرجوهم أن يحدّثوه
عن النهار ، أو يصفوه له ، فقد طال ليله ، حتى نسى النهار ، وأوصاف
النهار ، كما قال ابن الاحنف :

أيها الراقدون حولي أعينوا * نى على الليل حسبةً وأُتجارا
حدثوني عن النهار قليلا * أوصفوه فقد نسيت النهارا

وَأَبْنِ الْأُخْفِ بِحَيْدِ شَكْوَى اللَّيْلِ الطَّوِيلِ ، وَالسَّهَادِ الْمَمْلُولِ ،
فَنَ ذَلِكْ قَوْلُهُ :

نَامَ مِنْ أَهْدَى لَى الْأَرْقَا * مُسْتَرِيحًا سَامِنَى قَلَقًا
لَوْ يَبِيتُ النَّاسُ كُلَّهُمْ * بِسَهَادَى يَبِيتُ الْحَدَقَا
أَنَا لَمْ أُرْزَقْ مَوْتَكُمْ * إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا
كَانَ لى قَلْبِ أَعِيشَ بِهِ * فَأَصْطَلَى بِالْحُبِّ فَاحْتَرَقَا
وَتَوَجَّعْنَى شَكْوَاهُ فِى قَوْلِهِ :

أَنَا لَمْ أُرْزَقْ مَوْتَكُمْ * إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا

فَقَدْ تَكَفَّلَتْ النَّفْسُ بَفْتَنَةٍ مِنْ قَيْنِ الْحَسَنِ فِى هَذَا الْوُجُودِ ، ثُمَّ
لَا تَجِدُ إِلَيْهَا السَّبِيلَ ، عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَسَنَ قَدْ يَكُونُ زَمَامَهُ يَدٌ مِنْ
لَا يَشْعُرُ بِرُوعَةِ الْجَمَالِ :

وَمِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَظُنُّ أَحِبَّاهُ بِاللَّيْلِ ، فَيَظُنُّ بِذَلِكَ الْكَرَى
عَنْ جَفْوَنِهِ . كَالْبَحْتَرَى حِينَ يَقُولُ

أُمُومَةً بِالْبَيْنِ رَبٌّ تَفَرَّقَ * جَرَحَتْ بِهِ قَلْبًا بِحُبِّكَ مَوْلَا
وَلَى لَوْعَةٍ تُسْتَغْرَقُ الْمَجْرُ وَالنَّوَى * جَمِيعًا وَحُبٌّ يُنْفِدُ الدَّمْعَ أَجْمَا
عَلَى أَنَّ قَلْبِي قَدْ تَصَدَّعَ شَمْلُهُ * فَتَوْنَا لَشَمْلِ الْبَيْضِ حِينَ تَصْدَعَا
ظُعَائِنِ أَظُنُّ الْكَرَى عَنْ جَفْوَنَا * وَعَوَضْنَا مِنْهُ سَهَادًا وَأَذْمَعَا
نَوِينِ النَّوَى ثُمَّ اسْتَجَبْنَا لَهَا نَفِ * مِنَ الْبَيْنِ نَادَى بِالْفِرَاقِ فَأَسْمَعَا
وَحَاوَلْنَا كَتْمَانَ التَّرْحَلِ بِالْأَجَى * فَمِنْ بَيْنِ الْمَسْكِ حِينَ تَضُوعَا

وقد يفزع الحب الى تحكيم العدل والحق ، حين تطول لياليه .
كقول ابن الرومي

أيا شمسَ النهار سنا وعِزًّا * يُقَصِّرُ عنهما نظرٌ ولمسٌ
أَحِلُّ أن تنامي عن سُهادي * ولي مذبذبٌ عني النومُ خمسٌ
أُمِيزُ كلَّ شَيْءٍ من أُمُوري * سوى أُمُري لَدَيْكَ ففِيهِ لَبْسٌ
غَرَسْتُ هَوًى فَرِيئَةً بِحَفْظِ * فليس يُرَبُّ بالتَضْيِيعِ غَرَسٌ
ومن الشمرَاء من يَتَفَنُّ في وصف الليل فيذكر أن نجومه أَقْسَمَتْ
لَا تَزُولُ . كقول أَحَدِهِم :

أَلَا هَلْ عَلَى الليلِ الطويلِ مُعِينٌ * إِذَا تَرَحَّتْ دَارٌ وَحَنَ حَزِينٌ
أَكْبَدَ هَذَا الليلِ حَتَّى كَأَنَّمَا * عَلَى نَجْمِهِ أَنْ لَا يَفُورَ يَمِينٌ
وَوَاللَّهِ مَا فَارَقْتِكُمْ قَالِيًّا لَكُمْ * وَلَكِنْ مَا يُقْضَى فَسَوْفَ يَكُونُ
وَمَنْهُمْ مَنْ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَوْقَهُ إِلَى تَمْزِيقِ سَرَائِلِ الليلِ ، وظهور
تَبَاشِيرِ الصَّبْحِ ، كقول حُندَجِ بْنِ حُندَجٍ :

فِي لَيْلِ صَوْلِ تَنَاهَى العَرَضُ وَالطَوِيلُ * كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بِاللَّيْلِ مُوَصُولُ
لَا فَارَقَ الصَّبْحُ كَفَى إِنْ ظَفَرْتُ بِهِ * وَإِنْ بَدَتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ
لِسَاهِرٍ طَالَ فِي صَوْلٍ تَمَلُّهُ * كَأَنَّهُ حَيَّةٌ بِالسَّوْطِ مَقْتُولُ
مَتَى أَرَى الصَّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَخَائِلُهُ * وَاللَّيْلُ قَدْ مُزِقَتْ عَنْهُ السَّرَائِلُ
لَيْلٌ تَحْيِرُ مَا يَنْحَطُّ فِي جِهَةٍ * كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مَشْكُولُ
نَجْمُهُ رُكْدٌ لَيْسَتْ بِزَائِلَةٍ * كَأَنَّمَا هُنَّ فِي الْجَوِّ الْقَنَادِيلُ

ما أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِي عَلَى شَحَطَ * مِنْ دَارِهِ الْحَزْنَ مِنْ دَارِهِ صَوْل
الله يطوى بساط الأرض بينهما * حتى يُرَى الرِّيع منه وهو مأهول
نعم وما أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِي عَلَى النَّوَى مِنْ دَارِهِ سِنْتَرِيسَ مِنْ
دَارِهِ أُسَيُوطَ

لَوَدِدْتُ إِذْ سَكَنْتُ هُنَاكَ دَارَهُمْ * وَعَدْتُهُمْ عَنَّا أُمُورَ تَشْغَلُ
أَنَا نَطَاعُ إِذْنٍ فَتُنْقَلُ أَرْضُنَا * أَوْ أَنَّ أَرْضَهُمْ إِلَيْنَا تُنْقَلُ

وقد شبه ابن الرومي نجوم الليل بنجوم الشيب حين قال :

رُبَّ لَيْلٍ كَأَنَّ الدَّهْرَ طَوَّلَا * قَدْ تَنَاهَى فُلَيْسَ فِيهِ مَزِيدُ

ذِي نَجُومٍ كَأَنَّهُنَّ الشَّيْبُ لَيْسَتْ تَزُولُ لَكِنْ تَزِيدُ

قال أبو بكر الوليد بن البراز : كان علي بن الجهم يستنشدني كثيرا
شعر خالد الكاتب فأنشده فيقول : ما صنع شيئا . ثم أنشدته يوما قوله :

رَقَدْتُ وَلَمْ تَرَثِ لِلْسَاهِرِ * وَلَيْلُ الْحُبِّ بِلَا آخِرِ

ولم تدر بعد ذهاب الرُّقَا * دِ مَا صَنَعَ الدَّمْعُ بِالنَّاظِرِ

فقال : قَاتَلَهُ اللَّهُ ! لَقَدْ أَذْمَنَ الرَّمِيَةَ حَتَّى أَصَابَ الْغُرَّةَ ! وجمال هذا
الشعر يرجع الى شكوى الحب ما صنع الدمع بناظره بعد جفوة النوم .
ومثله قول أبي المتاهية :

أَمْسَى بِيغْدَادَ ظَنِي أُسْتُ أَذْكُرُهُ * إِلَّا بِكَيْتُ إِذَا مَا ذَكَرَهُ خَطَرَا

إِنْ الْحُبُّ إِذَا شَطَّتْ مَنَازِلُهُ * عَنْ الْحَيِّبِ بَكَى أَوْ حَنَّ أَوْ ذَكَرَا

يَأْزُبُ لَيْلَ طَوِيلٍ بَتٌ أَرْقُبُهُ * حَتَّى أَصْنَاءُ عُمُودِ الصَّبْحِ فَانْفَجَرَا

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ إِلَّا مَذْعَرَفَتَكُمْ * أَنْ الْمَضَاجِعَ مِمَّا يُنْبِتُ الْإِبْرَا

والليل أطول من يوم الحساب على * عين الشجى إذا ماؤمته نَفَرَا
ومن المحبين من يخاطب الليل . فيذكر في خطابه أن بعض مابه
كافٍ لمحو الليل لو عَرَضَ له . كقول سعيد بن حميد :

يا ليل بل يا أَبَدُ * أَنَا نَمُّ عَنْكَ غَدُ
يا ليلُ لو تَلَقَى الَّذِي * أَلْقَى بِهَا أَوْ تَجِدُ
قَصْرَ مَنْ طَوَّلَكَ أَوْ * ضَعْفَ مَنْكَ الْجَلَدُ
أَشْكُو إِلَى ظِلْمَةٍ * تَشْكُو الَّذِي لَا تَجِدُ
وَقَفْتُ عَلَيْهَا نَاطِرِي * وَقَفْتُ عَلَيْهَا السَّهْدُ

وأود لو تنبه القارئ إلى حسن هذا البيت :
أَشْكُو إِلَى ظِلْمَةٍ * تَشْكُو الَّذِي لَا تَجِدُ
وقد ذكر الفرزدق العلة في طول الليل فقال :

يقولون طال الليلُ والليل لم يطل * ولكن من يبكي من الشوق يسهرُ
وقد تابعه بشار في هذا المعنى فقال :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمَ * وَنَفَى عَنِ الْكَرَى طَيْفٌ أَلَمْ
وإذا قلت لها جودي لنا * خَرَجَتْ بِالصَّبْتِ عَنْ لَانِمْ
نَفْسِي يَا عَبْدَ غِي وَأَعْلَى * أَنَّنِي يَا عَبْدَ مَنْ لَحِمٍ وَدَمٍ
إِنْ فِي بُرْدِي جَسَمًا نَاحِلًا * لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَا نَهْدَمُ

وقد ردَّد هذا المعنى في كلمة ثانية فقال :

طال هذا الليل بل طال السهر * ولقد أعرِفَ لَيْلِي بِالْفَصْرِ
لم يطل حتى جفاني شادن * ناعم الأطراف فتان النظر

لِي فِي قَلْبِي مِنْهُ لَوْعَةٌ * مَلَكْتُ قَلْبِي وَصَمَّمِي وَالْبَصْرَ
وَكَانَ الْهَمُّ شَخْصٌ مَائِلٌ * كَلَّمَا أَبْصَرَهُ النَّوْمُ نَقَرَ
عَلَى أَنْ بَشَارًا يَتَخَطَّى هَذَا الْحَدَّ، فَيَجَارِي الشَّعْرَاءَ، وَيَحْسِبُ أَنْ لَيْسَ
لِلَّيْلِ نَهَارٌ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ :

أَقُولُ وَلَيْتِي تَزْدَادُ طَوْلًا * أَمَّا لِلَّيْلِ بَعْدُ نَهَارٌ
جَفَتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيزِ حَتَّى * كَأَنَّ جُفُوهَا عَنْهَا قِصَارُ
وَلَيْسَ لِلْبَيْتِ الثَّانِي قِيَمَةٌ مِنَ الْوَجْهِ الْأَدْبِيَّةِ، لِأَنَّ الْغَمْضَ لَا يَجْفُو
الْعَيُونَ، لِقَصْرِ الْجُفُونِ، كَمَا يَقُولُ . وَإِنَّمَا يَجْفُوهَا لثَوْرَةِ الْوَجْدِ،
وَهَجْمَةِ الْأَشْجَانِ :

وَيَقُولُ فِي كَلِمَةٍ ثَانِيَةٍ :
خَلِيلِي مَا بَالَ الدَّجَى لَا تَزْحَرْحُ * وَمَا لَعَمُودُ الصَّبْحِ لَا يَتَوَضَّحُ
أَصْلُ النَّهَارِ الْمُسْتَتِيرِ طَرِيقَهُ * أُمُّ الدَّهْرِ لَيْلٌ كُلُّهَا لَيْسَ يَبْرَحُ
وَطَالَ عَلَى اللَّيْلِ حَتَّى كَأَنَّهُ * بِلَيْلَيْنِ مُوَصُولٌ فَاتَزْحَرْحُ
وَالْبَيْتُ الْآخِرُ يَذْكُرُنِي بِقَوْلِ صَاحِبِ الْبِدَائِعِ :
وَجَنٌّ عَلَى اللَّيْلِ حَتَّى حَسِبْتُهُ * جَفَاءَ كَرِيمٍ أَوْ رَجَاءَ لَيْثِمٍ
وَإِنْ كَانَ هَذَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ ظِلَامِ اللَّيْلِ، لِأَنَّ طَوْلَهُ
وَتَرَوُّقِي الْبَسَاطَةِ فِي قَوْلِ سُوَيْدِ بْنِ أَبِي كَاهِلٍ

وَإِذَا مَاقَلْتُ لَيْلٌ قَدْ مَضَى * عَطَفَ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَرَجَعُ
يَسْحَبُ اللَّيْلُ نَجْمًا ظُلُمًا * فَتَوَالِيهَا بَطِيشَاتُ التَّبَعِ
وَالْخِيَالُ هُنَا خِيَالُ بَادِيَةٍ . وَلَكِنَّهُ فِي بَدَاوَتِهِ بَدِيعٌ . وَقَوْلُ الْآخَرِ

ساوا مضجعي هل قرّ من بعد بُدكم * وهل عرفت طعم الرقاد جفوني
سهرنا بنعمانٍ ونغم بيابلٍ * فيا لعيونٍ ما وقت لعيونٍ
وهو يدكرني بقول بعض الأعراب :

لعمري لئن كنتم على النأي والغنى * بكم مثل ما بي إنكم لصديق
فأذقت طعم النوم منذ هجرتكم * ولا ساغ لي بين الجوانح ريق
إذا زفرات الحب صعدن في الحشا * كرّرن فلم يُعلم لهنّ طريق
ومما جمع بين الشكوى من ليل الفراق ، وذكرى ليل الوصال
قول عبد الرحمن بن هشام

طال عمر الليل عندي * مذ تولمت بصدى
ياغزّالا نقض العهد * ولم يوف بوعد
أنسيت العهد اذبتنا على مفرّش ورد
واجتمعنا في وشاح * وانتظمتنا نظم عقد
ونجوم الليل تحكى * ذهباً في لازورد
ومن الشعراء من لا يبالي طول الليل في غيبة الحبيب ، كقول
ابن زيدون

يا ليل طُلّ لا أشتي * إلّا لعهدى قصرَك
لوبات عندي قمرى * ما بت أدرى قرك
وليالي القمر في سنترس عذبة المذاق ، شبيهة الورود ، وما
أحسب المصريين عیدوا النيل إلّا حين رأوه يداعب القمر في ضواحي
سنترس ، ذات الظلال والأفنان

ليالى النيل واللذات ذاهبة * وجدى عليك أشجاني فأضناني
لو يرجع الدهر لى منكن واحدة * فى ستريس ويذني بعض خلاني
إذن تبين دهرى كيف يرمنى * من ظلم همى ومن عدوان أحزاني
وقد أجاد شعراء العصر وصف الأرق فى الليل الطويل . فن

ذلك قول شوقي

بدأ الطيف بالجميل وزارا * يارسول الرضا وقيت العثارا
خذ من الجفن والفؤاد سيلا * وتيمم من السويداء دارا
أنت إن بت فى الجفون فأهل * عادة النور ينزل الابصارا
زار والحرب يزجفى ونوى * قد أعد الدجى لها أوزارا
سألتني عن النهار جفوني * رجم الله يا جفوني النهارا
قلن تبكيه قلت هاتى دموعا * قلن صبرا قلت هاتى اصطبارا
يا لىلى لم أجدر طوالا * بعد لىلى ولم أجدر قصارا
إن من يحمل الخطوب كبارا * لا يبالى بحملهن صبارا
لم نفع منك يا زمان فنشكو * مذمن الخريس يشكوا الخمارا

وقال حافظ :

سكن الظلام وبات قلبك مخفق * وسطا على جنبيك ثم مُقلق
حار الفراش وحرّت فيه فأنما * تحت الظلام معذب ومؤرق
درج الزمان وأنت مفقود المنى * ومضى الشباب وأنت ساهٍ مطرق

وقال القبايات :

جن الظلام فايزاح * ياويلتا أين الصباح

ليلٌ كأنَّ نجومه * يطلعن في كبدى جراح
يا من أتاح لى الأسى * برَّدُ الفؤاد منى بتاح
قلبٌ أساه لاجعٌ * لولا تحبُّه لفاح
مابال دمعى يُستبى * حٌ وحاجنى ليست تباح

وقال العقاد يخاطب الليل

طويت أزيمة الأجساد مناً * فدانت وانطوت عنك القلوبُ
فما تدرى أتكسكن حين مالت * إلى تلك المضاجع أم تجوب
وما تدرى أباتت في جحيم * أم الجنات مرتعها الخصبُ
وما تدرى أيسمع في دجائها * هتافٌ للبلابل أم نعيب
عقدت من الكرى وطنك رفيقاً * وكل مسهدٍ فيه غريب
تضيق به الوسائد والحشايا * وتلفظه المسالك والدروب
وحيدٌ لا يقاربه بعيدٌ * ولا يدرى بلوغته القريبُ
فيا وطن النيام بكل فجٍّ * أمن حرج بك السهد المرعبُ
ويا سكناً الأحياء والأعادي * أليس بساحليك لنا نصيب
ويا دار السلام بأى سدٍّ * يصد الطرف مربعك الرحيب
لئن هجمت بساحتك المآقى * لما هجمت بساحتك الخطوب
كأن جموعهن سباع ليلٍ * تبيت على فرائسها تلوب
فهل عند الظلام لنا حديث * يحاذر أن يُلمَّ به رقيبُ
أم أدخر الظلام لنا متاعاً * يضمن بلمحه الحلم الكذوب
سهرنا يا ظلام فلم يصبنا * على طول المدى إلا الشحوب

وإلا حُسْكَةً فيها تلاق * سواد القلب والطرف الكثيب
والعقاد يكثر في شعره من تشكوى الليل الطويل ، وقد يُشجيك
حين ينظر إلى نفسه فيحسبها من اليأس أمست وهي خراب ينعب
على اطلالها اليوم . وأنظر كيف يقول :

وناعية صاحت ولَّيل هجمة * فقال علامَ اليومُ ينعبه ناعيا
لَقُبِّحت من عِباءَ تقرأ في الدجى * إذا أسودَّ أسطار الخراب الخوافيا
فقلتُ على النفس التي سوف تفتدى * طولاً بأخناء الضلوع حوانيا
تجوسُ أفاعي الحزن في جنباتها * وياربما تُؤوى الضلوعُ الأفاعيا
فلا تحسبنَ اليومَ نعى المغانيا * فقد تندب اليوم النفوس البواليا
وكم وحشةً للنفس يخشى اقتحامها * أخو غمراتٍ ليس يخشى الفيافيا
وما أجل قوله في هذه القصيدة

ولما تقضى الليل إلا أقله * وحان التناهى جشتُ بالدمع باكيا
فأقبل يرمانى ويبيكى وربما * بكى الطفل الباكي وإن كان لا هيا
وزحزحني عنه بكف رقيقة * وأسبل أهداب الجفون السواجيا
يقول لقد ران الكرى وتفرقت * نجوم الدجى والديك أصبح داعيا
فقلتُ وكم من ليلةٍ إثر ليلةٍ * سهرتُ وقد أمسيت وحدك غافيا
فهبْ لوداعى من رقادك ليلةً * تمرُّ فاني قد وهبتُ حيانيا
وأسلمتُ كفى كفه فأعادها * وقلبي ! فهلا أرجع القلب ثانياً ؟

الطبيعة في أنفس الشعراء

لقد أكثر شعراء الغرب من الحديث عن الطبيعة ، حتى لتحسب أن ذلك سمة من سماتهم ، لا يشاركون فيها أحد من العالمين وزيد أن نبين في هذه الكلمة أن شعراء العرب وردوا هذا المثل ، وتقعوا صدامهم بمائه العذب القرات ، فإن الطبيعة ملك للجميع العيون ، في جميع الأقطار . والشعور بها ، والجنوح إليها ، من حاجات الفطرة ، التي تسوّى بين مختلف الشعوب ، والتي تجمع حولها شتى العواطف والاهواء

ونحن نعلم أن شعراء الغرب أكثروا من وصف السحاب : إذ كانت بلادهم غزيرة المطر ، واذ كانت آذانهم ، وأبصارهم ، أليفة لدوى الرعد . ولمع البرق . على أن شعراء العرب لم يقصروا في هذا الباب . ويمكن أن نذكر قول البحري يصف سحابة :

ذات أرتجازٍ بحنين الرعدِ * مجرورةٌ الذيل صدوق الوعدِ
مسفوحة الدمع لغير وجدٍ * لها نسيمٌ كنسيم الوردِ
ورنةٌ مثل زفير الأسدِ * ولمع برقٌ كسيوف الهندِ
جاءت بهاريج الصبا من نجدٍ * فانتثرت مثل انتشار القندِ
فراحت الأرض بعيش رغدٍ * من وثى أنوار الربى في بُردِ
كأنما غدرانها في الوهدِ * يلعبن من حبايبها بالبردِ

ومن أظهر الدلائل على سكون العرب الى الطبيعة ، وإخلاصهم

الى مواردھا الشبهة أنهم يقرنون الحنين الى معاهدھم بالدعاء لها بالسقيا
وترواح النسمات . واليك قول الشريف :

أمعاهد الأجباب هل عودت الى * مغدئ تبث به الجوى ومراح
يكفيك من أنفاسنا ودموعنا * أن تُمطري من بعدنا وتراحي
غلب عيش فيك رق نسيمة * كالماء رق على جنوب بطاح
وتفزل كصبا الأصائل أيقظت * ريا خزامى باللوى وأقاج
كم فيك من صاحي الشماثل مُنتش * بالدل أو مرضى العيون صِحاح
فسق اللوى صوب النيام ودره * وسقى النوازل فيه صوب الراح
وقد يقوى شعورهم « بشخصية » الطبيعة ، حتى ليخاطبون الفلك
الدائر ، وينذرونه بالفناء ! انظر قول البحترى :

أناة أبها الفلك المداير * أنهب ما تصرف أم جبار
ستفنى مثل ما تُفنى وتبلى * كما تبلى فيدرك منك نار
ثياب النائبات اذا تنامت * ويدمر في تصرفه الدمار
وما أهل المنازل غير ركب * مطاياهم رواح وأبتكار
وانظر قول أبي القاسم ابن هاني :

تفنى النجوم الزهر طالمة * والنيران الشمس والقمر
ولئن تبدت في مطالعها * منظومة فلسوف تنتثر
ولئن سعى الفلك المدايرها * فلسوف يسلمها وينفطر
وانظر قول العتّابي في وداع جارية له :

ما غناه الحذار والاء شفاق * وشآيب دمعك المهرق

ليس يقوي الفؤاد منك على الوجود ولا مقلتا طليح المآقي
غدرات الأيام منزعاة * ماجنينا من طول هذا العناق
إن قضى الله أن يكون تلاقٍ * بعد ما تنظرين كان تلاقٍ
هوئي ماعليك وأقنى حياء * لست تبقين لي ولست يباقي
أينما قدمت صروف المنايا * فالذي أخرت سريع اللحاق
غر من ظن أن تفوت المنايا * وعراها فلائد الأعناق
كم صفيين متعا باتفاق * ثم صارا لغربة وأفراق
قلت للفرقين والليل ملق * سود أكتافه على الآفاق
أبقيا مابقيتا سوف يرمى * بين شخصيكما بسهم الفراق
وانما قلت «شخصية الطبيعة» لأدل القارى على مبلغ ماسما اليه
العرب حين كلفوا بالنظر الى الوجود... وانظر قول الحسن بن وهب
في وصف النار وقد نفرت منها إحدى الجوارى الحسان :

بأبي كرهت النار حتى أبعدت * فعلمت مامعناك في إبعادها
هي صرة لك في ألتام ضيائها * ومهبوب نفحتها لدى إيقادها
وأرى صنيعك في القلوب صنيعها * بسيالها وأراكما وعدادها
شركتك في كل الأمور بفعلها * وضيائها وصلاحتها وفسادها

ولينظر القارى نظرة خاصة الى قول علي بن شعيب

انزعى الوشى فهو يستر حسنا * لم تحزه برقهن الثياب
ودعيني عسى أقبل ثغراً * لذ فيه اللى وطاب الرضاب
وعجيب أن تهجرتي ظلماً * وشفيعي الى صباك الشباب

فأنا نجده تخطّى كل الأسوار الصناعية التي يُحيط بها الشعراء أغراضهم ،
ثم هجم على المعنى وأخذ بتواصيه ، حيز قال « وشفيعى الى صباك
الشباب » ولم يقل : وشفيعى الى صباك حبي وهيامى ، ووجدى وغرامى ،
وخشوعى وخضوعى . الى آخر ما يقول المتيمون :

وانظر قول محمد البطليموس :

غصبوا الصباح فقسّموه خدودا * وأسْتَهَبُوا قُضْبَ الأَرَاك قُدودا
ورأوا حصا الياقوت دون محلهم * فاستبدلوا منه النجوم عقودا
وأستودعوا حدق المها أجفانهم * فسيبوا بهنّ ضارغماً واسودا
لم يكفهم حمل الأسنّة والظُّبا * حتّى أَسْتَعَانُوا أَعْيُنَا ونهودا
وتضافروا بضفائر أبدت لنا * ضوء النهار بليلها معقودا
صاغوا الثغور من الأقاليم بينها * ماء الحياء لوأغتندى مورودا
ويكاد هذا الشعر يكون عبادة للطبيعة ، ولن يغيب على أحد
ما فيه من سُمُوّ الخيال

وانظر كيف يكون كمون الحنف في الجفون ، وكمون الموت
في السيوف . فى قول السرى الرقّاء :

بنفسى من أجودله بنفسى * ويبخل بالتحية والسلام
ويلقانى بعزّة مستطيل * وألقاه بذلة مستهام
وحتنى كامن فى مُقاتلته * كمون الموت فى حد الحسام
ويجيد شعراء العرب حين يمزجون وصف الطبيعة بالمعاني الوجدانية

فكأنما يريدون أن يشركوا الوجود في نعيمهم وبؤسهم . وهذا في ذاته ملحظ بدیع . ولنتظر قول صرّدر :

يقول خليلي والطباء سوانح * أهذى التي تهوى؟ قللت نظيرها
لن أشبهت أجيادها وعيونها * لقد خالفت أعجازها وصدورها
فيأعجباً منها يصدّ أنيسها * ويدنو على دُعرِ الينا تفورُها
وماذاك إلا أن غزلان عامر * يثّقن بأن الزائرين صقورُها
ووالله ما أدرى غداةً نظرتنا * أثلك سهام أم كؤس تدبرها
فان كن من نبل فأين حفيفها * وإن كن من خمر فأين سرورها
أيأصاحبي استأذنا لي خمرها * فقد أذنت لي في الوصال خدورها
هباهما تجافت عن خليل بروءها * فهل أنا الا كالخيال يزورها
وقد قلنا لي ليس في الأرض جنة * أما هذه فوق الركائب حورها
فلا تحسبي قلبي طليقاً فأنما * له الصدر سجن وهو فيه أسيرها
أراك الحى قل لي بأى وسيلة * وصلت الى أن صادفتك ثفورها
وان فروع البان من أرض يشة * حبيب إلى ظلها وحرورُها
ألد من الورد الجنى عرارُها * وأحلى من الشهد المصفى بربرها
على رسلكم في الحب إنا عصابة * إذا ظفرت في الحب عف ضميرها
ولسنا بصدّ الموازنة بين شعراء الغرب والشرق في النظر الى
الطبيعة ، فان هذا باب طويل . وانما نشير فقط الى أن الناس سواء
في الإحساس بمظاهر الوجود . وانما يختلفون في طرائق التعبير ،
وأساليب البيان :

مداراة الرقباء

للعشاق أساليب مختلفة في معاملة الرقباء والوشاة . فمنهم من يداريهم ويرصد غفلتهم . كقول ابن المعتز :

أرد الطرف من حَذَرِي عليه * وأمنحه التجنبَ والصدودا
وأرصد غفلة الرقباء عنه * لنسرق مقلّي نظراً جديداً
وكقول السرى الرقاء :

ونواظر وجد المحب فتورها * لما أَسْتَقِلَّ الحِيَّ في أَعْضائه
ما كان هذا البين أول جرة * أذكت لهيب الشوق في أحشائه
لولا مساعدة الدموع ودفعها * خوف الفراق أتى على حوالبه^(١)
وأنا الفداء لمن تحبته برقه * حظى وحظ سوى من أنوائه
فمر إذا ما الوثن صين أذاله * كما يصون بهاء بدهائه^(٢)
خفر الشمائل لو ملكت عناقهُ * يوم الوداع وهبته لحياته
ضعفت معاهد خصره وعهوده * فكان عقد الخضر عقد وفائه
أدنو إلى الرقباء لا من جهم * وأصد عنه وليس من بغضائه
وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن كعب العُمَيْرِي :

أيا نَحْلاً مَرَّانَ هل لي اليك * على غفلات الكاشحين سبيلُ
أُمنيكِ نفسى إذا كنت خالياً * ونفمكِ إلّا العناء قليل
ومالى شيء منك غير أتى * أُمى الصدى ظليكِ فأطيل

(١) الحوالب : النفس (٢) أذاله : أمانه

ومن المتيمين من يرجو من محبيه مقارعة الوشاة . كقول أحد الشعراء :

تبدل هذا السدر أهلا وليتنى * أرى السدر بعدى كيف كان بدائله
وعهدى به عذب الجنى ناعم الذرى * تطيب وتندى بالعشى أصائله
فسا لك من سدر ونحن نجبه * اذا ما وشى الواشى بنا لا تجادله
كما لو وشى بالسدر واش رددته * كئيباً ولم تصلح لدينا شمائله
وكقول كثير :

فيا عزّ إن واش وشى بى عندكم * فلا تكرميه أن تقولى له أهلا
كما لو وشى واش بركة عندنا * لقلنا : تزحزح لا قريباً ولا سهلاً
وقد يُعنى المحب بتكذيب الوشاة ، فيما ادّعى من سلوانه ، كقول
أبي حية النيرى

وخبرك الواشون أن لن أحبكم * بلى وستور الله ذات المحارم
وإن دماً لو تعلمين جنيته * على الحى جاني مثله غير سالم
أصدّ وما الصد الذى تعلمينه * عزاء بنا إلا ابتلاع العلاقم
حياء وتقياً أن تشيع نيمته * بنا وبكم ، أفى لأهل المنام
ومن المعذيين من يشجيه أن لا ينفع العذل عنده ، فى حين أن
من يهواه ياتمر بأمر الوشاة . ويسمع نصيح اللاتمين
فن ذلك قول الأبيوردى :

رمتنى بسهم راشه الكحل بالردى * وأقتل أخطأ الملاح كحيلها
مريضة أرجاء الجفون وانما * أصح عيون الغايات عليها

فولت وقد أبقت بقلبي علاقة * تر بها الأيام وهي مقلها
 وقلت لأدنى صاحبي وقد وثى * بسرّي دمعى إذ تراءت حوّلها
 ذر اللوم إنى لست أريعك مسمعي * فتلك هوى نفسى وأنت خليلها
 وليت لساناً أرهف العذل غربه * على الصبّ مغلول الشبابة خليلها
 أردّ عذولى وهو يحضنى الهوى * بغيظٍ ، ويحظى بالقبول عذولها
 ويمتادني ذكر العميق وأهله * بحيث الحمام الورق شادٍ هديلها
 تنوح وتبكي فوق أفنان أيكى * فدهان من أرض العراق نخيلها
 ولولا تباريح الصبابة لم أبل * بكها ولا أذرى دموعى عويلها
 ومن بديع الشعر فى مدافعة الوشاة ، قول الرصافي الاندلسي
 فى غلام حائك :

قالوا وقد أكثروا فى حبه عدلى * لو لم تهم بمذال القدر مبتذل
 فقلت لو كان أمرى فى الصبابة لى * لأخترت ذاك ولكن ليس ذلك لى
 علقتُه حبيبي الثغر طاره * حلوا لى ساحر الاجفان والمقل
 غزبل لم تزل فى الغزل جائلة * بنائه جولان الفكر فى الغزل
 جزلان تلعب بالحواك أنمله * على السدى لعب الأيام بالأجل
 ضمّاً بكفيه أو خصماً بأخصمه * تخبط الطي فى أشراك تحبيل
 وأحب لو تأمل القارىء هذه (الصورة الشعرية) التى تمثل هذا
 الحائك الجميل . بالطي يتخبط فى الأشراك . وإنها لوثة من وثبات
 الخيال :

بجمل الحسان

نذكر هنا طرفاً مما قال الشعراء في بجمل الحسان : وكل حسناء
بجيلة ، وكل جميل صني : وأشهر الشعر في هذا المعنى قول ميار :
يألواة الدين عن ميسرة * والبيخلات وما كنّ لثاماً
حملوا ربح الصبا نشركم * قبل أن تحمل شيعاً وخزامى
وأبعثوا إلى في الكرى طيفكم * إن أذنتم لجفوني أن تناما
ويجمل بنا أن نذكر قصيدة كثير التائية ، ففيها صورة شعرية
لصدق اللوعة ، عند بجمل الحبيب . وهي فوق ذلك غرة من غرر الآداب
العربية . قال :

خليلى هذا ربيع عزة فأعقلا * فلو صيكتهم أبكيا حيث حلت
وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا * ولا موجعات القلب حتى تولت
فقد حلفت بهذا بما نخرت له * قرّيش غداة المأزمين وصلت
أناديك ما حج الحبيب وكبرت * بفيضا غزال رقيقة وأهلت
وكانت لقطع الجبل بيني وبينها * كنانة نذراً فأوفت وحلت
فقلت لها يا عز كل مصيبة * اذا وطئت يوماً لها النفس ذلت^(١)
ولم يلق إنسان من الحب ميمة * نعم ولا غمّاء الاتجلت^(٢)
كأنى أنادى صخرة حيز أعرضت * من الصم لو تمشى بها العضم زلت^(٣)

(١) ذلت : ماتت (٢) الميمة والغمّاء : الشدة . وتجلت : انصرفت (٣) الدمع : جمع أعصم
وهو من الظباء والوصول ما في ذراعيه أو أحدهما يابض وسائرهما أسود أو أحمر . وزلت : زلقت

صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة * فمن مل منها ذلك الوصل ملّت^(١)
أباحث حتى لم يرعه الناس قبلها * وحلت تلاعاً لم تكن قبل حلت^(٢)
فليت قلوصى عند عزة قيّدت * بحبل ضعيف غرّ منها فضلت
وغودر في الحى المقيمين رحلها * وكان لها باغٍ سوى قبلت^(٣)
وكنت كذى رجلين رجل صحيحة * ورجل رمى فيها الزمان فشلت
وكنت كذات الطلع لما نحاملت * على ظلمها بعد العثار استقلت^(٤)
أريد الثواء عندها وأظنها * اذا ما أطلنا عندها المكث ملت
فا أنصفت أما النساء فبغضت * إلى وأما بالنوال فضنت
يكلّفها الغيران شتى وما بها * هوانى ولكن للعليك استذلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر * لعزة من أعراضنا ما استحلّت
فوائده ما قاربت إلا تباعدت * بصريح ولا أكرت إلا أقلت
فان تكن العنبي فأهلاً ومرحباً * وحقّت لها العنبي لدينا وقلّت^(٥)
وإن تكن الأخرى فان وراءنا * منادح لو سارت بها العيس كلّت^(٦)
فلا يبعدن وصل لعزة أصبحت * بعافية أسبابه قد تولّت
أسيئى بنا أو أحسنى لاملومه * لدينا ولا مقلية إن تقلّت^(٧)
ولكن أنيلي وأذكرى من مودة * لناخلة كانت لديكم فطلّت
فانى وإن صدّت لمن وصادق * عليها بما كانت إلينا أزلّت^(٨)

(١) صفوح : ممرضة (٢) التلاع : جمع تلة وهى ما ارتفع من الارض (٣) بكت المطية : ضلت (٤) طلع البير : غمز في مشيه . واستقل : نهض من عثرته (٥) المتى والاعتاب : الترضية (٦) المنادح : جمع مندوحة وهى ما اتسع من الارض (٧) تقلّت : ظهرت بالقلى وهو البنض . ومقلية : مبنوذة (٨) أزلّت : أسدت

فأنا بالادعى لعزة بالجوى * ولا شامتٌ بن نملٍ عزة ذلتُ
فلا يحسب الواشون أن صبايتي * بعزة كانت غمرة فتجلتُ
فأصبحت قد أبللت من دنفٍ بها * كالأذنف هيماء ثم أمتلت^(١)
فوالله ثم الله ما حلّ قبلها * ولا بعدها من خلةٍ حيث حلت
وما مرّ من يومٍ على كيومها * وإن عظمّت أيام أخرى وجلت
وأضحت بأعلى شاهقٍ من فؤاده * فلا القلب يسلوها ولا العيز ملّت
فيا عجباً للقلب كيف أعترفه * وللنفس لما وطئت كيف ذلت^(٢)
واني وهيامي بعزة بعدما * تخليت عما بيننا وتخلت
لكل منجى ظل الغمامة كلها * تبوأ منها للعقيل أضمحلت
كأنى وإياها سحابة ممحل * رجاها فلما جاوزته استهلّت^(٣)
فإن سأل الواشون فيم هجرتها * فقل نفسٌ حرّسّلت قستلّت^(٤)
ومن الشعراء من ينص على أن شحّ الحسان سماحة ، كالهامي
حين يقول :

ماتت لفقد الطاعنين ديارهم * فكأنهم كانوا بها أرواحاً
ولقد عهدت بها فهل أدبته * مغدّى لمنتجع الصبي ومراحا
بالتأفكات النافذات نواظراً * والنافذين أمانةً وصفاحاً

(١) أبل من مرش برى منه . والدنف المرض . والهيماء : للريضة بالهيم وهو داء يصيب
الابل فلا تصبر عن الماء . (٢) الاعتراف : الاصطبار . وذلك : رضيت (٣) ممحل : أساء .
المحل وهو القحط (٤) تلك هي تالية كثير . ولقد كان بها جدّ مفقود . حق أنه سئل :
أنت أشمر أم جيل ؟ فقال : بل أنا . قتل له : أقول هذا وأنت راوٍ ؟ فقال : جيل يقول :
ويأفقه في عيني بنية بالقدي * وفي النمر من أياها بالقوادح
وأنا أقول :

هنيئاً مريئاً غير داء عظام * لعزة من أعراسنا ما استعطت

وأرى العيون ولا كأعين عامر * قدراً مع القدر المتاح متاحا
متوارثي مرض الجفون وانما * مرض الجفون بأن يكن صحاحا
من كان يكاف بالأهله فايزر * ولدى هلال رغبة وبراحا
لا عيب فيهم غير شح نسائهم * ومن الساحة أن يكن شحاحا
طرقته في أثرابها نجت له * وهن من الفرر الصباح صباحا
أبرزن من تلك العيون أسنة * وهزن من تلك القدود رماحا
ياحبذا ذاك السلاح وحبذا * وقت يكون الحسن فيه سلاحا
ويأسى ابن التعاويذي على أن يرجو عطف البخيلة ، وهو جواد
الكف . وذلك قوله :

نأيت فحزمت الجفون على الكرى * وأغريت دمع العين بالهملان
وأعهد قبل البين قلبي يطعني * ولكنه يوم الوداع عصاني
وما زال مطبوعاً على الصبر قليلاً * سواء بعداً عنده وتدان
فما باله يوم النوى سار منجداً * مع الركب في أسر الصباية حان
فليت طيباً أمرضتني جفونه * وفي يده منها الشفاء شفاني
وليت غريمي في الهوى وهو واجد * تخرج من ليانه فقضاني^(١)
ولولا الهوى يا آل خنساء لم يكن * ليلكني منكم خضيب بتان
ولا بت في آياتكم سائل فرى * بغير قنا أو طالباً لأمان
أرجى جواد الكف عطف بخيلة * وأخشى حديد القلب فتك جيان
وقبلك ما أنهضت عزمي لحاجة * فأدركتها إلا بمحد سينان

وأولى بمثل أن يكون مهاده * سرير حصان لاسرير حصان
وبأنف أن أقتضى بسوى الطي * ديونى إذا غير الحبيب لوانى

الامر للحب

ومن الشعراء من يتحدث عن صبره المغلوب ، ثم يجعل الأمر
كله للحب . كما أنشد احمد بن يحيى

من كان يزعم أن سيكتم حبه * حتى يشكك فيه فهو كذوب
الحب أغلب للفؤاد بقره * من أن يرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فانه * لم يبد إلا والفتى مغلوب
إنى لأبفض عاشقاً مستراً * لم تهمة أعين وقلوب
وفى هذا المعنى يقول الاقرع بن معاذ القشيري فى حبيبة غلبته

على قلبه ، وأستأثرت به من بين النساء

يقربعينى أن أرى ضوء مزنة * يمانية أو أن تهب جنوب
لقد شغفتنى أم بكر وبغضت * إلى نساء ما هن ذنوب
أراك من الضرب الذى يجمع الهوى * ودونك نسوان هن ضروب
وقد كنت قبل اليوم أحسب أنى * ذلول بأيام الفراق أديب

وقد وضح هذا المعنى كل الوضوح فى قول الضحاك

يقولون مجنون بسمراء مؤلم * ألا حبذا جن بنا وولوع
وانى لأخفى حب سمراء منهم * ويعلم قلبى أنه سيسيع

ولا خير في حبٍّ يُكَنُّ كَأَنَّهُ * شغافٌ أجتتهُ حسناً وضلوعُ
ومن العشاق من يخلع العذار ، لروعة الحسن في محبوبه ، وصولته
الحب في قلبه ، كقول عمارة اليمني :

ظبيُّه أعار الليل طرَّةَ شعره * وأمدَّ ضوء الصبح بالإشراق
وسنانُ ذاب السحر في آماقه * وأذاب ماء الروح من آماق
كتب الجمال على صحيفة خده * عذرَ الحبِّ وحجة المشتاق
ما كنت أدري يوم رؤيته وجهه * أن الخدود مصارع العشاق .
وأحب أن يتأمل القارئ جمال التصوير في قوله

وسنانُ ذاب السحر في آماقه * وأذاب ماء الروح من آماق
فقد جعل الدمع ذوب الروح ، وهو خيال بديع^(١) . وعذر الحب
الذي كتبه الجمال على خد المحبوب يذكرنا بقول بعض الظرفاء
يأملح الدلَّ والفنَّج * لك سلطانٌ على المهج
إن يبتأ أنت ما كنه * غير محتاج إلى السرج
وجهك المعشوق حجتنا * يوم يأتي الناس بالخبج .

(١) في كتاب البدائع رسالة ممتعة من دولة الحسن وعالم الجمال ، كتبها المؤلف في وصف ليلة
من ليالي الرقص في مصر الجديدة ، فليراجعها القارئ إن شاء

حمل السلام

للشعراء فنون مختلفة في نجوى الحبيب البعيد . فمنهم من يقصد الى غرس الرفق في قلوب أحبابه ، بوصف ما هو عليه من الخطر ، كقول الطغرائي :

ويا أيها الغادي تحمل رسالة * على ما بها إن الحديث طويل
وقل للأولى حلوا الحى سقى الحى * عزاءكم فالعامرى قتيل
ومنهم من يوصى الرسول بملاطفة المحبوب واستدراجه . وأظرف ما قيل من الشعر في هذا المعنى قول الواواء الممشق :

بالله ربكاً عوجاً على سكتى * وعاتباه لعل العتب يعطفه
وحدثاه وقولا في حديثكما * ما بال عبدك بالهجران تثلثه
فان تبسم قولاً في ملاطفة * ماضر لو بوصول منك تسعفه
وان بدالكما في وجهه غضب * فغالطاه وقولا ليس نعرفه
وهو مأخوذ من قول عمر بن أبى ربيعة في وصف قواده :

فأنتها طيبة طالة * تمزج الجدة مراداً باللعب
تُغلظ القول اذا لانت لها * وراخى عند سورات الغضب

قيل ان أبى عتيق قال لعمر لما سمع هذا الشعر : ما أحوج المسلمين الى خليفة يدبر أمورهم مثل قوادتك هذه ^(١) . ولعله تذكر قول معاوية : لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . قيل وكيف ذلك ؟

(١) في كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) تفاصيل ممتعة لبيت هذا الشاعر باللهاء

فقال اذا شدوا تراخيت ، وان تراخوا شددت !

وقد تطف البها زهير في وصية الرسول بقوله :

فيارسولى الى من لا أبوح به * إن المهمات فيها يعرف الرجل
بلغ سلامى وبالع في الخطاب له * وقبل الأرض عنى حينما تصل
بالله عرفة حلى إن خلوت به * ولا تطل فخيبي عنده ملل
وإنك لتضحك بملء فيك حين تتأمل قوله :

إن المهمات فيها يُعرف الرجل

فكأنما هي قيادة حرية ، لا قيادة غرامية !

ومنهم من يحمل النسيم نحياته الى من يهوى . كما قال بعض

الظرفاء :

فيانسيم الصبا أنت الرسول له * والله يعلم أنى منك غيران
بلغ سلامى الى من لا أكلمه * انى على ذلك الغضبان غضبان
لا يارسولى لا نذكر له غضبي * فذاك مَيّ تمويه وبهتان
وكيف أغضب لا والله لاغضب * انى لما رام من قتلى لفرحان
أكل يوم لنا رسل مرددة * وكل يوم لنا فى العتب ألوان
أستخدم الريح فى حمل السلام لكم * كأنما أنا فى عصرى سليمان
وقد ذكر أمين الدين بن عطايا السبب فى اختيار النسيم لحمل الرسالة

حين قال :

أنا أهوى غصن النقا وهو لاه * وفؤادى بحبه فى التيه
يانسيم الصبا ترفق عليه * وتلطف به ولا تؤذيه

وتحمل رسالة ليس إلا * لك أميناً في حملها أرتضيه
وإذا لم يكن رسولاً نسباً * نحو غصن النقا فن يثنيه
وأظهر من ذلك ما حكي أن ابن سعيد المغربي مشى مع جماعة من
أدباء المصريين وفيهم أبو الحسين الجزار . فروا في طريقهم بملج قائم
تحت شجرة ، فهبت الريح فكشفت ثيابه عنه . فقال الجزار : قفوا !
لينظم كل مناشئناً في هذا ! فقال ابن سعيد :

الريح أقود ما تكون لأنها * تبدى خفايا الردف والاعكان
وتميل بالأغصان عند هبوبها * حتى تقبل أوجه الغدران
ولذلك الأحباب يتخذونها * رسلا إلى الأحباب والأوطان
وهو شعر حسن . غير أنه لا وجه لذكر الأوطان في هذا الموطن
إذ لا علاقة لها بالقيادة . ولو قال الخللان أو الأخدان لكان أنسب
وأقرب إلى المراد . وقال ابن الخياط :

يأنس الصبا الولوع بوجدى * حبذا أنت لو مررت بهند
ولقد رابى شذاك فبالله منى عهده بأظلال نجد
ومنها من يوصى الركبان بحمل سلامه ، وتبلغ شكواه ، كقول
الشريف :

دعابو حاف السود من جانب الحمى * لديغ هوى لبئت حين دعانى
تعجب صحبى من بكائى وأنكروا * جوابى لما لم تسمع الأذنان
فقلت نعم لم تسمع الأذن دعوة * بلى إن قلبى سامع وجناتى
ويا أيها الركب اليانون خبروا * طليقاً بأعلى الخليف أنى عانى

عِدُوهُ لِقَائِي أَوْ عِدُونِي لِقَاءَهُ * أَلَا رُبَّمَا دَانَيْتَ غَيْرَ مَدَانٍ
وهذا شعر موجه ، يفرى القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، وأشجى
منه قول مهيار :

تَحَرَّشَ بِأَحْقَافِ اللَّوَى عَمْرَ سَاعَةٍ * وَلَوْلَا مَكَانُ الرِّيبِ قُلْتُ لَكَ أَزْدَدِ
وَقُلْ صَاحِبُ نَلِي ضَلَّ بِالرَّمْلِ قَلْبُهُ * لَعَلَّكَ أَنْ يَلْقَاكَ هَادٍ فَهَتْدَى
وَسَلَّمَ عَلَى مَاءٍ بِهِ بَرْدٌ تُغَاثَى * وَظِلٌّ أَرَاكَ كَانَ لِلْوَصْلِ مَوْعِدَى
وَقُلْ لِحَمَامِ الْبَاتِنِينَ مَهْتَكًا * تَغْنُ خَلِيًّا مِنْ غَرَامِي وَغَرْدِ
أَعْنَدَكُمْ يَا قَاتِلِينَ بَقِيَّةً * عَلَى مَهْجَةٍ إِنْ لَمْ تَمُتْ فَكَأَنَّ قَدْ
وَيَا أَهْلَ نَجْدٍ كَيْفَ بِالْفُورِ بَعْدَكُمْ * بَقَاءَ نِهَامِي يَسِيمُ يُنْجِدِ
مَا بَكُمْ عَزِيزًا رِقَّةً فَتَمَظَّفُوا * عَلَى مُنْكَرٍ لِلذَّلِّ لَمْ يَتَعَوَّدِ
وحدث أبو العباس محمد بن يزيد قال : خرجت مع الحسن بن رجاء
إلى فارس . فلهما صرنا إلى موضع يعرف بشعب بوأن رأيت على حائط
مكتوباً بخط جليل

إِذَا أَشْرَفَ الْمَكْرُوبُ مِنْ رَأْسِ تَلْعَةٍ * عَلَى شَعْبِ بُوَأْنٍ أَفَاقَ مِنَ الْكَرْبِ
وَأَهْلَاهُ بَطْنٌ كَالْحَرِيرَةِ مَسُهُ * وَمَطَرٌ دِيحْرَى مِنَ الْبَارِدِ الْعَذْبِ
وَطَيْبٌ ثَمَارٌ فِي دِيَاضِ أَرِيضَةٍ * وَأَغْصَانُ أَشْجَارِ جَنَاهَا عَلَى قَرَبِ
فِي اللَّهِ يَارِيجُ الْجَنُوبِ تَحْمَلِي * إِلَى شَعْبِ بُوَأْنٍ سَلَامٌ فَتَى صَبِّ
وَإِذَا نَحَتْ ذَلِكَ الْخَطَ الْجَلِيلُ بِخَطِّ أَدَقِّ مِنْهُ

ليت شعري عن الذين تركنا * خلفنا بالعراق هل يذكرونا
أَمْ لَمَلِ الْمَدَى تَطَاوَلَ حَتَّى * قَدَّمَ الْعَهْدَ يَتَنَنَّا فَتَنَسُونَا

ولا يفوتنا أن نتمتع القارئ بقول الشريف
 حتى بين النقا وبين المصلّى * وقفات الركائب الانضاء
 ورواح الحجيح ليلة جمع * وبجمع مجامع الأهواء^(١)
 وتعمد ذكرى إذا كنت بالخيل — فأنظي من بعض تلك الأطباء
 قل له هل زارك تذكر ما كا * ن ياب القبيبة الحمراء
 قال لي صاحبي غداة التقينا * تشاكى حرّ القلوب الظماء
 كنت خبرتني بأنك في الوجد عقيدي وأن داءك دأى
 ماترى النفر والترحل للبين فاذا انتظارنا بالبكا
 لم يقلها حتى أثنيت لما بي * أتلقني دمي بفضل ردائي

دموع الغانيات

لا تريد هنا الدمع يسفحه الندم ، بل الدمع يرسله الوفاء . لأن عبدة
 الندم رفق بنفسه التي أفسدها الإسراف . أما عبدة المودع فهي رفق
 بمحبته الذي أشجاء الفراق !

قال جرير في بكاء الحسان عند الوداع :
 إن الذين غدوا بلبك غادروا * وشلاً بعينك ما يزال معينا
 غيظن من عبراتهم وقلن لي * ماذا لقيت من الهوى ولقينا
 وهو كلام فطري لا كلفة فيه . وما أبدع قول الطاعنات :
 ماذا لقيت من الهوى ولقينا !

(١) ترد كلمة (جمع) كثيراً في شعر الشريف . وهي من مناسك الحج . ويوم جمع يوم مرة .
 وأيام جمع أيام منى

ومثله قول ابن التعاويذي ،

لما وقفنا للوداع * وقد دعا داعي الرحيل
وتخاذلت أنصار دمعـي في هوى الطغي الخذل
قلت وأدعها نسيـل أسى على الخلد الأسيل
يا بين كم أجليت يو * م نوى الأعبة عن قتيل
وهذا شعر خفيف الروح ، لطيف النسيم . ويشبهه قول بعض
الأعراب .

ومما شجاني أنها يوم ودّعت * تولّت وماء العين في الجفن حائرُ
فلما أعادت من بعيدٍ بنظرٍ * إلى التفانك أسلمته المحاجرُ
وقد أنصف الأبيوردي معشوقته إذ يقول :

وما أنس لانس الوداع وقد بدت * تُدبّض دمعاً فاض وابله سكباً
مهففة لم ترض أتوابها لها * بيد الدجى شتبا وشمس الضحى تراباً
تنفسُ حتى يسلم العقد سلكه * وأكظم وجداً كاد ينزع القلباً
وتندى شآبيب الدموع كأنما * أذابت بعينها النوى لؤلؤاً رطباً
ولو سلمت هذه الايات من مثل هذا الغزل الطريف لكان

انسب بموقف التوديع . ومثلها في ذلك قول السرى الرفاء :

تنادوا لتفريق الفريق فأصبحت * مدامعنا تندي لفرقهم دما
سلامٌ على من سار قلب محبه * اليه فلم يرجع صحيحاً مسلماً
يحمل عقود الدر دمعاً ومنطقاً * وينظامها حلياً عليه ومبسماً
أما طعن العذب اللثامه * فماد بديباج الحياء ملثماً

وكلني جفناه بالدمع خفية * فهم غليل الشوق أن يتكلما
ومن العشاق من ينسب إلى حبيبه التباكي ، وإلى نفسه مر البكاء ، ثم
يفرق بين العبرتين ، ويميز بين الثفرتين . كالأرجاني إذ يقول :
سفرت كي تزود الحب منها * نظرة حين أذنت بالتناي
ورأت أنها من الوجد مثل * ولها للفراق مثل بكائي
فتباكت ودمعها كسقيط الطل في الجلائرة الحمراء
قري الدمع تيز في حمرة اللو * ن سوا وما هما بسوا
خدها يصبغ الدموع ودمعي * يصبغ الخد قانيا بالدماء
خضب الدمع خدها باحمرار * كأختضاب الزجاج بالصبا
وما أدرى بأي قلب يلح هذا الشاعر ليحول دموع محبوبته إلى دماء !!
وما أرفق المتنبي إذ يقول :

وجلا الوداع من الحبيب محاسنا * حسن العزاء وقد تجلين قبيح
فيد مسلة وطرف شاخص * وحشا يذوب ومدمع مسفوح
ألم تر إليه وقد انخل قلبه ، حين رأى حبيبته باكية ، فلم يذكر
الا أنها جميلة ، وأن الصبر على فراقها أعز منالاً من نجوم السماء !

وتعجبني هذه النجوى في قول ابن الرومي يصف عتاب حسناء
زادت على غفلة من الحرس * تهدي إلى السلام في الغلس
أننى تجشمت نحو أرحلنا الهو * ل ولم ترهبي أذى العسس
قالت ترامي بنا إليك من الشو * ق مئص بالبارد السلس
كم زفرة لى تبيت تهض أحشا * نى ودمع عليك منبئخص

وأنت لاهٍ بغيرنا ولنا * منك هوَى مُمَسِّكٌ عَلَى النَّفْسِ
عجبت من ذِلَّتِي وَمَنْ قَلْبِكَ الْقَا * مِي عَلَيْنَا وَخُلُقِكَ الشَّكْسِ
لَا تَأْمَنُ الْهُوَى وَسُطُوتهُ * وَأَخْشَ رَدَاهُ وَمَنْه فَاحْتَرَسِ
وهذا الشعر جميل في معناه ، ولكن يظهر أن أسلوبه لا يمثل
الرقعة في نجوى الحسناء ، وقد مسَّها الحب بناره ، وأحرقها بجواه !
ولو تناول ابن أبي ربيعة أو الابن الأحنف هذا المعنى لرأيت له ثياباً
أرق من هذه الثياب ، وأسلوباً غير هذا الأسلوب :
ومن بارع الشعر في دموع الحسان قول جميل

لماذا البين بين الحى واقتسموا * حبل النوى فهو في أيديهم قطعُ
جادت بأدمعها ليلي وأعجاني * وشك الفراق ذا أُنْبَى وما أدعُ
ياقابُ ويحك ما عيشي بذى سلمٍ * ولا الزمان الذى قد مرَّ مرَّ مُنْجِعِ
أكلما بان حىٌ لا تلامهم * ولا يبالون أن يشتاق من فجعوا
علقتنى بهوى منهم فقد جعلت * من الفراق حصاة القلب تنصدع
وهذا الشعر يمثل الطبيعة في مواقف الوداع ، فالشاعر هنا شائق
ومشوق . ولا كذلك أبيات الرومى التى حصر دمعها في عيون زائرتة
الحسناء . ومن هذه الناحية يعجبني ما أنشده صاحب الأمالى
ولما رأت أن النوى أجنبيةٌ * وأنَّ خليلاً من غدى سيبينُ
بكت فبكى من لاعج الشوق والأسى * وكلُّ بَكْلٍ أن يبين ضنين
فقلت ولم أملك سوا بقِ عبرةٍ * على الخدمنى فالدموع هتونُ
لقد كنت أبكى قبل أن تشعط النوى * فكيف إذا ما غبت عنك أكون

وانظر كيف يصف العرجى خوف محبوبته من فراقه :

وما أنسَ مَلَأْشِيَاءَ لَأَنْسَ مَوْقِفًا * لَنَا وَلَهَا بِالسَّفْحِ دُونَ ثَبِيرِ
وَلَا قَوْلَهَا وَهَنَا وَقَدْ بَلَ جِيهَهَا * سَوَابِقُ دَمْعٍ لَا يَجْفُ غَزِيرِ
أَأَنْتَ الَّذِي خُبِّرْتُ أَنَّكَ بَاكِرٌ * غَدَاةَ غَدٍ أَوْ رَا حِلُّ بِهِجِيرِ
فَقُلْتُ يَسِيرُ بَعْضُ شَهْرِ أَغْيَبُهُ * وَمَا بَعْضُ يَوْمٍ غَيْبُهُ يَسِيرِ
وَقُلْتُ لَهَا قَوْلَ أَمْرٍ وَشَفَهُ الْهَوَى * إِلَيْهَا وَلَوْ طَالَ الزَّمَانُ فَقِيرِ
فَمَا أَنَا إِنْ شَطَطَتْ بِكَ الدَّارُ أَوْ نَأَتْ * بَيْنَ الدَّارِ عِنْدَكُمْ فَأَعْلَى بِصَبُورِ
وَكُنَّا نَحِبُ أَنْ نَعْلَمَ بَقِيَّةَ الْعَتَابِ فِي قَوْلِهِ :

أَحِينَ عَصَيْتِ الْعَاذِلِينَ إِلَيْكُمْ * وَنَازَعْتُ حَبْلِي فِي هَوَاكَ أَمِيرِ
وَبَاعَدَنِي فَيْكَ الْأَقَارِبُ كُلَّهُمْ * وَبَاحَ بِمَا يُخْفِي اللِّسَانُ ضَمِيرِ
وَلَكِنِ الرَّوَاةُ لَمْ يَذْكُرُوا هَذِهِ الْقَصِيدَةَ كَامِلَةً :

والشعر الذى تقدم لا يمثل عواطف النساء تمام التمثيل ، لأنه من
أحاديث الرجال . ولو أن المرأة تكلمت لمرقنا منها كيف تشعر بلوعة
الفراق . وإليك ما قالته امرأة من بنى أسد فى حبيب ينتقض العهد :
بِنَفْسِي مَنِ أَهْوَى وَأَرَعَى وَصَالَهُ * وَتَنْقُضُ مِنِّي بِالْمَغِيبِ وَثَائِقَهُ
حَبِيبُ أَبِي إِلَّا أَطْرَاحِي وَبَغْضَتِي * وَفَضْلُهُ عِنْدِي عَلَى النَّاسِ خَالِقَهُ
وانظر قول أبنه الحبيب .

مَحَابِبُ يُحِبُّ حَبْلِي فَأَصْبَحْتُ * لِيُحْيِيَ نَوَالِي حَبْنًا وَأَوَالَهُ
أَلَا بِأَبِي يُحْيِي وَمَنَى رَدَائِهِ * وَحَيْثُ التَّقْتُ مِنْ مَنَى يُحْيِي حَمَائِلَهُ

فإن هذا الشعر يمثل إحساس النساء بجمال الرجال . وما أوجع الشوق في قول هذه الشاعرة :

أُضْرِبُ فِي يَمْحَى وَيَنْبَى وَيَنْهَى * تَنَائِفُ لَوْ تَسْرَى بِهَا الرِّيحُ كَلَّتِ
أَلَا لَيْتَ يَمْحَى يَوْمَ عَيْتِهِمْ زَارَنَا * وَإِنْ نَهَلَتْ مِنِّي السَّيَاطُ وَعَلَّتِ
وَفِي الْأَذَابِ الْعَرِيَّةِ قِطْعَ مَنثورَةٍ تَمَثَّلُ مَا تَشْتَهَى الْمَرْأَةُ مِنْ
الرَّجُلِ ، وَلَكِنَّهَا مِنَ الْقَلَّةِ بِمِثْلِ لَا تُصَوِّرُ تَمَامًا نَفُوسَ النِّسَاءِ ، وَلَا
تَزَالُ الْمَرْأَةُ لِنَزَا مِنْ الْأَلْفَازِ ، وَلَوْ أَنَّهَا تَحْدِثُ عَنْ عَوَاطِفِهَا كَمَا تَحْدِثُ
الرَّجُلُ عَنْ عَوَاطِفِهِ ، لَعَرَفْنَا بَعْضَ مَا سَتَرَهُ هَذَا الصَّمْتُ الْبَاطِلُ !

ندامة المفارق

أشهر الشعر في ندم الحب ، على فراق من يحب ، ما قاله قيس بن ذريح وقد طلق لبني . قال محمد بن زياد الأعرابي : لَمَّا أَلَحَّ ذُرَيْحٌ عَلَى ابْنَةِ قَيْسٍ فِي طَلَاقِ لَبْنَى ، فَأَبَى ذَلِكَ قَيْسٌ ، طَرَحَ ذُرَيْحٌ نَفْسَهُ فِي الرَّمْضَاءِ وَقَالَ : لَا وَاللَّهِ . لَا أُرِيمُ هَذَا الْمَوْضِعَ حَتَّى أَمُوتَ . أَوْ يَخْلِيَنِي . نَجَاهُ قَوْمِهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، فَظَمُوا عَلَيْهِ الْأَمْرَ . وَذَكَرُوهُ بِاللَّهِ . وَقَالُوا : أَنْفَعَلْ هَذَا بِأَبِيكَ وَأُمِّكَ ، إِنْ مَاتَ شَيْخُكَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ كُنْتَ مَعِينًا عَلَيْهِ وَشَرِيكًا فِي قَتْلِهِ ، فَفَارَقَ لَبْنَى عَلَى رِغْمِ أَنْفِهِ وَقَلَّةِ صَبْرِهِ . وَبَكَى حَتَّى بَكَى لَهَا مِنْ حُضْرَاهَا . وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَقُولُ مُخَلِّئِي فِي غَيْرِ جُرْمٍ * أَلَا يَنْبَى بِنَفْسِكَ أَنْتِ يَنْبَى
فَوَاللَّهِ الْعَظِيمِ لِنَزْعِ نَفْسِي * وَقِطْعِ الرَّجُلِ مِنِّي وَالْيَمِينِ

أحبُّ إلىَّ يا لبني فِرَاقًا * فبكى للفراق وأسعدني
ظلمتك بالطلاق بغير جرم * لقد أذهبت آخرتى ودينى
قال : فلما سمعت بذلك لبني بكت بكاءً شديداً وأنشأت تقول :
رَحَلْتُ إليه من بلدى وأهلى * فجازانى جزاء الخائنين
فمن يرانى فلا يفتّرْ بعدى * بحلو القول أو يبلو الدفينا
فلما انقضت عِدَّتْها وأرادت الشخوص إلى أهلها أُتيت براحة لتحمل
عليها . فلما رأى ذلك قيس داخله منه أمر عظيم ، واشتد لهفه ،
وأنشأ يقول :

بانت لبني فأنت اليوم مقبول * وإنك اليوم بعد الحزم محبولُ
فأصبحت عنك لبني اليوم نازحةً * ودلُّ لبني لها الخيرات ، معسولُ
هل ترجعنْ نوى لبني بعافيةٍ * كما عهدت ليالى العشق مقبولُ
وقد أرانى بلبنى حق مقتنِعٍ * والشمل مجتمع والحبل موصول
فصرت من حب لبني حين أذكرها * ألقب مرتنهن والعقل مدخولُ
أصبحت من حب لبني بل تذكرها * فى كربة ففؤادى اليوم مشغولُ
والجسم منى منهوك لفرقتها * أخوهيام مصاب القلب مسلولُ
أستودع الله لبني إذ تفارقنى * عن غير طوعٍ وأمر الشيخ مفعول
ثم ارتحلت لبني فجعل قيس يقبل موضع رجلها من الارض
وحول خباثها . فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعذل واللوم .
فقال ذريح لما رأى حاله : قد جنيت عليك يا بُنى ! فقال له قيس : قد

كنت أخبرك أنى مجنون بها فلم ترض إلا بقتلى . فأنشأ حسبك وحسب
أنى !! وأقبل قومه يعدلون له فى تقييله التراب ، فأنشأ يقول :

فاجى لطيب تراب أرض * ولكن حب من وطئ الترابا
فهذا فعل شيخينا جميعاً * أرادا لى البلية والعذابا

ولقيس بن ذريح شعر أجود مما تقدم ، وأدل على لوعته وأسفه لفراق
لبنى كقوله :

تُبكى على لبنى وأنت تركتها * وكنت كات غية وهو طائع
فلا تبكين فى إثرى ندامة * إذا نزعته من يدك التوازع
فليس لأمرٍ حاول الله جمعه * مُشيت ولا مافرق الله جامع
كأنك لم تقنع إذا لم تلاقها * وإن تلقها فالقلب راض وقانع
فيا قلب خبئى إذا شطت النوى * بلبنى وصدت عنك ما أنت صانع
أصبر للبين المشت مع الجوى * أم أنت امرؤ ناسى الحياء فجازع
فأنت إن بانت لبينى بهاجع * إذا ما استقلت بالنيام المضاجع
وكيف ينام المرء مستشعر الجوى * ضجيع الأسى فيه نكاس روادع
ولا خير فى الدنيا إذا لم توانا * لبينى ولم يجمع لنا الشمل جامع
ولولا رجاء القلب أن تعطف النوى * لما سحلت يدهن الاضالع
له وجبات إثر لبنى كأنها * شقائق برق فى السحاب لوامع
نهاري نهار الناس حتى إذا دجا * لى الليل هزنى إليك المضاجع
أقضى نهاري بالحديث وبالنى * ويجمعنى بالليل والهجم جامع
ألا إنما أبكى لما هو واقع * وهل جزع من وشك يينك نافع

ومن جيد شعره أيضاً هذه القصيدة

سأصرمُ لبني حبل وصلك بمجلاً * وإن كان صرم الحبل منك يروعُ
وسوف أسلى النفس عنك كما سلا * عن البلاد النائي البعيد نزعُ
وإن مسنى للضرِّ منك كآبةٌ * وإن نال جسمي للفراق خشوعُ
سقى طلل الدار التي أنتم بها * بشرق لبني صيفٍ وديعُ
يقولون صبُّ بالنساء موكلاً * وما ذاك من فعل الرجال بديعُ
مضى زمنٌ والناس يستشفعونني * فهل لي إلى لبني الغداة شفيعُ
أيا حرجات الحى حيث تحملوا * بذى سلمٍ لاجادكن ربيعُ
وخياتك اللاتي بمنعرج الالوى * بلبن بلى لم تبهن دجوعُ
إلى الله أشكو نيةً شقت العصا * هي اليوم شتى وهي أمس جميع
وإن أنهمال العين بالدمع كلما * ذكرتك وحدى خالماً لسريعُ
فلو لم يهجنى الظاعنون لها جنى * حمامٌ وزقٌ في الديار وقوعُ
تجاوبن فاستبكين من كان ذاهوياً * نوايح ما تجرى لهن دموعُ
لعمرك إني يوم جرماء مالكٍ * لخاصٍ لأمر المرشدين مضيعُ
ندمت على ما كان مني ، فقدتني * كما يندم المغبون حين يبيعُ
إذا مالحاني العاذلات بحبها * أبت كبدٌ مما أجن صديقُ
وكيف أطيع العاذلات وجها * يؤزقي والعاذلات هجوعُ
عديمتك من نفس شعاع فاني * نهيتك عن هذا وأنت جميعُ
فقربت لي غير القرب وأشرقت * هناك ثنايا ما لهن طلوعُ
وضعفني حبيبك حتى كأني * من الأهل والمال التلاد خليعُ

وحتى دعاني الناس أحمق مائماً * وقالوا مطيعٌ للضلال تبوع
ويعجبني قوله :

ندمتُ على ما كان مني ، فقد نفي ! * كما يندمُ المغبونُ حين يبيعُ
وهو في شعره يمثلُ الفِطْرَةَ الخالصة من شوائب التكلف ، فانه
فُجِعَ بفراق حليته ، والحليلة المشوقة متاعٌ عزيز .
وفي وصف أثر الطلاق يقول أحد الأعراب :

ندمتُ وما تنفي الندامة بعد ما * جرجنَ ثلاثُ ما لهنَّ رجوعُ
ثلاثُ يُجرِّمنَ الحلال على الفتى * ويصدعن شعب الدار وهو جميع
والتعبير بشعب الدار تعبير دقيق ، ما كان يغني عنه أن يقول :
(ويصدعن شعب القلب) لأن فراق الحليلة هدم للبيت من أساسه
ومن شجى الشعر في ندامة المفارق عينية ابن زريق ، وقد ترك
ابنة عمه في بغداد ورحل الى الأندلس في سبيل الرزق ، ثم حيل بينه
وبين ما يريد ، فأرسل هذه الزفرة الباقية :

أستودع الله في بغداد لي قرأ * بالكرخ من فلك الأزارار مطلقه
ودعته وبودي لو يودعي * صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه * وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى * وأدمى مستهللات وأدمعه
لأن كذب الله توب العذر منخرق * منى بفرقه لكن أرقعه
إني أوسّع عذري في جنائته * بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته * كذلك من لا يسوس الملك يخلعه

ومن غدا لا بساً ثوب النعيم بلا * شكر عليه فعنه الله ينزعه
اعتضت من وجه خلى بعدفرقه * كاساً يُجرع منها ما أجرعه
كم قائل لي ذنب الين قلت له * الذنب والله ذنبي لست أدفعه
هلاً أقت فكان الرشد أجمه * لو أني حين بات الرشد أتبعه
لو أني لم تقع عيني على بلدي * في سَفَرِي هذه إلا وأقطع
يا من أقطع أيامي وأنفدها * حزناً عليه ولبلى لست أهجمه
لا يطمئن بقلبي مضجع وكذا * لا يطمئن به مذ بنت مضجعه
ما كنت أحسب أن الدهر يفجني * به ولا أن بي الايام تقجمه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد * عسراء تمنعني حتى وتمنه
وكنت من ريب دهرى جازعاً فرحاً * فلم أوق الذي قد كنت أجزعه
بالله يا منزل القصف الذي درست * آثاره وعفت مذبت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا * أم الليالي التي أمضته ترجمه
في ذمة الله من أصبحت منزله * وجادغيت على مغناك يُمرعه
من عنده لي عهد لا يضيع كما * عندي له عهد صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا * جرى على قلبه ذكرى يصدعه
لا صبرن الدهر لا يمتني * به ولا بي في حال يمتعه
علماً بأن اصطباري مُعقب فرجاً * فأضيق الامر لو فكرت أوسع
علّ الليالي التي أضنت بفرقتنا * جسي ستجمني يوما وتجمعه
وان تغل أحداً منّا منيته * لا بد في غده الثاني سيتبعه
وإن يدم أبداً هذا الفراق لنا * فما الذي بقضاء الله نصنعه

ومما يتصل بندامة المفارق ما قاله ابن الرومي في فرصة ضاعت منه
فعضّ من بعدها البنان . فلنذرها على سبيل الفكاهة ، لما فيها من
ظرف المجون :

أستغفر الله من تركي علانية * ذنباً هممت به في شادن خنت^(١)
ظبيّ دعتنى عيناه ومنطقه * بنيت صدقت عن ظاهر عيشت
فلم أجبه وحظي في إجابته * لكن سكت كأني غير مكثرت
لا بل فررت وظل الصيد يطلبني * والله ما كنت فيها بالفتى الدمش
أقسمت بالله لما كنت محجزاً * أني أنبت بقلب غير منبت

غربة المحب

تكلم قليلا عن غربة المحب ، وكل مهجور غريب ، لأن الامر كما
قال الشريف :

ليس الغريب الذي تنأى الديار به * إن الغريب قريب غير مودود
فن الشعراء من يقترب في سبيل حبه . كما قال حذيفة الغنوي :
يقولون من هذا الغريب بأرضنا * أما والهدايا إني والغريب
غريب دماء الشوق وأقتاده الهوى * كما قيد عود بالزام أديب^(٢)
وماذا عليكم أن أطاف بأرضكم * مطالب دين أو نفقة حروب
أمشى بأطنان المياه وأبتنى * قلائص منها صعبة ور كوب
ومن شجى الشعر في غربة المحب قول بعض الأعراب :

(١) الشادن : النزال . والخنت : التفتى (٢) العود الجبل . وأديب ذلول

وفي الجيرة الغادين من بطن وجرة * غزالٌ كحيل المقلتين ريبٌ
فلا نحسب أن الغريب الذي نأى * ولكن من تأين عنه غريبٌ
ومما يتصل بهذا المعنى قول بعض الأعراب يذكر اختصاصه
باللوي في أغتراب محبوبته :

أرى كل أرض دمتها وإن مضت * لها حجاجٌ يزداد طيباً تراها^(١)
ألم تعلمن يارب أن ربّ دعوةٍ * دعوتك فيها مخلصاً لو أجابها
وأقسم لو أني أرى نسباً لها * ذئاب الفلا حيت إلى ذئابها
لعمرك أني ليلي لئن هي أصبحت * بوادي القرى ماضراً غيراً أغترابها
وغربة المحب تمثل في حرمانه . وكيف لا يكون غريباً من
يقول :

أيا منشر الموتى أقدني من التي * بها نهلت نفسي سقاماً وعلت
لقد بخلت حتى لو أني سألتها * قذى العين من ساق التراب لضنت
وما أمّ بوّ هالك بتنوفةٍ * إذا ذكرته آخر الليل حنت
بأكثر مني لوعةً غير أني * أطامن أحشائي على ما أجنّت
ويظهر أن قذى العين كان في أنفس العرب مثلاً لما لا يُضنّ به،
فقد ردّدوا ذكره في أشعارهم، كما قال بعض بني أسد :

وكيف طلابي وصل من لو سألتُهُ * قذى العين لم يطلب وذاك زهيد^(٢)
ومن لو رأى نفسي تسيل لقال لي * أراك صحيحاً والفؤاد جليدٌ

الامل الضائع

نذكر في مقدمة هذا الباب رسالة كتبها صاحب البدائع، ونقلها الى الفرنسية حضرة الأديب عبد المجيد عيسى البيه . وهي تمثل الوجد يضطرم في الصدر ، بعد قسوة الإخفاق :



تأيتُ حتى لامني كل صاحب * رجاء سُليني أن تيمَ كما إمتُ
لئن بعث حظي منك يوماً بغيره * لبئسَ إذا يوم التغابن ما بعثُ
كنت أصبر على بأساء الحياة ، وأحتمل ما فيها من همٍّ وغمٍّ ، لو
أن عندي بقيةً من الأمل ، أرفقُ بها أحزاني ، وأدفن فيها آلامي ؛
ولكن حال القنوط دون الرجاء ، وأتى اليأس دون الطمع ، فلم يبق
غير الجزع من مُسعدٍ ، ولا سوى النوح من شفاء ؛

فيا جيرة ما كان أهنأ ورددٍ ، وأطيب عيشهم ، ويا أحباباً ذقت
الفرح بقرهم ، وعرفت الهمَّ لبعدهم ، ويا من أفناني فراقهم ، وكان
أحياني لقاءهم ، بربكم ما الذي لقيتم بعدى ، فقد لقيت بعدكم ذلاً وهواناً ،
وظلماً وعدواناً ، ومن عسى أن يكون قد ظفر بودكم ، ونعمَ بحسنكم ،
فأصفاكم من الحب أجمله ، ومن الأنس أكله ، فقد صحبت بعدكم من
جحد نعمتي ، وأنكر خُلتي ، ومن سقيته الشهد فسقاني الصاب ،
وأوليته القرب فأولاني القطيعة ؛ !

فيا ليت شعري من ألوم ؟

أَلُومَ نَفْسِي عَلَى أَنْ لَمْ أَعْقُ فِي بَرَكَمِ أَهْلِي وَإِخْوَانِي ، فَأَسِيرَ حَيْثُ
مَرْتَمٍ ، وَأَقِيمَ حَيْثُ أَقْتَمِ

تَفَرَّقَ أَهْلِي مِنْ مَقِيمٍ وَظَاعِنٍ * فَيَا لَيْتَ شَعْرِي أَيْ أَهْلِي أَتَبِعُ
أَقَامَ الَّذِينَ لَا أَبَالِي فِرَاقَهُمْ * وَشَطَطَ الَّذِينَ بَيْنَهُمْ أَتَوَقَّعُ
أَمْ أَلُومَكُمْ عَلَى أَنْ تَرَكْتُمُونِي وَحِيدًا وَأَترَمَ وَطَنَكُمْ ، وَأَهْلَكُمْ ،
وَلَمْ تَبَالُوا بِمَنْ خَلَقْتُمُوهُ طَرِيحَ حَزَنِهِ ، وَأَسِيرَ هُمَ ؟

أَمْ أَلُومَ قَوْمًا جَعَلْتَهُمْ مِنْكُمْ بَدَلًا فَكَانُوا شَرَّ بَدَلٍ ، وَاتَّخَذْتَهُمْ مِنْ
بَعْدِكُمْ ذَخْرًا فَكَانُوا كَالْهَبَاءِ ، وَرَجَوْتَهُمْ خَصْنًا أَتَقِي بِهِ الدَّهْرَ الْخَائِنَ ، وَالزَّمَانَ
الْجَائِرَ ، فَإِذَا هُمْ أَذِلُّ مِنْ قُرَادٍ بِنَفْسِهِمْ ، وَإِذَا الْمَتْفِي ظَلَمَهُمْ ، وَالرَّاجِي بِرِهِمْ ،
يَطْمَعُ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ ، وَيَلْجَأُ إِلَى شَرِّ وَزَرٍ ؟

أَمْ أَلُومَ دَهْرًا اضْطَرَّكُمْ إِلَى الرَّحْلَةِ فَرَحَلْتُمْ ، وَحَكَمَ عَلَىَّ بِالْمَقَامِ
فَأَقْتَمْتُ ، ثُمَّ أَمَدُّنَا مِنَ الْيَأْسِ لِبَعْدِ الدَّارِ ، وَشَطَطُ الْمَزَارِ ، مَا جَعَلَ الْأَمَلَ
فِي التَّلَاقِ خَائِبًا ، وَرَجَاءَ التَّنَادِي كَاذِبًا

وَقَلَّمَا أَتَقِي عَلَى مَا أُرَى * يَوْشِكُ أَنْ يَنْعَانِيَ النَّاعِي
مَا أَقْتُلُ الْيَأْسَ لِأَهْلِ الْهَوَى * لَا سِيَّامًا مِنْ بَعْدِ إِطَاعِمِ
مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمْ ؟ أَخَضَعْتُمْ لِلْيَأْسِ ، وَأَذْعَنْتُمْ لِلْقَنُوطِ ، وَلَمْ تَرْهَبُوا
الْعِتَابَ ، إِذْ لَمْ تَأْمَلُوا الْلِقَاءَ ، فَزَفَقْتُمْ تِلْكَ الشَّمْسَ إِلَى غَيْرِي ، وَأَترَمْتُمْ
بِهَا سِوَايَ ؟

يَا عَزَّ إِنِّ ضَاعَتْ عَهْدِي عِنْدَكُمْ * فَأَنَا الَّذِي أَسْتَوْدَعْتُ غَيْرَ أَمِينِ

أوعدت مغبوناً فأنافى الهوى * لكم بأول عاشقٍ مغبونٍ
غلب اليأس عليكم فللهم — ولا وفاء للمول — فكان منكم
ما أقض المضجع ، وأورث الجفن السهاد ، فهل تعلمون ما صنع اليأس
بنا ، ونال القنوط منا ؟ ولكن هيهات بعد اليوم أن ينفع الغراء !
هى الغاية المقصوى فإن فات نيلها * فكل مُنى الدنيا على حرامٍ



وقد نظرت ماقال الشعراء فى الأمل الضائع ، ووجدت لهم فيه
أفانين ، فمنهم من يأسف على أن لم يؤهله وجهه للعشق ، كالذى يقول :
جاريةٌ أعجبها حسنُها * فتلها فى الناس لم يُخلَقِ
خبرُها أنى يحبُّ لها * فأقبلت تضحك من منطقٍ
والتفت نحو فتاةٍ لها * كالرشا الوسنان فى قرطى
قالت لها قولى لهذا الفتى * انظر إلى وجهك ثم اعشق^(١)
ومن جيد الشعر فى ضياع الأمل قول عمر بن أبى ربيعة فى مُسكينة
بنت الحسين

قالت مُسكينة والدموع ذوارفٌ * تجرى على الخدين والجلبابِ
ليت المغيرى الذى لم أجزه * فيما أطال تصيدى وطلابى
كانت تودُّ لنا المنى أيامنا * إذ لا نلام على هوى وتصابى
خبرتُ ما قالت فبتُ كأنما * يرى الحشا بنوافذ النشابِ

(١) رواية صديقتنا الدكتورة إبراهيم ذكى السامى لهذا البيت هكذا (انظر لاسنانك ثم
اعشق) لأن بريق التنايا هو شارة الحسن والقوة عند أطباء الاسنان

أُسْكِبْنِ مَاءَ الْفَرَاتِ وَبِرْدُهُ * مَنِ عَلَى ظِلِّهِ وَقَدْ شَرِبَ
بِأَلَدٍ مِنْكَ وَإِنْ نَأَيْتَ وَقَلِمَا * يَرعى النِّسَاءُ أَمَانَةَ الْغِيَابِ
إِنْ تَبَذَلِي لِي نَائِلًا أَشْفَى بِهِ * سَقَمَ الْفُؤَادَ فَقَدْ أَطْلَتِ عَذَابِي
وَعَصِيتْ فِيكَ أَقَارِبِي فَتَقَطَّعْتَ * يَنِي وَبَيْنَهُمْ عُرَى الْأَسْبَابِ
فَتَرَكْتَنِي لِابِلِ الْوَصَالِ مُتَمَسِّكًا * مِنْهُمْ وَلَا أُسْعِفْتَنِي بِشَوَابِ
فَقَعَدْتَ كَالْمُهْرَبِقِ فَضْلَةَ مَائِهِ * فِي حَرٍّ هَاجِرَةٍ لِلْمَنَعِ سَرَابِ
وَلَمْ أَرِ مِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ بَكَى الْاَمَلَ الضَّالِّعَ كَمَا بَكَاهُ كَثِيرٌ فِي قَوْلِهِ :
وَأَدْنَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا أَسْتَيْتَنِي * بِقَوْلٍ يُحِلُّ الْعَصَمَ سَهْلَ الْإِبَاطِحِ
تَوَلَّيْتُ عَنِّي حِينَ لَالِي مَذْهَبٌ * وَغَادَرْتُ مَا غَادَرْتُ بَيْنَ الْجَوَانِحِ
وَهِيَ صُورَةٌ شَعْرِيَّةٌ تَمَثِّلُ الْمَحَبَّ ، وَقَدْ اسْتَدْرَجَهُ مَحْبُوبُهُ ، حَتَّى
أَخَذَ الطَّمَعُ بِنَوَاصِي أَمَالِهِ ، ثُمَّ تَرَكَهُ فِي اللَّحْظَةِ الْآخِرَةِ ، يَتَعَرَّفُ أَذْيَالَ
الْخَلِيَّةِ وَالْقَنُوطِ :

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الشَّرِيفُ :

كَمْ قَدْ نَصَبْتُ لَكَ الْحَبَائِلَ طَامِعًا * فَتَجَوَّتَ بَعْدَ تَعَرُّضٍ لَوْقُوعِ
وَتَرَكْتَنِي ظِلْمَانَ أَثْرَبِ غُلَّتِي * أَسْفًا عَلَى ذَاكَ اللَّيْلِ الْمُنَوَّعِ
وَمِنَ الْأَمَلِ الْذَاهِبِ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَحِبِّهِ ، مِنْ بِلَدٍ غَيْرِ بِلَدِكَ ،
وَقَوْمٍ غَيْرِ قَوْمِكَ ، كَمَا قَالَ نَصِيبٌ

أَرْقُ الْمَحَبُّ وَطَادُهُ سُهْدُهُ * لَطَوَارِقُ الْهَمِّ الَّتِي تَرْدُهُ
وَذَكَرْتُ مِنْ رَقَّتْ لَهُ كِبْدِي * وَقَبَا فُلَيْسَ تَرَقُّ لِي كِبْدُهُ
لَا قَوْمُهُ قَوْمِي ، وَلَا بِلَدِي * فَتَكُونُ حِينًا جِيرَةً بِلَدُهُ

ووجدت وجداً لم يكن أحدٌ * من أجله بصبايةً يحده
ونُصِبَ يتحدث كثيراً عن عمِّ الأمانى ، حتى يقول :
ألا هل على البين المفرق من بدِّ * وهل مثل أيامٍ بمنقطع السدِّ
تمت أياى أولئك والمي * على عهد عادٍ ما تعيد وما تبدى

الكتان

من الشعراء من لا يهتم من الكتان غير ستر تفاصيل الود .
وأسرار القرب ، ولا يرى بعد ذلك حرجاً في ذكر اسم من يجب ،
كما قال جميل

لا لأبوح بحب بثنة إنها * أخذت على موافقها عهدا
فانه لو كان يذهب إلى نكران الاسم وجحوده ، تضليلاً للوشاة ،
لكان هذا البيت من سُخْفِ القول ، وهذره . واليك ما يقول من
كلمة ثانية :

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا * سوى أن يقولوا انى لك عاشقُ
نم صدق الواشون أنت حبيبةٌ * إلى وإن لم تصفُ منك الخلاق
فانه يدل على أنه لا يبالي أن يُعرف بحبها . حتى قال الناس : جميل
بثينة كما قالوا مجنون ليلي . ويذكر أبو علي القالى أن البيت السالف
لكثير ، وأنه ذكر بثنة تورية عن حبيبته ، وهذا فيما أرى غير حتم ،
لأن كثير ما كان يعدل عن عزة إلا لضرورة الشعر . كقوله :
كفى حزناً للعين أن ردّ طرفها * لعزةٍ غيرُ آذنت برحيل -

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا * فقلت البكا أشقى إذن لغليلي
توليت محزوناً وقلت لصاحبي * أقاتلني ليلى بغير قتيل
فقد ذكر عزة عند موأاة الشعر ، وليلى عند معاصاته ، وهو نوع
من التلاعب بالاسماء الذى كثر فى شعر العرب . وقال كثير من
قصيدة أخرى :

سيهلك فى الدنيا شفيقٌ عليكم * إذا غاله من حادث الدهر غائلة
ويخفى لكم حباً شديداً ورهبةً * وللناس أشغالٌ وحبك شاغلة
كريمٌ يُميت السرَّ حتى كأنه * إذا حدثوه عن حديثك جاهلة
يودُّ بأن يمسى سقيماً لعلها * اذا سمعت عنه بشكوى ترأسه
ويجهد للمعروف فى طاب الملا * لتُحمد يوماً عند عزِّ شمائله
وهو فى هذا الشعر لا يكتفى اسم من يهوى ، وإنما يكتفى بأحاديث
الحب ، وأسرار الصباية ، كما قال جابر بن ثعلب الجرمي

ومستخبرٍ عن سرِّ رياً ردَّذنه * بعمياء من رياً بغير يقين
فقال أتصغى إنى لك ناصحٌ * وما أنا إن خبرته بأمين
وهذا العباس ابن الأحنف كان من أكثر المحبين كتماناً ، ولكنّه
صرح باسم محبوبته فوز ، ولقد بلغ من حسد إحدى جاراته له أن
سمت جارتها « فوز » وقد قال فى ذلك

ما ينقضى عجبى من جهل حاسدةٍ * كانت بنى الأثل من خدنى وأنصارى
سمت وليدتها فوزاً مغايظةً * عذرت لو لطمتنى ذات أسوار
وما يزال نساء من قرابتها * فى كل ناحية يهتكن أستارى

ومسلم ابن الوليد يتغنى بكم تباريح الصباية في قوله :
وما نلت منها نائلاً غير أننى * بشجوا المحبين الى سلفوا قبلى
بلى ربما وكلت عيني بنظرة * اليها زيد القلب خبلاً على خبل
كتمت تباريح الصباية عاذلى * فلم يدرباني فاسترحت من العذل
وقد عارضه ابن عبد ربه بقوله :

بنفسى التى صننت على بوصلها * ولو سألت قتلى وهبت لها قتلى
وإن حكمت جارت على بحكمها * ولكن ذاك الجور أحلى من العذل
وأحييت فيها العذل حبا لذكرها * فلائى أحلى فى فؤادى من العذل
وهو يذكركنا بقول أبى الشيص الخزامى :

أجد الملامة فى هواك لذيدة * حباً لذكرك فليهنى اللوم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم * اذ كان حظى منك حظى منهم
وقول ابن نُبَّاة المصرى :

لثمت ثغر عذولى حين سمالك * فلذ حتى كأنى لأثم فاك
ومن العشاق من يكتم الهوى جملة واحدة ، كقول ابن فلاقس :
كتمت الهوى عند العواذل صنّة * عليهم بمن أصبو إليه وأهواه
ولو قلت انى عاشق فطنوا له * لعلمهم أن ليس يُعشق إلا هو
وهو مذهب غريب ، وأغرب منه مذهب من يقول :

وقائلة مبال جسمك لا يرى * سقيماً وأجسام المحبين تسقم
فقلت لها قلبى بحبك لم يسبح * لجسمى فجسمى بالهوى ليس يعلم
وللعباس بن الأحنف شجون من الحديث عن الكتمان ، فتارة

يذكر أنه باح بحبه حين طال بلاؤه . كقوله :

هذا كتابٌ بدمع عيني * أملاه قلبى على لسانى
الى حبيبٍ كنيت عنه * أجلّ ذكر اسمه لسانى
قد كنت أطوى هوا عنه * مذ كنت فى سالف الزمان
فبُحت إذ طال بى بلائى * ولم يكن لى به يدان

وهو هنا يكرم حبه عن محبوبه . فضلا عن الناس . وتارة يذكر

أنه سيموت مكتوم السرّ الا من يحب . فيقول :

أبكى الذين أذاقوني مودتهم * حتى اذا أبغضوني فى الهوى رقدوا
وأستهنضوني فلما قت منتصباً * بثقل ما حملوني فى الهوى قعدوا
جاروا علىّ ولم يوفوا بعهدهم * قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا
لأخرجنّ من الدنيا وحبكم * بين الجوانح لم يشعر به أحد
حسبى بأن تعلموا أن قد أحبكم * قلبى وأن تسمعوا صوت الذى أجد
وحينا يذكر أنه سلا ، لينصرف الناس عن التحدث بحبه ، رفقا

بمحبوبته . فيقول :

كذبت على نفسى فخدّنت أنى * سلوت لكما ينكروا حين أصدق
وما من قلبى منى ولا عن ملالة * ولكنى أبقى عليك وأشفق
عطفت على أسراركم فكسوتها * قيصاً من الكتمان لا يتخرق

وقد يستنذر عن هجره فيقول :

الله يعلم ما أردت بهجركم * إلا مصانعة العدو الكاشع
وعلمت أن تباعدى وتستري * أدنى لو صلاك من دُتور فاضح

وأحلى من هذا قوله في تعيين الغرض من الصدود :
 سأهجر إليّ وهجرانها * إذا ما التقينا صدوداً والحدودُ
 كلانا محبٌ ولكننا * ندافع عن حينا بالصدود
 وتأمل قوله « صدود الحدود » يريد بذلك أن كلًّا منهما يصدف
 بخذه عن صاحبه ، أما القلوب فهي في ائتلاف . وطوراً يكتبني بحديث
 العيون . كقوله :

كلانا مُظهرٌ للناس بغضاً * وكلٌ عند صاحبه مكينٌ
 تخبرنا العيون بما أردنا * وفي القلوب نَمِّ هوى دفينٌ
 وقد يُسرُّ الحزن ، ويبدى السرور ، مبالغة في التستر ، كقوله :
 عيون العائدات تراكِ دوني * فيا حسدى لعينى من يراكِ
 أريدك بالكلام فأقيمهم * وأعمد بالكلام الى سواكِ
 وأكثرفيهم ضحكى ليخفى * فسنى ضاحكٌ والقابُ باكِ
 وقد أفصح عن ضرورة الكتمان بقوله :

سأستر والستر من شيتى * هوى من أحب بمن لا أحب
 ولا بد من كذب في الهوى * إذا كان دفع الأذى بالكذب
 وربما تمى لو استطاع أن يكتم قلبه الحب . فيقول :
 إذا لم يكن للمرء بدٌّ من الردى * فأكرم أسباب الردى سبب الحب
 ولو أن خلقاً كاتم الحب قلبه * لمت ولم يعلم بحبكم قلبي
 إذا قيل تُقرئك السلام تماسكت * حُشاشة قلبي وانجلت غمرة الكرب
 وقد يئأس من كتم الحب فيقول :

أما الهوى فهو شئ لا خفاء به * شتان بين سبيل النجى والرشد
إن المحبين قومٌ بين أعينهم * وسمٌ من الحب لا يخفى على أحد
وقد يبالغ في السكمان حتى يضل الناس من أجل حبه في يدها من
الظنون ، ليس ليل نهار ، كما يقول :

قد سحبَ الناسُ أذيالَ الظنون بنا * وفرَّقَ الناسَ فينا قولهم فرقا
فجاهلٌ قد رعى بالظن غيركم * وصادق ليس يدري أنه صدقا
وقد ذكروا أن العباس ابن الأحنف مات هو وابراهيم الموصلى
والكسائى في يوم واحد . فرفع ذلك إلى الرشيد . فأمر المأمون أن
يصلى عليهم . فصموا بين يديه . ثم سأل عنهم واحداً واحداً وأمر بتقديم
ابن الأحنف فصلى عليه . فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم ابن عبد الله
ابن مالك الخراعى فقال : يا سيدى ! كيف آثرت العباس بالتقدمة على من
حضر ؟ فأنشده المأمون هذين البيتين :

سمائك لي فاسٌ وقالوا إنها * لهي التي كسقي بها وتكابدُ
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم * انى ليعجبني الحب الجاحدُ
ثم قال : أحفظهما ؟ فقال نعم . فقال : أليس من قال هذا الشعر أولى
بالتقدمة ؟ فقال : بلى يا سيدى !^(١)

ومن جيد ما قيل في كتمان المرقول قيس بن ذريح

(١) وضع صاحب البدائع كتاباً سماه « صباية ابن الأحنف » تناول فيه بالتفصيل
حياة هذا الشاعر الوجدانية ، ووازن بينه وبين ابن أبي ربيعة وأبى نواس . وسيظهر هذا
الكتاب بعد قليل

لو أَنَّ امرأً أَخفى الهوى عن ضميره * لمتٌ ولم يعلم بِذاكَ ضميره
ولكن سألنى الله والنفس لم تبغ * بسرِّك والمستخبرون كثير
ومن الشعر الموجه فى الكتمان قول جواهر بن عبد الحكيم الكلبي
فضى كلُّ ذى دينٍ فوقَ غريمه * ودَيْنك عند الزاهرة ما يُقضى
أَكتم فى حبي ظرِفةً بالي * اذا احتبصر الواشون ظنوا به بغضا
صدوداً عن الحى الذين أودهم * كأنى عدوٌّ لا يزور لهم أرضا
ولم يدعُ بأسم الزاهرة ذاكره * على آله إلا ظللنا لها مَرْضى
وما تقع الهيمان بالشرب بعدهم * ولا ذاق العينان مَذاقوا نَمضا
وقد يشم المرء بحب من لا يحب ، فيتمنى لو تصدق التهمة ، كما

قال صاحب البدائع

عجبت لهم أنى رموني بحبها * ولا مُهجتي رهنٌ لديها ولا قلبى
فيارب صدق فى هواها عواذلى * فانَّ عناء أن ألامَ بلا ذنبِ
وإلا فلا تقطع على ملامهم * فان ملام المرء فاتحة الحب

طرفة أمية

قال بعضهم لمحبوبته

سيرى وسيرك لم يعلم به أحدٌ * إلا الإله وإلا أنتِ ثم أنا
فقال له : لانتس القوادة ، فعندها الخبر اليقين !

قسوة التجنى

أكثر الشعراء من شكوى الهجر والصدود . وأكثروا القول كذلك عن قسوة التجنى ، فمن ذلك قول ابن نُبَالة السعدي يادهر لا غفلات العيش عائدة * ولا الشباب الذي أبليت فيه ان كنت تمنع سعدى من مطالبتها * فلست تمنع سعدى من تمنىها لله نعمة أوتار ومسمعة * بانت تدل على شوق أغانيها وقهوة كشاع الشمس طالمة * أفنيت بالمزج فيها ريق ساقها لو كنت أخضع في الدنيا لنائبة * خضمت من هجرها أو من تجنيها تستعذب الدمع عيني في محبتها * كأن ماتتريه العين من فيها وما أجمل قول ابن الرومي

يا عيلاً جعل الآنة مفتاحاً لظلمى
ليس في الأرض عليل * غير جفنيك وجسمى

وقد كتبت الآنة حياة فهمي كلمة عنوانها (لعن الله الحب) ونشرتها في الصباح : فأجابها الشاعر المبدع السيد حسن القاياتي بقوله تلوم حياة على الماشقين * رويداً ورقفاً بنا يا حياتي جهلت الغرام فملت الحب * هنيئاً لعينيك في الناعسات ثم سأل صاحب البدائع عن رأيه في تجنى هذه الفتاة . فأجابه بما نصه : « يرى سيدى الشاعر أن الآنة حياة جهلت الحب ، فلامت المحبين . ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب . لأن المرأة

كالسياسي سواء بسواء . يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون . فاذا قال السياسي (لا) فاعلم انه يريد (نعم) وإذا قال (نعم) فاعلم انه يريد (لا) وإذا قالت المرأة (لا أحب) فاعلم انها (تحب) وإذا زعمت انها (كارهة) فاعلم انها (راضية) فان كنت في ريب من ذلك يا صديقي الأديب فاني أذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك في جريدة الافكار سنة ١٩١٩

عهد السياسة كاذب * لله درك ياسجاح !

وقد قال (ناسو) أحد شعراء إيطاليا : إن المرأة تفر ، وتود أن تُلحق وهي فارة : وتأتي ، وتود في إياها أن تُسرق . وتناضل ، وترغب أن يُظفر بها في النضال ! !

فقول الآنسة حياة « لست ممن تغلب الحب على قلوبهم » معناه أن الحب صيرها باكية العين ، دامية الفؤاد ! وقولها « الحب عدو لدود للإنسان ، فيجب أن يُبعد عن القلوب » معناه أن الحب مادة الحياة . فيجب أن تزود به القلوب !

وقولها « تباعدوا عن الحب » معناه : أقبِلوا على الحب بسمعكم . وبصركم ، أيها الشباب !

هذا يا صديقي ما زیده الآنسة حياة فهمي ! فهي حين تقول « لمن الله الحب » إنما تريد « حيّا الله الحب » وأنت بما تريد عليم !

ولا يفوتني قبل ختام هذه الكلمة أن أوجه للآنسة حياة هذا السؤال :

إنك تأمريننا بأن لانحب (سماً وطاعه !) ولو أني سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عاماً لتجوت من الحب . ولأسترح الآن من تسطير مدامع العشاق ، ولكني يامولاني لسوء الخط قد أحيت ، وقد ضربت بمحبتى الأمثال ، وأريد أن أسلم من الحب على يدك الطاهرة ، جمل الله في يمنك الشفاء ، من كل داء ، فهل لك أن تصفي لي طريق الخلاص من هذا الضلال القديم ، ومن أسماء الحب الضلال ؟ أنا في انتظار الجواب !

ملحوظة — أرجو أن تحترس الآنسه حياة ، وهي تكتب أنواع العقاقير ، من أن تنهاى عن التطلع إلى العيون ، والحدود ، والثغور ، والنحور ، والنهود ، فانه لاسبيل إلى مثل هذا المتاب !! وإنما أريد أن أسلو وأنا أعبت بأفنان الجلال ، كما يرُدُّ الشارب الكأس وهي تتوهج بين أنامل الساق الجميل !!

وقد ردَّ السيد حسن القايتى على هذه الكلمة بخطاب شائق ولولا الرغبة فى الإيجاز لأمتعنا به القارىء ، ومن السهل الرجوع اليه فى كتاب البدائع

وقد حَسُنَ التجنى فى قول أحد الشعراء

صدّ عنى محمد بن سعيد * أجمل العالمين ثانىَ جيد
ليس من بغضةٍ يصدّ ولكن * يتجنّى لحسنه فى الصدود

ظلم الحبيب

وفي الحب وحده يحلو الظلم ، حتى لتحكمُ عليّة بنت المهدي بأن
الحب بُني عليه . وتقول

وُضِعَ الحبُّ على الجَوْرِ فلو * أنصف المشوق فيه لَسُمِّجَ
ليس يستحسن في شرع الهوى * عاشقٌ يُحَسِّنُ تأليفَ الحُجِّجِ
وقال النخعي

راحتي في مقالة المذال * وشفائي في قبيلهم بعد قال
لا يطيب الهوى ولا يحسن الحبُّ لصبِّ الإبخس خصال
بسماع الأذى وعذل نصيح * وعتابٍ وهجرةٍ وتقال
ويملأ بعضهم جمال الظلم في الحب بقوله :

لولا أطراد الصيد لم تك لذة * فتطاردى لي في الوصال قليلا .
هذا الشراب أخو الحياة وماله * من لذةٍ حتى يصيب غليلا
ومثله قول الآخر

دع الصبَّ يصلي بالأذى من حبيبه * فان الأذى بمن تُحب سرورُ
غبار قطيع الشاء في عين ذئبها * إذا ما تلا آثارهنّ ذرورُ
وأنشد الأصمعي

لاخير في الحب وفقاً لا تحركه * عوامل اليأس أو يقتاده الطمعُ
لو كان لي صبرها أو عندها جزعي * لكنت أملك ما آتي وما أدعُ
إذا دما بأسمها داحٍ ليعزني * كادت له شعبةٌ من مهجتي تقعُ

لا أحمل اللوم فيها والغرام بها * ما كلف الله نفساً فوق ما تسع

ومن جيد الشعر في ظلم الحبيب قول أبي حية النخري
رمتني وسبَّ الله بيني وبينها * ونحن بأكناف الحجاز رميم
رميمٌ التي قالت لجارات بيتها * ضمنت لكم أن لا يزال بييمُ
ألا ربُّ يومٍ لو رمتني رميمها * ولكنَّ عهدي بالنضال قديمُ
فيا عجباً من قاتلٍ لي أودَّه * أشاطدِي شخصٍ على كرم
يرى الناس أني قد سلوت واني * لمدف أحشاء الضلوع سقيمُ

وهذا الشعر غاية في رقة المعنى وجزالة الألفاظ

وما أجمل الرفق في قول ابن الرومي

أصبحت مملوكاً لأحسن مالِك * لو كان كَمَل حسنة إسباحه
لم يَعهيه أرق وفيه لقيته * حتى أضرب بمقلتي إلحاحه
كلا ولا دمي وفيه سفحته * حتى أضرب بوجنتي نَسفاحه
لامسةً بمقوبةٍ من ربه * إقلاقه قلبي ولا إتراحه
يأليت شعري هل يبيت مُعاني * ويبدأ من دون الوشاح وشاحه
هل أنت مُنصف عاشقٍ متظلمٍ * طول النعيب شكاه وصباحه
قسماً لقد خيَّمت منك بمنزل * لي حزنُهُ ولمن سواي بطاحه
مابال تغرك مشرباً إلى سُكره * ولمن سواي قد تآكلت نفسى راحه
نفسى معذبةٌ به من دونه * ويُبأحه دوني ولست أبأحه

وأحب لو تأمل القاري قول الشريف

ولي ناظرٌ بعد بين الخليل — ط مات من الدمع إنسانه

رواء من الماء آماقه * وظلم من النوم أجفانه
 فأين من الداء إفرقه^(١) * وأين من القلب سلوانه
 فياظالم طيباً ظلمه * كثيراً على القلب أعوانه
 يباع بسومك حب القلوب * وتغلق عندك أمانه^(٢)
 وشر الإساءة من مالك * أساء وما نيل إحسانه
 وقال نويب

أيانارات من قتلته سمدى * دى لاتطلبوه لها حلال
 أرق لها وأشفق بعد قتلى * على سمدى وإن قل النوال
 وما جادت لنا يوماً يذل * يمين من سعاد ولا شمال

ونويب هذا هو الذى يقول

ألا فى سبيل الله نفس تقسمت * شعاعاً وقلب للحسان صديق
 أفاقت قلوب كن عذب بالهوى * زماناً وقلبي ما أراه يفيق
 عصيت بك الناهين حتى لو أننى * أموت لما أرى على شفيق

قساة القلوب

والعشاق يرمون أهل الحسن بقسوة القلب ، وغلظ الكبد ،
 ويحسب ابن الأحنف أن قلوب الحسان قُدت من الصخر . فيقول :
 أظن وما جربت مثلك أنما * قلوب نساء العالمين صخور
 ذرني أتم إن لم أنل منك زورة * لعل خيالاً فى المنام يزور

(١) أفرق من داءه يرى منه (٢) غلق الثمن ضاع

بكيت إلى سرب القطا حين مرّ بي * فقلت ومثلي بالبكاء جدير
 أسرب القطا هل من يعير جناحه * لعلّ إلى من قد هويت أطيّر
 وقد نظر المرحوم اسماعيل باشا صبرى إلى استعارة الجناح فقال:
 يأسرحةً بجوار الماء ناضرة * سقاك دمعى أن لم يوف ساقيك
 عارٌ عليك وهذا الظل منتشر * فتك الهجير يمثلى فى نواحيك
 هل من مُميرى جناحى طائرٍ غرد * كى أقطع العمر شدواً فى أعاليك
 فلا أنقر عن أرض غرست بها * ولا يرنُ بسمى غير واديك
 ومن المحييز من يصف قلب محبوبته بالظلمة نينة والهدوء ، فى حين
 أن قلبه يتلظى على جمر الصدود . كما قال بشار ^(١)

أيها السافيان صُبّا شرابى * وأسقيانى من ريق بيضاء رُودِ
 إن دأبى الصدى وإن دوائى * شربةٌ من رُضاب نغمٍ يرودِ
 ولها مَبَسَمٌ كغُرِّ الأقالجى * وحديثٌ كالوشى وشئ البرودِ
 نزلت فى السواد من حبة القلب * ونالت زيادة المستزيدِ
 ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ * والليالى يبلين كل جديدِ
 عندها الصبر عن لقائى وعندى * زفّراتٌ بأكلن قلب الحديدِ
 وما أظرف قول أبى نواس فى معشوقته جنان

جنان تسبى . ذكّرت بنخير * وتزعم أنى رجلٌ خبيث
 وأن مودتى كذبٌ ومينٌ * وأنى للذى أهوى ثوثٌ

(١) فى كتاب البدائع بحث شائق عن ظلم المواطف ، فأرجع إليه لقرى ما صنع الدهر بشمر بشار

وليس كذا ولا ردُّ عليها * ولكن الملول هو النكوثُ
 ولى قلبٌ ينازعنى إليها * وشوق بين أضلاعى حيثُ
 رأت كلفى بها ودوام عهدى * فملتني كذا كان الحديثُ
 وأبدع ما قيل فى قسوة قلب الجميل قول خالد الكاتب

ليت ما أصبح من * رقة خديك بقلبك

ولفساة القلوب يقول صاحب البدائع
 لقد صدَدْنَا كما صدَدْتُمْ * فهل ندتم كما ندمنَا
 وشفْنَا الوجْدُ مَذْجُوتُمْ * فأظهر الدمع ما كتمْنَا
 وهبت رُوحى وقلت عطفاً * فإعطفم وما رجعْنَا
 ملكتموها وما وصلتم * لقد غنمتم وما غنمْنَا
 وما أزدَدْت خوفًا على فؤادى * إلّا وزدتم رضى وأمنَا
 وما رجأتى وقد قويتم * على جفأتى وزدت وهنَا
 قتلت نفسى على جفاكم * وما قرعتم على سنَا
 لهُقى على السالف المُفدى * لو كان يُجدى الفدا الجُدْنَا
 فما ذكرنا الذى تقضى * الا على حسنه أتجنبنا



لو كنت أشكو الهوى لصخر * لحنَّ وجدًا وأنَّ حزنًا
 وذاب من هول ما أراه * فقد برانا الهوى وذُبْنَا
 إن كان ذنبٌ فسامحونا * ويشهد الله ما أسأنا

وصاحب البدائع هو الذي يقولُ
 أيها الظالمُ الجليلُ سلامٌ * من أسيرٍ قيدتهُ يجفاً كما
 كيف أصليتنى من الهجر ناراً * وحرمت العيون من أن تراها
 ليت من شاء أن يطول أسانا * في سبيل الهوى أطال أساها
 سوف أتجو من الغرام وأغدو * مُطلق النفس من قيود هواها
 فأستقي المرء من صدودك وأحكم * جائراً الحكم في ظلال صباها
 وقد حسب بعض الناقدين أن في هذا الشعر نذيراً بنقض العهد ، ووجود
 الود ، وليس الأمر كما يحسبون ، وإنما هي صورة لحالة من حالات
 النفس ، حين يشور الوجد ، ويتمنى الحب ليأسه لو أفلت من أشراك
 هواه ، وهيها هيهات !!

سيف الفراق

تتكلم في هذا الحديث عن وصف الشعراء لفتك الفراق بالنفوس
 وقتله للقلوب ، فنههم من يذكر تغثره في الطريق ، وضلاله عن القصد ،
 بعد فراق من يحب ، كما قال بعض الأعراب
 وما وجد مغلوب بصنعاء مؤثقي * بساقية من ثقل الحديد كبؤلي
 ضعيف الموالى مُسلمٌ بحريرة * له بعد نومات العيون عويل
 يقول له الجلاّد أنت مُعذبٌ * غداة غدٍ أو مُسلمٌ ققتيل
 بأوجع منى لوعة يوم راعني * فراق حبيبٍ ما إليه سبيل
 غداة أسيرُ القصد ثم تردّني * عن القصد لوعات الهوى فأميل

وهذه القطعة من غُرر الشعر، وهى آية فى وصف الحيرة يُرى بها الحب المشوق، بعد فراق لا يُرجى أن يعقبه لقاء. وتأمل كيف شبه حاله بحال مغلوب كَبَلٌ بالحديد، فى جريرة لا يثنى فى دفعها ضعف مواليه، وقد أصبح موضع التنذير من الجلاء فى كل صباح ومساء، وحسبُ الفراق أن يرى الحب فى مثل هذه الحال !

وأنشد الجاحظ

أزف الين المين * قطع الشكّ اليقين
حنّت العيش فأبكا * نى من العيش الحزين
لم أبكن لآكنت أدرى * أن ذا الين يكون
علمونى كيف أشتا * قُ إذا خفّ القطين

وكان أستاذنا الشيخ سيد المرصفي يسخر ممن يقول :

وأنا بكيت من الفراق * ففهل بكيت كما بكيت
ولطمت خدى خاليا * ومَرَسْتُه حتى أشتفيت
وعواذلى ينهينى * عمن هويت فإنتهيت
وأنا أحسب أن البكاء ولطم الخدود أهون ما يجرى بعد الفراق،
ويا ويلتاه من الفراق !

وما أصدق من يقول :

أمر معة ليلي بين ولم تمت * كأنك عما قد أظلك غافل
ستعلم إن شطت بهم غربة النوى * وزالوا بليلى أن قلبك زائل
ومن التيمين من يشجيه أن يقاسى أحبابه متاعب السفر،

ومشاق الشرى ، ومصاعب الادلاج . ثم يرجع إلى نفسه فيتوجع لحاله
بعد الفراق . كقول أبي تمام

لو كان في البين إذ باتوا لهم دعة * لكان بينهم من أعظم الضرر
فكيف والذين موصول به تعب * تكلف البيد في الادلاج والبكر
لو أن ما يتلىني الحادثات به * يكون بالماء لم يشرب من الكدر
أو كان بالعيس ما بي يوم رحلتهم * أعيت على السائق الحادي فلم تسر
كأن أيدي مطاياهم إذا وخذت * يقعن في حرّ وجهي أو على بصرى

وهذا شعر يذيب لفائف القلوب... وقال بعض المعذنين

قد قلت والمعبرات تسـ... فمعها على الخلد المآق

حين انحدرت إلى الجزيرة — رة واقطعت عن العراق

يا بؤس من سل الزما * ن عليه سيفاً للفراق

إلى والله

يا بؤس من سل الزما * ن عليه سيفاً للفراق

إنه لا محالة مقتول

وقد يلوم الحب نفسه على فراق أحبابه ، كالذي يقول :

أظعن عن حبيبك ثم تبكى * عليه فن دعاك إلى الفراق
كأنك لم تذق للبين طمعا * فتعلم أنه مر المذاق
أقم وأنعم بطول القرب منه * ولا تظن فتكبت بأشتياق
فما اعتاض المفارق من حبيب * ولو يعطى الشام مع العراق

ومثله من يقول

تطوى المراحل عن حبيبك دائماً * وتظل تبكيه بدمع ساجم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى * تشكو الفراق وأنت عين الظالم
هلاً أقت ولو على جر الغضى * قُلبتْ أو حذّ الحُسام الصارم
وما أوجع ما قالته إحدى النساء

ركنا كغصني بانهٍ وسَطَ روضةٍ * نشم شذا الأزهار في عيشة رغدٍ
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطعُ * فيأفردةً بانت تمنُّ إلى فردٍ
ولهذين البيتين قصة محزنة يضيق عن ذكرها المجال

الهرب من الفراق

وإذا كان ما تقدم هو حال المحبين يوم الفراق ، فليس يبدع أن
يهرب البحترى من منظر الوداع ، وأن يظرف حين يقول :
الله جارك في انطلاقك * لتلقاء شامك أو عراقك
لا تمذُلني في مسيرك يوم سرت ولم ألاقك
إني خشيت موافقاً * للبين تسفح غرب ما فاك
وعلمت ما يلقي المتيسم عند ضمك وأعتناقك
وعلمت أن لقاءنا * سبب اشتياق وأشتياقك
فتركت ذاك نعمداً * وخرجتُ أهرب من فراقك
وفي مقابل هذا المعنى يقول العباس ابن الأحنف وقد حُرِّم توديع
من يجب

كفى حزناً أنى بقيت وليس لى * سبيلٌ إلى توديعكم فأودّع
تلفتُ خلفى حيث لم تبق حيلةٌ * وذودت عيني نظرةً وهى تدمعُ

غراب البين

أكثر العرب من ذكر الغراب ، والنشأؤم من منظره ، حتى
ليقولون : غراب البين . فمن ذلك قول كثير :

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانهٍ * ينتفُ أعلى ريشه ويطايرةُ
فقلت ولو أنى أشاء زجرتهُ * بنفسى للهدى هل أنت زاجرتهُ
فقال غرابٌ لأغترابٍ من النوى * وفى البان ين من حبيب تجاورهُ
فما أعيفَ الهدى لادرّ درهُ * وأزجره للطير لاعزّ ناصرهُ
ومن الشعراء من أستخف بهذه الخرافة ، وسخر من المتطيلين

ورأى أن الإبل هى التى تفرق الأحباب . كقول أبى الشيص :

ما فرق الأحباب بمسد الله إلا الإبلُ

والناس يلحون غرا ب البين لما جَهلوا

وما على ظهر غرا ب البين تطوى الرّحلُ

ولا إذا صاح غرا بٌ فى الديار احتملوا

وما غراب البين الا ناقةٌ أو جمل

ومنهم من لا يميز ذم المطى ، لأن لها صلة بمن يحب . كالذى يقول :

زعموا بأن مطيهم عون النوى * والمؤذات بفرقة الاحباب
ولو أنّها حتفى لما أبغضتها * ولها بهم سببٌ من الاسباب

فقد العزاء

وقد يَمْنُفُ الهوى ويتسو ، حتى يذهب بحميل الصبر ، وحيد
العزاء ، فن العشاق من يفقد أصطبارَه عند الوداع . كقول ابن
نُبَاتَةَ السعدي :

كيف العزاء وأين بابه * والحى قد خفت رداية
بأغرّ منتقبٍ يَمُّ * على محاسنه تقابه
متأوّدٌ حلّو الشائل * من أساوره حِقَابُهُ (١)
زعم المخبر أنه * ضربت على سلم قبابه
فطلبتُه كالآيم أو * كالسيل في الليل أنسيابه
فاذا أحمّ المقلّبين يشين أنمله خضابه
يهتز مثل السمهرى * تدافعت فيه كعابه
وقف الولائد دونه * كالقلب يستره حجابهُ
أقبلت أسأله وأعـلم أن حرمانى جوابهُ
وبلى على متلون الأـخلاق يعجبه شبابه
لأرسلهُ تترى اليـسنا بالسلام ولا كتابهُ

وأحب أن يتأمل القارى هذه القصيدة البديعة ، وأن يتنبه إلى
دقة الوصف فى جميع ماعرّض الشاعر له . وعلى الأخص تلون
الأخلاق ، والزهو بالشباب ، فى أرباب الجمال !! وقال الشريف :

(١) الحجاب ما تشده للراة فى وسطها وتلق به الحلى

ورامين وهنًا بالجار وانما * رموا يز أحشاء المحبين بالجر
 رموا لا يبالون الحشا وتروحو * خلين والرامي يصيب ولا يدري
 وقالوا غداً ميعادنا النفر عن مئى * وما سرتنى أن اللقاء مع النفر
 ويا بؤس للقرب الذى لا ندوقه * سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر
 فيا صاحبي إن تخط صبراً فانتى * نزعته يدى اليوم من طاعة الصبر
 وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه * فيعاد دمع العين مُنقلب السفر
 وقد يستولى الحزن على القلب ، ويتغلغل في سويدائه ، حتى
 يئأس المحب من صلاحية فؤاده للسرور ، لو رجعت أسبابه ، كما قال
 بعض الشعراء :

كم أستراح الى صبرٍ فلم يُرح * صب اليك من الأشواق في رَح
 تركم قلبه من حزن فرقتكم * لو يرزق الوصل لم يقدر على الفرح
 وقال خالد الكاتب بفضل اللوعة على العزاء :

عانت نفسي في هوا * لك فلم أجدها تقبل
 وأطعت داعيها اليك فلم أطمع من يعذل
 لا والذي جعل الوجوه لحسن وجهك تمثل
 لا قلت إن الصبر عنك من التصابي أجل

وقال اسحق الموصلى في ذهاب الوداع بالصبر الجميل :
 تقصت لبيانات وجد رحيل * ولم يُشف من أهل الصفاء غليل
 ومدت أكف للوداع فصاغت * وفاضت عيون للفراق تسيل

ولابدّ للألّف من فيض عبّرة * اذا ما خليلُ بأن عنه خليلُ
فكم من دمٍ قد طلّ يومَ تحمّلتُ * أو انسُ لا يودى لهنّ قتيلاً
غداة جعلت الصبر شيئاً نسيتهُ * وأعولتُ لو أجدى على عويلُ
ولم أنس منها نظرةً هاج لي بها * هوّى منه بادٍ ظاهرٌ ودخيلُ
كما نظرت حوراء في ظلّ سِدرة * دعاها إلى ظلّ الكِناس مقيلاً
وابن زيدون يحمل صبره عن حبيبه كصبر الظّماء عن الماء ،
فيقول :

اليك من الأنام غدا آرتياحى * وأنت من الزمان مدى أقتراحى
وما اعترضت هموم النفس إلا * ومن ذكراك ريحاني وراحى
فديتك ان صبرى عنك صبرى * لدى عطشي عن الماء القراح
ولى أملٌ لو الواشون كفّوا * لأطلع غرسهُ ثمر النجاج
وأعجبُ كيف يغلبني عدوّ * رضاك عليه من أمضى سلاحى
فؤادى من أسى بك غير خالٍ * وقلبي من هوّى لك غير صاحى
قلو أسطيعُ طرت اليك شوقاً * وكيف يطير مقصوص الجناح
وبأسى ابن الدمينّة على أن لم يُغنه القرب ، ولم يسله البعد ،
فيقول :

وقد زعموا أن الحب اذا دنا * يملُّ وأن النأى يشقى من الوجده
بكلّ تداوينا فلم يُشفَ ما بنا * على ذاك قرب الداخير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافعٍ * اذا كان من تهواه ليس بنى عهد
وأوجع الشعر في فقد العزاء قول بعض الأعراب :

فيارب إن أهلك ولم تروها متى * بليلى أمت لا قبر أعطش من قبري
وإن ألك عن ليلى سلوت فأنما * تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر
وإن يك عن ليلى غنى وتجلد * قرب غنى نفس قريب من الفقر

بكاء الشباب

ولعل أشجى ما يمر بمخاطر المرء أن يهجره النيد بعد انصرام
الشباب ، والشباب هو شفيح الفتى الى قلوب الحسان ، فاذا مضى فقد
أصبح بلا شفيح ، والويل للمفرد المغلوب :

من أجل ذلك تفن الشعراء ، في بكاء الشباب ، والتذكّر له شيب .
فهم من تبيض في رأسه شعرة واحدة ، فلا يراها قليلة ، لأن قذى
العين غير قليل ، كما قال ابن الرومي :

طرفت عيون الغانيات وربما * أمالت إلى الطرف كل تميل
وما شبت إلا شيبة غير أنه * قليل قذاة العين غير قليل
وابن الرومي يكثر البكاء على شبابه ، ويعلل نفسه أحياناً بأن
الشيب في الرأس كالنور على الفصن : ويأسى كثيراً لاحتياجه الى
الخطاب ، الذي يراه أشبه بسواد الحداد ، يكاد يصرخ من خروجه الى
الحسان في شعر ميت ، وقلب حي ، والمحـب يتفجّر قلبه دائماً بالحياة
وانظر كيف يقول :

شاب رأسي ولات حين مشيب * وعجيب الزمان غير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيباً * أن يرى النور في القضيـب الرطيب
ساءها أن رأت حبيباً إليها * ضاحك الرأس عن مفارق شيب

يا حليف الخضاب لا تخدع النفس فما أنت للصبي بنسب
 ليس يُجدي الخضاب شيئاً من النفع سوى أنه حدادٌ كئيب
 لهفَ نفسى على القناع الذى مَحَّ * وأُعْقِبْتُ منه شرَّ عقيب^(١)
 منع العين أن تقرَّ وقرَّتْ * عين واشٍ بنا وعين رقيب
 شعرٌ ميتٌ لذى وطورٍ حيٍّ * كনার الحريق ذات اللهب
 ظلمتني الخطوب حتى كَأْنِي * ليس يبنى وينها من حسيب
 وما أروع قوله فى السُّخر من الخضاب

رأيت خضاب المرء عند مشيبه * حداداً على شرخ الشبيبة يُلْسُ
 وإلاّ فما يغزو امرؤٌ بخضابه * أيطمع أن يخفى شبابٌ مُدَّلسٌ
 وكيف بأن يخفى المشيب لخضاب * وكلّ ثلاث صبعه يتنفّسُ
 وهبته يوارى شبيهه أين ماؤه * وأين أديمٌ للشبيبة أملَسُ
 وقال أشجع السُّلَمي بوضي بأنتهاب اللذات ، قبل أن يقف فى سبيلها
 المحرّم والمشيب

ومالىّ لا أعطى الشباب نصيبه * وغُصناه يهتزّان فى عوده الرطب
 رأيت الليالى ينتهين شبيبتي * فأسرعت بالذات فى ذلك التهب
 رأيت بنات الدهر يخلسن لذنّى * لقد حزن سلمي وأنتهين إلى حربي
 وقد حولت حالى الليالى وأسرجت * على الرأس أمثال الفتيل من العطب
 وموت الفتى خيرٌ له من حياته * إذا كان ذا حالين يصيبو ولا يُعصبي
 وقال آخر فى صدوف النساء عن صرعى المشيب

هل الأدم كالآرام والدهر كاللثي * معاودتي أياهن الصوايح
 زمانَ سلاحى ينهن شيبتي * لها سائقٌ من حسنهن ورامحُ
 وأقسمَ لا يستينى قطرُ مِزَّةٍ * أشبى ولو سالت بهنَّ الابطاح
 وكان أستاذنا المرحوم فقيده اللغة والأدب الشيخ محمد المهدي بك
 كثير الإعجاب بقول أبي منصور النيرى فى الجزع على شبابهِ المفقود
 ماتنقى حسرةً منى ولا جَزَعُ * اذا ذكرت شباباً ليس يرتجعُ
 بان الشباب ونابتي بفرقتي * مخطوب دهرٍ وأيام لها خدعُ
 ما كنت أوفى شبابى كنه قيمته * حتى اتقى فاذا الدنيا له تبعُ
 تمجبت أن رأت أسراب دمعته * فى حلبة أخذ أجراها حشا وجعُ
 أصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم * تشجى بفصته والمذر لا يقعُ
 لا ألين فتانى غير كاذبة * عين الكذب فافى ودمك طمعُ
 ما بالشيبية من وان وإن رفعت * إلا لها نبوة عنه ومرتدعُ
 إني لمترف ماقى من أرب * عند الحسان فافى النفس منخدعُ
 قد كدت تقضى على فوت الشباب أسى * لولا أعزبك إن الامر منقطعُ

ويذكرون أن الرشيد سمع هذا الشعر ، وبكى له ، وأنشد
 أنا مل رجعة الدنيا سفاهاً * وقد صار الشباب إلى ذهاب
 فليت الباكيات بكل أرض * تجمعن لنا فنحن على الشباب
 ومن التعليل الكاذب قول البحترى فى مدح المشيب

عذلتنا فى عشقها أم عمرو * هل سمعتم بالماذل المشوق
 وراثة ألم بها الشيب فريمت من ظلمة فى شروق

ولعمري لولا الافاحي لا بصر * تَ أنيق الرياض غير أنيق
وسواد العيون لو لم يحاور * هُ يياض ما كان بالموموق
ومزاج الصبء بالماء أملئ * بصبح مُستحسن وغبوق
أئ ليل يبيغي بغير نجوم * أوسحاب يندى بغير بروق
ولكن ماذا يصنع الأشيب ، إن لم يغالط الحسان بهذه المعاذير ؟

بلايا الغيرة

ذكر هنا ما جرى في سبيل الغيرة من الدموع . وتتقدم ذلك
بقول بعض الأنداسيين وقد قيل من يهواه :
يارب إن قدرته لمقبل * غيري فلامسواك أوللاً كؤس
واذا قضيت لنا بصحبة ثالث * يارب فليك شمعاً في المجلس
واذا حكمت لنا بعين مراقب * يارب فليك من عيون النرجس
ألسن ترى الرعب وقد استولى على هذا الشاعر من أن نعم
بمحبته سواء ، فجعل يمتنى ، لو تنفع الأمانى ، أن لا يراقبهم غير النرجس ،
وأن لا يصحبهم غير الشمعة ، وأن لا يقبل محبوه غير الكأس
أو المسواك ؟

وقد جُنَّ العرب بالغيرة جنونا : فتخيلوا غسان بن جهم ينشد
زوجه من عالم الأرواح ، وقد زُفَّت الى غيره بعد موته بقليل :
غدرت ولم ترعى لبعلك حرمة * ولم تعرف حقاً ولم تحفظ عهدا
ولم تصبرى حولاً حفاظاً لصاحب * حلفت له يوماً ولم تنجزى وعدا

غدرت به لما ثوى في ضريحه * كذلك ينسى كل من سكن اللحدا
وتخيل رواية العرب ان موسى الهادي جاء الى جاريته (غادر) وقد
أقبلت من بعده على أخيه هرون فأشدها وهي نائمة هذه الآيات :

أخلفت عهدي بعد ما * جاورت سكان المقابر

ونكحت غادراً أخى * صدق النى سمالك غادر

لا يهنك إلا الف الجديد * ولا تم عنك الدوائر

ولحقت بي قبل الصبا * حوصرت حيث غدوت صائر

بعد هذا التمهيد يستطيع القارى أن يدرك لم حملت الغيرة عبد السلام
بن رغبان على قتل غلامه وجاريته !! وحديث هذا الشاعر عجيب : فقد
ذكروا أنه اشترى غلاماً وجارية ، ثم شغفاه حباً ، فكان يجلس للشراب
والجارية عن يمينه والغلام عن شماله !! ثم خشى أن يموت قبلهما فينعم
غيره بمألهما من روعة وجمال : فذبحهما وأحرقهما وصنع من ترابهما
أنتين للشراب !!

وكان ينشد حين يشرب من الآنية الى صنعها من تراب الغلام

هذه القطعة الباكية :

أشفقت أن يرد الزمان بغدره * أو أبتلى بمد الوصال بهجره

قررت قد أستخرجته من دجنه * لبلبى وأثرته من خدره

فقتله وله على كرامة * فله الحشا وله الفؤاد بأسره

عهدى به ميتاً كأحسن نائم * والحزن يسفح مدمعى فى نحره

لو كان يدري الميت ماذا بعده * بالحى منه بكى له فى قبره

غُصَصُ تَكَاد تَقِيضُ مِنْهَا نَفْسُهُ * وَيَكَادُ يَخْرُجُ قَلْبُهُ مِنْ صَدْرِهِ
ثُمَّ يَنْشُدُ حِينَ يَشْرَبُ مِنَ الْآتِيَةِ الَّتِي صَنَعَهَا مِنْ تَرَابِ الْجَارِيَةِ هَذِهِ
الْقِطْعَةَ الَّتِي يَنْدُرُ أَنْ يَجِدَ أَحَرَّ مِنْهَا فِي الرَّئَاءِ

يَا طَلْعَةَ طَلَعِ الْحَمَامِ عَلَيْهَا * فَجَنَى لَهَا ثَمَرَ الرَّدَى يَدَيْنِهَا
حَكَمْتُ سِنِي فِي مَجَالِ خِنَاقِهَا * وَمَدَامَنِي تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهَا
رَوَيْتُ مِنْ دَمِهَا الثَّرَى وَلَطَالَمَا * رَوَى الْهَوَى شَفَتِي مِنْ شَفَتَيْهَا
فَوْحَقَّ نَعْلَيْهَا وَمَا وَطَى الثَّرَى * ثِيءَ أَعْزَى عَلَى مَنْ نَعْلَيْهَا
مَا كَانَ قَتْلُهَا لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ * أَبْكِي إِذَا سَقَطَ الذَّبَابُ عَلَيْهَا
لَكِنْ بَخَلْتُ عَلَى الْوُجُودِ بِحُسْنِهَا * وَأَنْقَتُ مِنْ نَظَرِ الْعِيُونِ إِلَيْهَا
وَلَعَلَّ الظُّلْمَ لَمْ يَرْزُقْ حِجَّةً أَقْوَى مِنْ هَذِهِ الْحِجَّةِ ، وَلَا بُرْهَانًا أَسْطَعُ
مِنْ هَذَا الْبُرْهَانِ ! ! وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ سَكِينَةُ تَعِيبُ عَلَى جَرِيرِ قَوْلِهِ :

طَرَفْتُكَ صَائِدَةَ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا * وَقَتِ الزِّيَارَةِ فَارْجَمِي بِسَلَامٍ
وَكَانَتْ تَقُولُ : قَاتَلَهُ اللَّهُ مَا أَقْسَاهُ ! هَلَّا قَالَ : ادْخُلِي بِسَلَامٍ !

فَلَوْ سَمِعَتْ السَّيِّدَةُ سَكِينَةُ بِهَذَا الْمَحَبِّ السَّفَاحِ لَطَالَ بِكَأُوهَا عَلَى
صِرْعَى الْغَيْرَةِ ، وَقَتْلَى الْإِشْفَاقِ ! ! وَلَئِنْ كَانَ الْجَنُّونُ فَنُونًا كَمَا يَقُولُونَ ،
فَهَذَا وَدَبَّ السَّكْبَةُ أَغْرَبَ فَنُونَ الْجَنُّونِ ! وَكُنَّا نُوَدُّ لَوْ حَدَّثَنَا التَّارِيخُ عَنْ أَثَرِ
هَذِهِ الْأَعْجُوبَةِ فِي أَنْفُسِ مَنْ عَاصَرُوا ابْنَ رَغْبَانَ لَنَعْرِفَ رَأْيَهُمْ فِي الْجَنَائِزِ
عَلَى الْجَمَالِ ! أَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّ الْحَسَنَ حَالَ تَحْوِيلٍ ، وَدَوْلَةَ تَدْوِيلٍ ، حَتَّى تَسُوقَ
غَيْرَتَهُمْ إِلَيْهِ الْفَنَاءَ ؟ وَبِمَدِّ قَدَمِي عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ رَغْبَانَ هَذَا « دِيكَ
الْجَنِّ » وَانَّهُ فِي فِعْلَتِهِ هَذِهِ لِشَيْطَانٍ مُرِيدٍ ! !

هذا ، ومن الشعراء من يغارُ من عُود البشام حين يَسْتَاك به
الحبيب ، ومن العقدي يطوق به الحيد ، ومن النّقاب يحجب به الوجه
الجميل ، كما قال الشريف

ياغزال الجزع لو كا * نَ على الجزعِ لِعام
أحسد الطوق على جِيدِكَ والطوق لِرَامٍ
وأعْضُ الكفِّ إن نا * لَ ثناياك البشام
وأغار اليومَ إن مرَّ * على فيك اللثام
ومنهم من يغار من قيص حبيبه ، كما قال خالد الكاتب
محبكَ شَفَةُ أَلْمَةِ * وخامرَ جسمه سَقْمَةُ
وباح بما يُجَمِّعُهُ * من الأسرار مَكْتَمُهُ
أما تَرْنَى لمكتئبٍ * يحبك لِمه ودمُهُ
يغار على قيصك حين * تلبسه ويتهمه
وكما قال بعض الأعراب

أرى القميص على ليلي فأحسده * إن القميص على ما ضمَّ محسود
ومنهم من يغار على اسم محبوبه ، فيكنى عنه ، لئلا تتمتع به إلاّ ذان ،
كما قال البها زهير

وأُنْزِه أَسْمَكَ أن تمرَّ حروفُهُ * من غيرتي بمسامع الجلاسِ
فأقول بعض الناس عنك كنايةً * خوف الوُشاةِ وأنت كل الناسِ
وقد يغار المحب على حبيبه من نفسه ، كما قال أبو تمام

بنفسى من أغار عليه منى * وتحسد مقلتى نظرى اليه
ولو أنى قدرت طمست عنه * عيون الناس من حذى عليه
حيبٌ بثٌ فى قلبى هواهُ * وأمسك مهجتى رهناً لديه
فروحى عنده والجسم خالٍ * بلا روحٍ وقلبى فى يديهِ

الاستعطاف

نذكر هنا حيل العشاق فى لفت أنظار الأحباب اليهم ، وتوجيه
أفكارهم نحوهم ، حتى ينالوا طلبتهم من القرب ، وبغيتهم من الوصل ،
ولذلك حالات : فن العشاق من يقبّح لحييه المطل والخلف ، حتى يبرّ
بوعده ، وينى بمهده . كقول ابن الأحنف :

كأن لم يكن بينى وبينكم هوًى * ولم يك موصولاً بمحبكم حبلى
وإنى لأستحيى لكم من محدثٍ * يحدث عنكم بالملالة والمطل
وكقول الطغترانى :

ويأجبرنى بالجزع جسى بدمكم * نحيلٌ وطرفى بالسهاد كليل
عهدت بكم غصن الشبية مورقاً * نخان وختم والوفاء قليل
وأودعتكم قلبى فلما طلبته * مطلم وشر النارمين مطول
فان عدتم يوماً تريدون مهجتى * تمتعت إلا أن يقام كفيل
ومن التيمين من يُحرم كل شئٍ حتى الوعد فتراه لا يطلب الوفاء
ولا يقبّح الإخلاف ، وإنما يرجو وعداً يحلو به كربة قلبه ، ويطبق به نار
جواه ، لو تغنى الوعود !

وما أزال ألمح في عالم الخيال مجنون بني عامر، وقد صادف
في توحشه حى ليلي، ولقيها فجأة فمررها وعرفته، فصعق وخر مغشياً
عليه، وأقبل فتيان من حى ليلي فأخذوه، ومسحوا التراب عن وجهه
وأسندوه إلى صدورهم، وسألوا ليلي أن تقف له وقفة افرقت لماراته
وقالت أما هذا فلا يجوز أن أفتضح به: ثم قالت لجاريتها: إذهبي إلى
قيس فقولى له: ليلي تقرأ عليك السلام، وتقول لك: أعز علي بما
أنت فيه! ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسى! فضت
الوليدة إليه وأخبرته بقولها فأفاق وجلس، وقال: أبلغها السلام،
وقولى لها هيهات هيهات! إن دأى ودوائى أنت، وإن حياى ووفاى
لنى بديك، ولقد وكلت بى شقاء لازماً وبلاء طويلاً، ثم بكى،
وأنشأ يقول:

أقول لأصحابى هي الشمس ضوؤها * قريب ولكن في تناولها بعد
لقد عارضتنا الريح منها بنفحة * على كبدى من طيب أرواحها برّد
فما زلت مغشياً على وقد مضت * أناة وما عندى جواب ولا رد
أقلب بالأيدى وأهلى بودم * يفدوني لو يستطيعون أن يفدوا
ولم يبق الا الجلد والعظم عارياً * ولا عظم لى إن دام ما بى ولا جلد
أدنياى مالى فى انقطاعى ورغبتى * اليك ثواب منك دين ولا تقد
عدينى بنفسى أنت وعداً فرىما * جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد
غزتنى جنود الحب من كل جانب * اذا حان من جند قفول اتى جند
والبيت الأخير أعجوبة من أعاجيب الخيال، فما زال المحبون

صرعى مساكين ، إن قفلت عنهم جنود الحدود ، غزتهم جنود العيون
ويرحم الله من تألبت عليه جنود الحب جميعاً حتى ذهبت بلبه ، ولم
يبق إلا أن تنكسر النصال على النصال !

وقد يستعطف المقيم المحزون ولكنه لا يطلب وعداً يطارد به
جيوش الأحزان ، ولا يرجو الوفاء بوعده كان يهتدى به في ظلمات
الشبجون ، وإنما يلهج ، وقد يكون التلميح ، أبلغ من التصريح . فيذكر
أن الحسن يمدق به من كل جانب ، ولكنه لا يصبو ولا يميل
لأنه بمن يحب مشغول . وانظر قول الأبيوردى في هذا المعنى البديع :
وقتكَ الردي يضُّ حسانُ وجوها * ومثربةٌ من نضرةٍ وجمالِ
طلعن بدوراً في دجى من ذوائب * وميسن غصوناً في متون رمالِ
أرى نظرات الصب يعثرن دونها * بأعراف جرِّدٍ أو ردوس عوالِ
عرضن على الوصل والقلب كله * لديكِ فأتى . يبتغين وصالى
ولولاك ما بعت العراق وأهله * بوادى الحمى والمنايا بضالِ
فما لنساء الحمى يضمرن غيرة * سبها العوالى ما هن وما لى
ولو خالفتى في متابعة الهوى * يمينى ما واصلتها بشمالى
وفيك صدودٌ من دلالٍ أظنه * على ما حكى الواشى صدود ملالِ
وقد يتمنى الحب أن يمرض ليعوده الحبيب . واليك قول ابن الخياط :
أحنُّ إلى سقى لملك عائدى * ومن كلف أُنَى أحنُّ إلى السقمِ
وحتامٌ أستشفى من الداء ما به * سقامى وأستروى من الدمع ما يظمى
فراق أُنَى في إثر هجرٍ وما أذى * بأوجعٍ من كلمٍ أصاب على كُلمِ

مسكين هذا المحب ، يتمنى المرض ليعاد ، فهل يعلم أن من
المحبين من أشقاه المرض ، فلم يسعده العُود . وهل أتاه حديث
ابن الأحنف وقد لجّ به المرض فأخذ يهذى بهذا الشعر الباكى الحزين :
أهابك أن أشكو إليك وليس لى * يدٌ بالذى ألقى وأخفى من الوجدرِ
وانى لصادى الجوف والماء حاضر * أراه ولكن لا سبيل الى الورْدِ
وما كنت أخشى أن تكون منيتى * بكف أخص الناس كلهم عندي
وهل وصلت اليه تلك الوصية البديعة التى بعث بها ابن الأحنف
الى حُجاج البيت الحرام وقد توقع أن يمروا بدار هواه ؟
انظر الى ذلك العليل ، وقد خفى الداء ، وتعدّر الشفاء ، وكلما عُصر
الماء فى فيه مجّه ، كما يفعل الطفل الغرير ، وقد ذهب العلة بحمال نظراته ،
وسحر بَسماته ، وان نودى لم يجب بغير الأنين ، انظر اليه وقد تنقّى
جرعة مُرَجّتْ بريق حبيبته يحملها اليه الحجاج فى زجاجة ! ولو أمكن
أن تنقل اليه النظرة ، لرجاهم أن يحملوا اليه نظرة ، ولو خلق الفنوغراف
فى ذلك الحين لرجاهم أن ينقلوا اليه نعمة من نفائس العذاب ! ولو مهر
المصورون اذ ذاك لكلفهم أن يصوروا مشيتها الفتاة فى الضحى
والاصيل ! انظر اليه وهو يرجوهم أن يتعللوا عند أهله فيذكروا أن
تلك الجرعة العذبة انما هى من ماء زمزم ! ويحك ، وأين ماء زمزم الملح
الأجاج ، من ماء ذلك الشجر العذب الفرات ؟ انظر اليه وقد أوصاهم أن
يرشوا ريق من يهوى على وجهه ، فان صادفوه ميتاً فليرشوه على قبره !
انظر كيف يقول :

أَزْوَارَ رَيْتَ اللَّهِ مُرُوا يَثْرِبَ * لِحَاجَةِ مَتَبُولِ الْفَوَادِ كَثِيبَ
 وَقُولُوا لَهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبِ اسْعُدُوا * عَلَى جَلَبِ الْحَادِثَاتِ جَلِيبَ
 فَأَنَا تَرَكْنَا بِالْعِرَاقِ أَخَا هَوًى * تَنْشَبَ رَهْنًا فِي حِبَالِ شَعُوبِ
 بِهِ سَقَمٌ أَعْيَا الْمَدَاوِينَ عِلْمُهُ * سَوَى ظَهْمٍ مِنْ مَخْطِئِهِ وَمَصِيبِ
 إِذَا مَا عَصَرْنَا الْمَاءَ فِي فِيهِ مَجَّةُ * وَإِنْ نَحْنُ نَادِيْنَا فَفِيرٍ مَجِيبِ
 خَذُوا لِي مِنْهَا جَرْعَةً فِي زَجَاجَةٍ * أَلَا إِنَّهَا لَوْ تَعْلَمُونَ طَبِيبِ
 وَسِيرُوا فَإِنْ أَدْرَكْتُمْ بِي حُشَاشَةً * لَهَا فِي نَوَاحِي الصَّدْرِ وَجَسَ دَيْبِ
 فَرَشُوا عَلَيَّ وَجْهِي أَفْقَ مِنْ بَابِي * يَثْبِيتُكُمْ ذُو الْعَرْشِ خَيْرَ مَثِيبِ
 فَإِنْ قَالَ أَهْلِي مَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ * وَقَدْ يَحْسُنُ التَّعْلِيلُ كُلَّ أَرِيبِ
 فَقُولُوا لَهُمْ جِئْنَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ * لِنَشْفِيَهُ مِنْ دَائِهِ بِذُنُوبِ
 وَإِنْ أَنْتُمْ جِئْتُمْ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَكُمْ * وَيَنِي يَوْمٍ لِّلْعَنُونَ عَصِيبِ
 وَصَرْتُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى قَمَرِ حَفْرَةٍ * حَلِيفَ صَفِيحٍ مَطْبُوقِ وَكَثِيبِ
 فَرَشُوا عَلَيَّ قَبْرِي مِنَ الْمَاءِ وَأَنْدَبُوا * قَتِيلَ كَعَابٍ لَا قَتِيلَ حُرُوبِ
 وَكَانَ ابْنُ الْأَحْنَفِ هَذَا يَسْتَعْطِفُ فَلَا يَرْجُو شَيْئًا ، وَلَا يَخَافُ
 شَيْئًا ، وَكُلُّ مَنْهُ أَنْ يَعْلَمُ فَاَنْتَوَهُ أَنَّهُ يَحْبِبُهُمْ ، وَأَنْ يَسْمَعُوا صَوْتَ مَا يُمَجِّدُ ،
 وَإِنَّهُ لِمَطْلَبُ زَهِيدٍ ، وَلَكِنَّهُ قَدْ لِي صَبْحُ صَعْبِ الْمَنَالِ ، وَانْظُرْ هَذِهِ الْآيَاتِ
 الَّتِي يَنْدُرُ أَنْ نَجِدَ مِثْلَهَا فِي تَصْوِيرِ الْمَحَبِّ وَقَدْ خَلَّاهُ مِنْ أَذْكَوَا نَارِ جَوَاهِ ،
 وَتَرَكُوهُ يَتَلَوَّى وَيَتَمَلَّلُ ، فَوْقَ جَمْرِ الْهَوَى وَجَمْرِ الصَّدُودِ :

أَبْكَى الَّذِينَ أَذَاقُونِي مَوَدَّتَهُمْ * حَتَّى إِذَا أَقْطَعُونِي لِلْهَوَى رَقْدُوا
 وَاسْتَهْضُونِي فَلَدَا قَتَ مَتْنَصِبًا * بِثَقْلِ مَا حَمَلُونِي فِي الْهَوَى قَعْدُوا

جاروا على ولم يوفوا بعهدهم * قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا
لأخرجن من الدنيا وحبكم * بين الجوانح لم يشعر به أحد
حسبي بأن تعلموا إن قد أحبكم * قاي وأن تسمعوا صوت الذي أجد



ومن حسن الاشارة قول ابراهيم بن المهدي .
يا غزالاً لى اليه * شافع من مقلتيه
والذى أجلت خديته فقبلت يديه
بأبي وجهك ما أكثر حسادي عليه
أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إلى
والاحسان الذى يجرؤه هذا الشاعر يذكركنا بقول بعض الاعراب :

آل ايلي إن ضيفكم * واجد بالحي مذللا
أمكنوه من ثنيها * لم يرد خيراً ولا عسلاً
ومن جميل الاستعطاف قول ابن زيدون :

يا هلالاً تراء * نفوس لا عيون
عجيباً للقلب يقسو * منك والعطف يلين
ما الذى ضرك لو سرت * بمرآك الحزين
وتلطفت بصبر * حينه فيك يحين
فوجوه اللطف شتى * والمعاذير فنون

وما أوجع الأسي في قول ابن هاني :

يَابَنْتَ ذِي الْبُرْدِ الطَّوِيلِ نَجَادُهُ * أَكْذَا يَجُورُ الْحَكَمُ فِي نَادِيكَ
عَيْنَاكَ أَمْ مَغْنَاكَ مَوْعِدُنَا وَفِي * وَادِي الْكُرَى أَقْصَاكَ أَمْ وَادِيكَ
مَنْعُولُكَ مِنْ سِنَةِ الْكُرَى وَسَرَا فُلُو * عَثَرُوا بِطَيْفٍ طَارِقٍ ظَنُّوكُ
وَدَعَوُكَ نَشْوَى مَا سَقَوْكَ مُدَامَةً * لَمَّا تَمَائِلَ عِطْفِكَ أَتْهَمُوكُ
حَسَبُوا التَّكْحُلَ فِي جَفُونِكَ حَلِيَّةً * نَالَهُ مَا بَأَ كَفْهِمْ كَحُلُوكُ
وَجَلَّوْكَ لِي إِذْ نَحْنُ غُصْنَا بَانَةً * حَتَّى إِذَا أُحْتَفِلَ الْهَوَى حَبِيْبُوكُ

وَيَنْدُرُ أَنْ تَجِدَ بَيْنَ الْأَدْبَاءِ مَنْ لَا يَحْفَظُ قَوْلَ ابْنِ الطَّيْرِ

عُقَيْلِيَّةُ أَمَّا مَلَأْتُ إِزَارَهَا * فَدِعْصُ وَأَمَّا خَصَرُهَا فَبَيْتِلُ
تَقِيظُ أَكْنَافَ الْحَمَى وَيُظْلِمُهَا * بَنَمَانُ مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ مَقِيلُ
أَلَيْسَ قَلِيلاً نَظْرَةً إِنْ نَظَرْتَهَا * إِلَيْكَ، وَكَلَّا لَيْسَ مِنْكَ قَلِيلُ
فِي أَخْلَةِ النَّفْسِ الَّتِي لَيْسَ دُونَهَا * لَنَا مِنْ أَخْلَاءِ الصَّفَاءِ خَلِيلُ
وَيَا مَنْ كَتَمْنَا حَبَّهُ لَمْ يُطْعَ بِهِ * عَدُوٌّ وَلَمْ يَثْمَنْ عَلَيْهِ دَخِيلُ
أَمَّا مَنْ مَقَامٍ أَشْتَكِي غُرْبَةَ النَّوَى * وَخَوْفَ الْعَدَا فِيهِ إِلَيْكَ سَبِيلُ
فَوَادِي أُسِيرُ لَا يُفَكُّ وَمَهْجَتِي * تَقْيِضُ وَأَحْزَانِي عَلَيْكَ تَطْوِيلُ
وَلِي مَقَلَةٌ قَرَحَى لَطَوْلَ أَشْتِيَاقِهَا * إِلَيْكَ وَأَجْفَانِي عَلَيْكَ هُمُومُ
خَدَيْتِكَ أَعْدَائِي كَثِيرٌ وَشَقَّتِي * بَعِيدٌ وَأَشْيَاعِي لَدَيْكَ قَلِيلُ
وَكَنتَ إِذَا مَا جِئْتَ جِئْتَ بَعْلَةً * فَأَنْتِ عِلَاتِي فَكَيْفَ أَقُولُ
فَا كُلُّ يَوْمٍ لِي بِأَرْضِكَ حَاجَةٌ * وَلَا كُلُّ يَوْمٍ لِي إِلَيْكَ رَسُولُ
صَحَائِفُ عِنْدِي لِلْعَتَابِ طَوْبُهَا * سَتَنْشُرُ يَوْمًا وَالْعَتَابُ طَوِيلُ
خَلَا تَحْمِلِي ذَنْبِي وَأَنْتِ ضَعِيفَةٌ * فَعَمَلُ دِي يَوْمِ الْحِسَابِ ثَقِيلُ

ولنختم هذا الباب بقول صاحب البدائع :

أَجْنَبِي إِنْ تَفَضَّلْتَ * عَلَى الْمَسْكِينِ بِالرَّدِّ
أَأَنْسَى الدَّهْرَ مَا جَدْتَ * بِهِ عَيْنَاكَ مِنْ وَعْدٍ ؛
وَأَرْسِمُ لِلْعَنَى حَدًّا * وَمَا لُجْوَايَ مِنْ حَدٍّ ؛
وَأَقْنَعُ بِالرَّدَى وَرَدًّا * وَغَيْرِ سَائِلِ الْوَرْدِ ؛
وَأَرْضَى بِاللَّظَى مَثْوًى * وَوَجْهَكَ جَنَّةَ الْخُلْدِ ؛
وَفِيَّا حَافِظًا أَشَقَى * لِيَسْمَعَ نَاقِضَ الْعَهْدِ
وَصَبًّا وَهَلَا أَفْنَى * لِيَبْقَى جَاوِدَ الْوُدِّ
فِيَا وَيْلَاهُ مِنْ حَبِيرٍ * سَحَلْتُ بِلَاءَهُ وَحْدَى ؛
أَعِدُّ لِحُلَاهُ جُهْدِي * فَيَصْعَقُ بِطُشِهِ جُهْدِي

الحنين

هل أناك حديث الصِّمة بن عبد الله وقد خطب ابنة عمه ، وكان لها محبًّا ، فاشتط عليه عمه في المهر ، فاستعان بأبيه وكان مثيرا فلم يعنه ، فأمّ عشيرته فأسفوه ، ثم ساق الابل إلى عمه ، فقال لا أقبل هذه في مهر ابنتي ، فسل أباك أن يُبَدِّلَها لك . فسأل أباه ذلك فأبى عليه ، فلما رأى ضنَّ أَيْيَسِه وإِيَاءَ عمه قطع عقلها وخلّاها فماد كل بعير إلى أهله ... ويروى أن أباه أعطاه تسعة وتسعين بعيرا فأبى عمه إلا مائة وحلف أبوه لا يكملها . فقال الصِّمة : والله ما رأيت الأم منكبا ، واني لألأم

منكما جميعاً أن أمت بينكما . ثم رحل الى الشام . فقالت ابنة عمه : تالله ما رأيت كالיום رجلاً باعته عشيرته ببيع ١١

تأمل أيها القارئ هذه القصة الوجيزة ، وأكملها بما لديك من وثبات الخيال ، ولا تطالبي بأكثر من هذا الإيجاز ، فانما اتخذها مقدمة لدرس قصيدة الصمة في الحنين ... ألم تر إليه وقد طالت غربته ، فعبث الشوق بقلبه ، وأعادته ذكرى أحبابه وأوطانه . فقال يعاتب نفسه ، ويحاور فؤاده :

أمن ذكر دار بالرقاشين أصبحت * بها عاصفات الصيف بدءاً ورجعاً
حننت إلى رياً ونفسك باعدت * مزارك من ريا وشعباً كما معا
فاحسن أن تأتي الأمر طائماً * وتجزع إن داعي الصباية أسمما
ثم أخذ يخاطب رفيقه — وقد بالغ في لومه وأطلا في تأنيبه — فقال :

ألا يا خليلي اللذين تواميا * بلوى إلا أن أطيع وأتبع
فقال إنه لا بد من رجح نظره * يمانية شتى بها القوم أومعا
لمتصّب قد عزه القوم امرأة * حياء يكف الدمع أن يتطلعا
ثم شرع في تمجيزهم وتئيسهم فقال :

فإن كنتم ترجون أن يذهب الهوى * يقيناً وزوى بالشراب فننمعا
فردوا هبوب الريح أو غيروا الجوى * إذا حلّ ألواذ الحشا فتنمعا
ومن يستطيع ذلك ؟ تالله ما العاذل وإن اشتط في عدله ، وبالغ في لومه ، بقادر على نسيانك ، أو سلوانك :

ظنَّ الهوى لبسةً تبلى فيخلعها * فكان في القلب مثل القلب في البدن
ثم عاد الى رفيقيه يسألهما الإِسعاد والإِنجاد

فقاودعنا نجدًا ومن حلَّ بالحمى * وقلَّ لنجدٍ عندنا أن يُودَّعًا
مسكين ! وقل لنجد أن يُودَّع ! إذنْ فما كنت صانعًا لو أنصفته ؟
أكنت تُعرب في البكاء والإِعوال حتى يرحمك أعداؤك ، وبرئى لك
حاسدوك ؟ أم كنت تقتل نفسك جوًى وحزنا ؟ ثم قال :

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الرثي * وما أجمل المُصطافَ والمتربعا
وليست عشيَّات الحمى برواجع * اليك ولكن خلَّ عينيك تدمعا
اتق الله في نفسك يا ابن عبد الله وارحم شبابك وصبرك

واستبق دمعك لا يودى البكاء به * واكفَّ مدامع من عينيك تستبقُ
فما الشئون وإن جادت بياقية * ولا الجفون على هذا ولا الحدقُ
ثم أخذ يصف موقفه وقد حال (البشر) بينه وبين أحبابه ،
وأوطانه . فقال :

ولما رأيت (البشر) أعرض دوننا * وحالت بنات الشوق يحننُ نزعًا
بكيت عينيَّ اليسرى فلما زجرتها * عن الجهل بعد الحلم أسبلتنا معا
وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذا الخيال ، وهو عندى من
دلائل الولوة ، وعلامُ الصباية المضلة . ثم قال في وصف ملاقى في تلفته
من العنت :

تلفتُ نحو الحمى حتى وجدنى * وجعت من الإِصغاء لبيتنا وأخذنا
وهو معنى جميل نال في هذا البيت حظه من البيان . وقد تبعه

الشريف الرضى فأبدع وأجاد في قوله :

ولقد مررت على ديارهم * وربوعها بيد البلى نهَبُ
فوقفت حتى ضجَّ من لُغَب * نضوى ولجَّ بعذلى الركب
وتلفتت عيني فذ خَفَيْتُ * عنى الربوع تلفت القلب

ويمتاز بيت الصمة بتمثيله ما يعرف الناس في مثل هذه المواقف
من ظاهر التعب . فأما بيت الشريف فلا يعرف حسنه غير من كابد
الشوق وعانى الصبابة . ثم قال الصمة في تمة الحديث عن جواه :

وأذكر أيام الحمى ثم أثنى * على كبدي من خشية أن تصدعا
ولم أر هذا المعنى لأحد قبل الصمة . وقد اكمله ابن نباتة السعدي
بقوله :

أضمر على قلبي يدى مخافة * إذا لاح لي برق من الشرق لامع
وهل ينفع القلب الذى بان إلفه * إذا طار شوقاً أن تضم الأضالع
ومن الحنين قول ابن عبدربه :

ودعنى بزفرة واعتناق * ثم نادى متى يكون التلاق
وبدتلى فأشرق الصبح منها * بين تلك الجيوب والاطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم * بين عينيك مصرع العشاق
ان يوم الفراق أقطع يوم * ليتنى مت قبل يوم الفراق

لأن الشاعر قد يرثى فياً أخذ في ذكر المعاهد والعهود ، وقد
يظمن حبيباً ويقيم ، فياً أخذ في الإحوال عليه ، والحنين إليه ، وهناك من
غرائب الهوى وعجائب الصبابة حالة ثالثة ليست أقل من سابقتها جوياً

وحزنًا، بل ربما كانت أكثر حيرة : وهي أن يلتقى الركبان وفيهما
 محب ومحبوب ، ثم يفترقان قبل أن يتلاقى الصبيان ، ويجتمع الخلّان ،
 فلا يدري العاشق أىّ عهد يسكى ، وأى حظ يندب ، كما لا يعرف أيلوم
 نفسه لأنه ظعن وترك حبيبته مقبياً ، أم يشكو دهره لأن حبيبته سار
 وخلفه ، أم يُعول إعوالاتاً مُبهماً لا يعرف مصدره ، ولا يفهم مبعثه ،
 والشعر في هذا المعنى أقرب إلى الذكرى منه إلى الحنين ، ومن الجديد فيه
 قول الأرجاني :

أستودع الله قوماً كيف أبعدنا * تقلّب الدهر منهم حين أدنا
 زموا الغداة مطاياهم لفرقتنا * لما آتخنا للقيام مطايانا
 لم تستبك بعداً طناب الخيام لنا * ولا المنازل ضمتهم وإيانا
 لكنهم عاجلون بالتوى ومضوا * وخلفوا الطرب المشتاق حيرانا
 لم يملأ العين من أحبابه نظراً * إذ غادر الدمع منه الجفن ملأنا
 وإني موافيك بيديع الشعر وشجيه ، فيما يمثل جال المحب نأى عنه
 حبيبته ، أو خلف أحبابه وسار ، فن الأول قول سبط بن التماويذى :
 أعود أياي برامةً بعد ما * سكنت يجرعاء الحى آرامها
 وأحلها البين المشت محلةً * بعدت مرامها وعزّ مرامها
 سارقتها نظر الوداع فارتوت * نفسٌ يزيد على الورود هيأها
 يا غادرين وغادروا بجوانحي * لبعادهم ناراً يُشبّ ضرامها
 بنم فلا عيني تحفّ غروبها * أسفاً ولا كبدي يُبلّ أوامها
 جودوا لعين المستهام بهجمةٍ * فمسي تشلكم لها أحلامها

لا تلتفوا بالبين مهجة عاشق * سيان بين حميمها وحمائمها
أعداه من هيف الخصور نحو لها * يوم النوى ومن العيون سقامها
ولم أجد في هذا المعنى أشجى وأوجع من قول بعض المتيمين :
لبكاء هذا اليوم صنت مدامي * وكذا العزير لكل خطب يذخر
ياسا كنى وادى العقيق فدنكم * عين مدامها عقيق أحر
بنم فاستعذبت بعد حديثكم * لفظاً ولم يحسن لعيني منظر
والبيت الأخير مأخوذ من قول ابن أبي ربيعة :

لم يحجب القلب شيئاً مثل حبكم * ولم تر العين شيئاً بعدكم حسناً
فأما شعر من نأوا عن أحبابهم ، وخلوا معاهد أنسهم ، فهو كثير ،
ومن جيده قول الأبيوردى يتشوق الى أحبابه وقد خلاهم ببغداد :
ألا ليت شعري هل أراني بغيضة * أيت على أرجائها وأقيل
هواة كأيام الهوى لا ينبه * نسيم كلحظ الغايات عليل
وعصر رقيق الطيرتين تدرجت * على صفحتيه نضرة وقبول
وأرض حصاها لؤلؤ وراياها * توضع مسكاً والمياه شمول
بها العيش غص والحياة شية * وليلى قصير والهجير أصيل
فقل لأخلاقى ببغداد هل بكم * سلو فمندی رنة وعويل
ترنخي ذكراكم فكأنما * تمل بي الصبياء حيث أميل
لئن قصرت أيام أنسى بقر بكم * فليلى على نأى المزار طويل
وقال اعرابي من بني عقيل :

أحن الى أرض الحجاز وحاجتي * خيام تنجد دونها الطرف يقصر

وما نظرى نحو الحجاز بنافى * بشىء ولكنى على ذاك أنظر
أنى كل يوم نظرة ثم عبرة * لمينيك يجرى ماؤها يتحدّر
متى يستريح القلب إمّا مجاور * حزين إمّا نازح يتذكّر
وقال آخر فى الحنين إلى أيامه السوالف :

سقى الله أياماً لنا قد تتابعت * وسقياً لعصر العامرة من عصر
ليالى أعطيت البطالة مقودى * تمرّ الليالى والشهور ولا أدرى

ومن شائق الحنين قول ابن الدمينّة

ألا لأرى وادى المياه يثيب * ولا النفس عن وادى المياه تطيب
أحب هبوط الوادين وانى * لمشتهر بالوادين غريب
أحقاً عباد الله أن لست وارداً * ولا صادراً إلا على رقيب
ولا زائراً فرداً ولا فى جماعة * من الناس إلاقيل أنت مُريب
وهل ريبة فى أن تحنّ نجية * إلى إلفها أو أن يحنّ نجيب
وإن الكتيب الفرد من جانب الحى * إلى وإن لم آتِه الحبيب
لك الله أنى واصل ما وصلتنى * ومُنن بما أوليتنى ومثيب
وأخذ ما أعطيت عفواً وإنى * لأزورّ عما تكرهين هيوب
فلا تتركى نفسى شعاعاً فلها * من الوجد قد كادت عليك تذوب
وإنى لأستحييك حتى كأنما * على يظهر الغيب منك رقيب

وفى هذا المعنى يقول صاحب البدائع

تجملّ بالسماح ودع ملاهى * وكنّ عَوْن الحبّ المستهام
ففى أسيوط لو تدرى حبيب * هجرت لبعده طيب المنام

أَسِيتَ لَهُ يَحْنُ إِلَى لِقَائِي * وَدُونَ مَرَامِهِ كَيْدُ الثَّامِ
إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ وَنَامَ صَحْبِي * مَشَتْ نَارُ التَّذَكُّرِ فِي عِظَامِي
سَلَامٌ أَيُّهَا الثَّانِي سَلَامٌ * وَهَلْ يَفْنَى عَنِ اللَّقْيَا سَلَامِي

الرفق بالحبيب المريض

وهذا باب تتجلى فيه رقة القلوب ، فمن ذلك قول خالد الكاتب
يَحْسَى لَا يَحْسَمُكَ يَا عَلِيلُ * وَيَكْفِينِي مِنَ الْأَلَمِ الْقَلِيلُ
تَعْدَاكَ السَّقَامُ إِلَى إِنِّي * عَلَى مَا بِي لَشَدَّةِ سَهْوِ
إِذَا مَا كُنْتُ يَا أَمَلِي صَحِيحًا * بِخَالْفَنِي وَسَالَمَكَ النُّحُولُ
وهذه أبيات ضعيفة ، لا تتناسب مع شاعرية من يقول :
وَحَسْبُكَ حَسْرَةٌ لَكَ مِنْ حَبِيبٍ * رَأَيْتُ زَمَامَهُ يَبْدُو عَدُوَّ
وَقَدْ تَمْنَى الْمَحَبَّ لَوْ أَغْنَى الْمَرَضُ مَحْبُوبِهِ ، وَرَكَعَ كَيْفَ شَاءَ فِي الْأَجْسَامِ
الدميمة ، كما قال سُحَيْمٌ

مَاذَا يَرِيدُ السَّقَامُ مِنْ قَرِي * كُلُّ جَمَالٍ لَوَجْهِهِ نَبْعُ
مَا يَرْتَجِي ، خَابَ ، مِنْ مَحَاسِنِهَا * أَمَالُهُ فِي الْقُبَاحِ مُتَسَعُّ
لَوْ كَانَ يَبْنِي الْفِدَاءَ قُلْتُ لَهُ * هَا أَنَا دُونَ الْحَبِيبِ يَا وَجَعُ
وَمَا أَرْقُ مَا يَقُولُ ابْنُ الْأَحْنَفِ

إِنِ الَّتِي هَامَتْ بِهَا النَّفْسُ ■ عَاوَدَهَا مِنْ سَقَمِهَا نُكْسُ
كَانَتْ إِذَا مَا جَاءَهَا الْمَبْتَلَى * أَبْرَأَهُ مِنْ رَاحَتِهَا اللَّمْسُ
وَأَبْأَى الْوَجْهِ الْمَلِيحِ الَّذِي * قَدْ عَشَقْتَهُ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ

إن تكن الحمى أضرت به * فربما تنكسف الشمس
وانظر جمال الرفق في قوله :

أما والله لو تجدني وجلي * لقلقل ما وجدت إذ أحشاك
وقاك الله كل أذى بنفسي * وعجل يا ظلوم لنا شفاك
وأنشد أبو الحسن بن البراء :

فديتك ليلى مدمرصة طويلاً * ودمعي لما لاقيت فيك همولاً
أأشرب كأساً أم أسر بلذة * ويمعيني ظبي أغن كحيل
وتضحك سني أو تجف مدامي * وأصبر إلى لهو وأنت عليل
ثكلت إذا نفسي وقامت قيامي * وغالت حياتي عند ذلك غول
وقال يوسف بن إبراهيم الفرناطي يخاطب الوزير ابن الحكم وقد
أصابته حمى تركت على شفته بشورا

حاشاك أن تمرض حاشاك * قد اشتكى قلبي لشكواكا
إن كنت محموماً ضعيف القوى * فاني أحسد حماك
مارضيت حماك إذ باشرت * جسمك حتى قبلت فاك
وهذا الشعر وإن كان خطاباً لوزير إلا أن فيه سمات التشبيب :

الذبول والنحول

وقد يأسى الشعراء لما عانوا في الحب من الضمور والشحوب ،
فيرى بعضهم أنه لم يبق له لحم ولا دم ؛ كما قال المؤمل :

حَلُمْتُ بِكُمْ فِي نَوْمِي فَغَضِبْتُمْ * وَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ كُنْتُ فِي النَّوْمِ أَحْلُمُ
سَأُطْرِدُ عَنْ النَّوْمِ كَيْلَا أَرَاكُمْ * إِذَا مَا أَتَانِي النَّوْمُ وَالنَّاسُ نَوْمُ
تُصَارِمُنِي وَاللَّهُ يَعْلَمُ أُنْتَى * أَبْرُ بِهَا مِنْ وَالِدِيهَا وَأَرْحَمُ
وَقَدْ زَعَمُوا لِي أَنَّهَا نَذَرَتْ دَمِي * وَمَالِي بِحَمْدِ اللَّهِ لَحْمٌ وَلَا دَمٌ
بَرَى جِهَا لَحْمِي وَلَمْ يُبْقِ لِي دَمًا * وَإِنْ زَعَمُوا أَنِّي صَبِيحٌ مُسَلَّمٌ
فَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْحَبِّ صَحَّ سَقِيمُهُ * وَلَا مِثْلَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْحَبَّ يَسْقُمُ
سَتَقْتُلُ جَلْدًا بَالِيًا فَوْقَ أَعْظَمِهِ * وَلَيْسَ يَبَالِي الْقَتْلَ جَلْدٌ وَأَعْظَمُ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَبِيلِي جِسْمَهُ ، وَلَا يَبِيلِي شَوْقَهُ ، كَمَا قَالَ أَبُو تَمَامٍ :

يَاجْفُونَا سَوَاهِرًا أَعْدَمْتُمَا * لَذَّةَ النَّوْمِ وَالرُّقَادِ جُفُونُ
يَلِي الْجِسْمُ لَكِنْ الشَّوْقُ حَيٌّ * لَيْسَ يَبِيلِي وَلَيْسَ تَبِيلِي الشَّجُونُ
إِنَّ اللَّهَ فِي الْعِبَادِ مَنَائِيَا * سَلَّطَهَا عَلَى الْقُلُوبِ الْعَيُونُ
وَيَقْرَبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ السَّرِيِّ الرَّقَاءِ

فِدَاؤُكَ مِنْ أَوْرَدَتِهِ مِنْهُ الرَّدَى * وَوَرَدِ الرَّدَى لِلْمَاشِقِينَ يَطِيبُ
وَمَامَاتٍ حَتَّى أَتَحُلَّ الْحُبُّ جِسْمَهُ * فَلَمْ يَبْقِ فِيهِ لِلتَّرَابِ نَصِيبُ
وَالْأَرْجَانِي بِذِكْرٍ أَنَّ طَيْفَهُ لَوْ زَارَ حَبِيبَهُ لَحُلَّ شَخْصَهُ إِلَيْهِ لَنَحْوُهُ ،
وَيَقُولُ :

يُرَوِّى ضَاغِي الْوَجَنَاتِ دَمِي * وَيَعْدِلُ عَنْ لَهِيْبِ جَوْى دَخِيلِ
وَمَا نَفْسِي وَإِنْ هَطَلَتْ غِيوْثُ * إِذَا أَخْطَأَنَ أَمْكِنَةَ الْحَوْلِ
مَنْ تَقْضُوا عَهْدِي يَوْمَ بَانُوا * وَأَبْدُوا صَفْحَةَ الطَّرْفِ الْمُلُولِ
وَفُوا بِالْهَجْرِ لَمَّا أَوْعَدُونِي * وَكَمْ وَعَدُوا الْوَصَالَ وَلَمْ يَقْوَالِي

وفي الركب الهالدين خشف * تعرض يوم تشيع الحمول
أصاب بطرفه الفتان قلبي * وكيف يصاب ماضٍ من كليل
بخلت وقد حظيت بصفو ودّي * وإن من العناء هوى البخيل
وبت لو أستزرت اليوم طيفي * لجرّ إليك شخصي من نحولي
ولكن لا سبيل إلى شفاء * إذا مال الطيب على العليل
ومهم من يذكر أنه ضنى حتى لو تعلق بعود ثمام ما تأوّد، كما
قال الحسين بن مطير الأسدي :

خليلى هل ليلى مؤدّة دمي * إذا قتلتني أو أميرٌ يقيدها
وكيف تقاد النفس بالنفس لم تقل * قتلت ولم يشهد عليها شهودها
ولن يلبث الواشون أن يصدعوا العصا * إذا لم يكن صلباً على البرّي عودها
نظرت إليها نظرة ما يسرنى * بها تخر أنعام البلاد وسودها
ولي نظرة بعد الصدود من الجوى * كن نظرة ثكلى قد أصيب وحيدها
فختاً متى هذا الصدود إلى متى * لقد شفّ نفسي هجرها وصدودها
فلو أن ما أبقيت منى معلق * بعود ثمام ما تأوّد عودها
وقال الحارثي في وصف آصار النحول :

سلبت عظامي لحما فتركتها * مجردة تضحي لديك وتخصر
وأخليت من مئخها فكأنها * أنايب في أجوافها الریح تصفر
إذا سمعت بأسم الفراق تقععت * مفاصلها من هول ما تنتظر
خذى يدي ثم ارفعى الثوب تنظري * بي الضر إلا أننى أستز
فما حيلتي إن لم تكن لك رحمة * على ولا لي عنك صبر فأصبر

ويقول ابن الأحنف :

انظر الى جسدٍ أضرَّ به الهوى * لولا تقلُّب طرفه دفنوه

وتابعه المتنبي فقال :

كفى بجسمي نحولاً أنى رجلٌ * لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وفي مثل هذا المعنى يقول صاحب البدائع وقد أرسل صورته الى

بعض أحيائه :

سكنت الى النوى ونسيت صبراً * نحيلاً كاد يقتله الحنين

فلما لم يجد في الحب صبراً * ولم ترحم جوانحه الشجون

تفانى في النحول فلو تبدى * لما فطنت لخطرتة العيون

وما هو كالخيال أنك يسرى * مخافة أن تُظنَّ به الظنون

فأكرم نزلهُ وأرحم صنأهُ * فان فؤادك الحرم الأمين

وقال بعض الشعراء :

إن الذي أبقيت من جسمي * يا متلف الصب لم يشعر

صبايةً لو أنها دمة * تجول في عينيك لم تقطر^(١)

أمانى المحبين

وللمحبين أمان كثيرة ، لو تنفع الأمانى ، فنههم من يتمنى الكأس

من يد جيل ، بين ندمان يُعاطونه أطايب الحديث ، كما قال العطوى

وكم قالوا نحن قللت كأسٌ * يطوف بها قضيبٌ من كئيب

(١) الصباية بالضم هى البقية الطيفة من الشئ .

وَنُدْمَانٍ تَسَاقَطْنِي حَدِيثًا * كَلَحْظِ الْحَبِّ أَوْ غَضِّ الرَّقِيبِ
وَأَنَّهَا لِأَمْنِيَّةٍ عَزِيزَةِ الْمَنَالِ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسَامِرُ الْأَمَانِي حَتَّى لِيَحْسَبَ مَحْبُوبَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، كَمَا قَالَ
ابْنُ الزُّيَّاتِ :

يَا دَانِيَّ الدَّارِ فِي الْأَمَانِي * وَنَازِحِ الدَّارِ فِي الْعِيَانِي
ذِكْرُكَ دَانٍ وَأَنْتَ نَاهٍ * فَأَنْتَ نَاهٍ وَأَنْتَ دَانِي
نَفْسِكَ مَوْصُولَةٌ بِنَفْسِي * وَأَنْتَ كَالنَّجْمِ مِنْ مَكَانِي
لِي فِكْرُكَ فَيْكَ مَعْجِبَاتٌ * فِي اللَّفْظِ صِفَرٌ مِنَ الْمَعَانِي
تَجْرِي ضُرُوبٌ مِنَ النَّمْنَمَةِ * فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَى لِسَانِي
أَقُولُ حَتَّى كَأَنَّ عَيْنِي * تَرَاكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَانِي

وَيَتَمَنَّى ابْنُ الْأَخْنَفِ لَوْ يَنَامُ لِيَرَى طَيْفَ مَحْبُوبَتِهِ ، وَيَقُولُ :

مَجْلَسٌ يُنْسَبُ السُّرُورُ إِلَيْهِ * بِمَحَبِّ رِيحَانَتِهِ ذِكْرَاكَ
كَلَّمَا دَارَتْ الزَّجَاجَةُ زَادْنَاهُ أَشْتِيَاقًا وَحُرْقَةً فَبَكَكَ
لَمْ يَنْتَلِكِ الرَّجَاءُ أَنْ تَحْضُرَنِي * وَتَجَافَتْ أُمْنِيَّتِي عَنْ سَوَاكَ
فَتَمَنَيْتُ أَنْ يُغَشِّيَنِي اللَّهُ نَعَامًا لَعَلَّ عَيْنِي تَرَاكَ

وَرَبَّمَا تَمَنَّى الْمَحَبُّ لَوْ أُعِيرَ سَلَوَةٌ مِنْ قَلْبِ حَبِيبِهِ ، كَمَا قَالَ الْبَحْتَرِيُّ
وَدِدْتُ وَهَلْ نَفْسُ أَمْرِي بِمَلُومَةٍ * إِذَا هِيَ لَمْ تَمُطْ أَهْوَى مِنْ وَدَادِهَا
لَوْ أَنَّ سُلَيْمِي أَسْجَحْتَ أَوْ لَوَّانَهُ * أُعِيرَ فَوَادِي سَلَوَةٌ مِنْ فَوَادِهَا
وَمَا أَظْرَفَ النُّشُوءَ الَّتِي تَمْنَاهَا الْبَحْتَرِيُّ حِينَ قَالَ :

هَلْ لِي سَبِيلٌ إِلَى الظُّهْرَانِ مِنْ حَلَبٍ * وَنَشُوءٍ بَيْنَ ذَلِكَ الْوَرْدِ وَالْإِسِّ

أمدُّكُني لأخذ الكأس من رشا * وحاجتي كلها في حامل الكاس
بقرب أنفاسه أشقى الغليل اذا * دنا فقرَّبها من حرِّ أنفاسي
ومن غريب التمني ما جاء في رائية أبي صخر الهذلي ، فقد تمنى أن
يجمع بحبيبتيه فوق أمواج البحر ، ومن دونها اللجج الخضر والأهوال ،
واليك أروع هذه القصيدة البديعة

لليلي بذات الجيش دارٌ عرقها * وأخرى بذات البين آياتها سطرٌ
كأنهما ملآن لم يتغيَّرا * وقد مرَّ للدارين من بعدنا عصرٌ
وقفت برسميها فمى جوائها * فقلت وعيني دمعها سربٌ همرٌ
ألا أيها الركب المحبون هل لكم * بساكن أجزاع الحى بعدنا خبرٌ
فقالوا طويونا ذاك ليلاً فإن يكن * به بعض من تهوى فاشعر السفرُ
* *

أما والذي أبكى وأضحك والذي * أمات وأحيا والذي أمره الأمرُ
لقد كنت آتيا وفي النفس هجرها * بتاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فجاءة * فأبهت لا عرفٌ لدى ولا نُكرُ
وأنسى الذي قد كنت فيه هجرتها * كما قد تُنسى لبَّ شاربها الحمرُ
وما تركت لي من شدة أهتدي به * ولا ضلَّعٍ إلا وفي عظمها وقرُ
وقد تركتني أحسد الوحش أن أرى * أليفين منها لا يروعهما الذعرُ
ويمنعني من بعض إنكار ظلمها * اذا ظلمت يوماً وإن كان لي عذرُ
مخافةً أني قد علمت لئن بدا * لي الهجر منها ما على هجرها صبرُ
وأنى لا أدرى اذا النفس أشرفت * على هجرها ما يبلغن بي الهجرُ

تَكَادُ يَدِي تَنْدَى إِذَا مَا لَمَسْتُهَا * وَنَبَتَ فِي أَطْرَافِهَا الْوَرَقُ النَّضْرُ
وَإِنِّي لَتَعْرِوْنِي لَذَكَرَاكَ هِزَّةً * كَمَا أَتَفَضُّ الْعَصْفُورُ بِاللَّهِ الْقَطْرُ
تَمَنَّيْتُ مِنْ حَبِيٍّ عَلَيْهِ أَنَا * عَلَى رَمَتْ فِي الْبَحْرِ لَيْسَ لَنَا وَفْرُ
عَلَى دَائِمٍ لَا يَعْبُرُ الْفَلَكَ مَوْجُهُ * وَمِنْ دُونِنَا الْأَهْوَالُ وَاللَّجَجُ الْخَضْرُ
فَنَقْضِي ثُمَّ النَّفْسَ فِي غَيْرِ رِقْبَةٍ * وَيَفْرُقُ مِنْ نَخْشِي نَيْمَتَهُ الْبَحْرُ
عَجِبْتُ لِسَعَى الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * فَلَمَّا أَتَقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
فِيَا حَبِهَا زِدْنِي جَوْيَ كُلِّ لَيْلَةٍ * وَيَا سَلَوَةَ الْيَوْمِ مَوْعِدِكَ الْحَشْرُ
هَجَرْتُكَ حَتَّى قُلْتُ لَا يَعْرِفُ الْقَلْبُ * وَزَرْتُكَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ لَهُ صَبْرُ
صَدَقْتُ أَنَا الصَّبَّ الْمَصَابِ الَّذِي بِهِ * تَبَارِجُ حَبِّ خَامَرِ الْقَلْبِ أَوْ سِحْرُ
فِيَا حَبِذَا الْأَحْيَاءُ مَا دُمْتُ فِيهِمْ * وَيَا حَبِذَا الْأَمْوَاتِ مَا ضَمَّكَ الْقَبْرِ
وَإِلَيْكَ شَتَّى الْأَمَانِي فِي قَوْلٍ جَمِيلٍ :

جَزَتْكَ الْجَوَازِي يَا بَيْنَ مَلَامَةٍ * إِذَا مَا خَلِيلُ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةٍ * بَوَادِي الْقَرْيِ؛ إِنِّي إِذَا لَسَعِيدُ
فَقَدْ تَلَقَى الْأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ يَأْسَةٍ * وَقَدْ تُطَلَّبُ الْحَاجَاتُ وَهِيَ بَعِيدُ
وَيَحْسَبُ نِسْوَانٌ مِنَ الْجَهْلِ أَنَّنِي * إِذَا جِئْتُ إِيَّاهُنَّ كُنْتُ أَرِيدُ
فَأَقْسَمُ طَرْفِي يَبْنِي سَوِيَّةً * وَفِي الصَّدْرِ بَوْنٌ يَبْنِي بَعِيدُ
فَلَيْتَ وَشَاةَ النَّاسِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * يَدُوفُ لَهُمْ سَمَا طَلَامُ سَوْدُ
وَلَيْتَهُمْ فِي كُلِّ مُمْسِيٍّ وَشَارِقٍ * تُضَاعَفُ أَكْبَالُ لَهُمْ وَقِيُودُ
إِذَا جِئْتُهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ زَائِرًا * تَعْرِضُ مَنْقُوضُ الْيَدَيْنِ صَدُودُ
يَصْدُو وَيَفْضِي عَنْ هَوَايَ وَيَحْتَنِي * ذُنُوبًا عَلَيْنَا إِنَّهُ لَعَنُودُ

فأصرمها خوفاً كأني مُجانبٌ * ويفعل عنا مرةً فنمودُ *
 يقولون جاهداً يا جميل بغزوةٍ * وأى جهاد غيرهن أريد
 لكل حديث ينهن بشاشةٍ * وكل قتيل ينهن شهيدُ
 وغاية الغايات في هذا الباب قول أبي بكر بن عبد الرحمن الزهرى :
 ولما نزلنا منزلاً طله الندى * أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
 أجد لنا طيب المكان وحسنه * مُنى فتمنينا فكنتم إلا ما نيا

الهيئة والخضوع

والشعراء يهابون الحسن، ويضلون سبيل الرشد حين يراجعون
 أرباب الجلال . وانظر قول أبي فراس :
 أراميت كل السهام مُصيبةً * وأنت لى الرامى فكلى مقاتلُ
 وإنى لبقدامٌ وعندك هائبٌ * وفى الحى سبحانهٌ وعندك باقلُ
 يضل على القول ان زرت دارها * ويعزب عنى وجه ما أنا فاعلُ
 وحجتها العليا على كل حالةٍ * فباطلها حقٌ وحقٌ باطلُ
 وما أرق قوله فى عكس هذا المعنى :

ومُغضٍ للمهابة عن جوابى * وإن لسانه العضبُ الصقيلُ
 أطلت عتابه عنتاً وظلماً * فدمعتم قال : بما تقول !

ومن جيد الشعر فى هيئة الحسن ، قول الحسن بن وهب :
 أقول وقد حاولت تقبيل كفها * وبى رعدةً أهزتها منها وأسكنُ
 لهنك أنى أشجع الناس كلهم * لدى الحرب إلا أننى عنك أجبنُ

وقول بعض الأعراب :

أهابك إجلالاً ومابك قدرة * على ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس أنك عندها * قليل ولكن قل منك نصيبها
وفي الخضوع للحبيب يقول الشريف :

كم ذميل اليكم * ووجيف * وصدود عنا لكم وصدوف^(١)
وغرامكم لو أن غراماً * جرّ نفعاً للواجد المشغوف
صبوة ثم عفة * ما أضر الحـبـب في كل خلوة بالعفيف
هجرونا ولم يلاموا وواصلنا على مؤلم من التعنيف
وطلبنا الوفاء حتى إذا عزّ * رضينا بالمطل والتسويق
كيف يرجو الكثير من راضه الشو * قالى أن رضى يذل الطفيف
وانظر قول ابن الرومي :

أضعتني فرعيت * وخنفتني فوفيت
أطعتني في الأعادي * وكلهم قد عصيت
فكيف أصبحت غصب * لما رضاك أثبت

الرضى بالقليل

وقد يفتن المحب وهو راغم ، فيرضى بالوعد ، ويفرح بالأمان ،
وهي كواذب ، لأن الوصل عزيز المنال ، فمن ذلك قول العباس بن
الأحنف :

(١) الذميل والوجيف من خروب البر

كفى حزنًا أنى وفورًا يسلد * مقيان في غير أجماع من الشعل
أما والذى ناجى من الطور عبده * وأنزل فرقانًا وأوحى الى النحل
لقد ولدت حواء منك بلية * على أقاسيها وخبلاً من الخبل
أرى الناس لا يرضى ذوو العشق منهم * بشئ سوى حسن الموافاة والبذل
وانى ليرضىنى الذى ليس بالرضى * وتفتح نفسى بالمواعيد والمطل
وفى هذا المعنى يقول الشريف :

لك الله هل بعد الصدود تعطف * وهل بعد ريعان البعاد تدان
وما غرضى أنى أسومك خطاة * كفانى قليل من رصاك كفانى
وقال بعض الظرفاء :

أنا راضٍ منكم بأيسر شئ * يرتضيه من عاشقٍ معشوق
بسلام على الطريق اذا ما * جمعنا بالاتفاق الطريق
وقال توبة الحميرى فى ليلى الأخيلىة :

وهل تبكين ليلى اذا امت قبلها * وقام على قبرى النساء النوائح
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها * وجاد لها دمع من العين سافح
وأغبط من ليلى بما لا أناله * بلى كل ما قررت به العين صالح
وقد كثر القليل فى قول ابن الطرية :

أليس قليلا نظرة إن نظرتها * اليك وكلا ليس منك قليل
وجاراه فى هذا المعنى من قال :

إن ما قل منك يكتر عندى * وكثير ممن تحب قليل
وأبرع الشعر فى هذا المعنى قول جميل :

وانى لأرضى من بئنة بالذى * لو أبصره الواشى لقرت بلائله
بلا، وبأن لأستطيع، وبالمنى، * وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضى * وأخره لا نلتقى وأوائله
وفى مقابل هذا يقول ابن الفارض :

وإذا اكتفى غيرى بطيف خياله * فأنا الذى بوصاله لا أكتفى
وأبدع منه قول ابن الرومى :

أعاقفه والنفس بعد مشوقه * إليه وهل بعد العناق تدان
وألم فاه كى تزول حرارتى * فيشتد ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدار الذى بي من الجوى * ليرويه ما تلثم الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله * سوى أن يرى الروح حيز يترجان

شفاء الحب

وقد يمرض الحب ، فيفتن الناس فى وصف دوائه ، على أنه لا يبرأ
الا بقرب من يحب . وانظر قول عروة بن خزام وقد رأى عفراء :
وما هى إلا أن أراها فجأة * فأبته حتى ما أكاد أجيئ
وأصدف عن رأي الذى كنت أرتئى * وأنسى الذى أزمعت حين تغيب
ويظهر قلبى عذرها ويمينها * على فالى فى الفؤاد نصيب
وقد علمت نفسى مكان شفاؤها * قريباً وهل ما لا يُنال قريب
فوا كبداً أمست رؤفاً كأنما * يُلذَّعُها بالموقدات طيب
عشيّة لا عفراء منك بعيدة * فتسلو ولا عفراء منك قريب

لَنْ كَانَ بَرْدُ الْمَاءِ حَرًّا نَ صَادِيًّا * إِلَى حَبِيبَا إِنِّهَا لَحَبِيبٌ
وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ بَعْضُ الْأَعْرَابِ :

أَيَا زِينَةَ الدُّنْيَا الَّتِي لَا يَنَالُهَا * مُتَنَائٍ وَلَا يَبْدُو لِقَلْبِي صَرِيحُهَا
بِعَيْنِي قَذَاءٌ مِنْ هَوَاكَ لَوْ أَنُّهَا * تُدَاوِي بَيْنَ أَهْوَى لَصَحَّ سَقِيمُهَا
وَبُرَّةٌ قَذَاءُ الْعَيْنِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا * طَيِّبٌ يُدَاوِي نَظْرَةً تُسْتَدِيمُهَا
فَصَابِرَتْ عَنْ ذِكْرِكَ النَّفْسَ سَاعَةً * وَإِنْ كُنْتُ أَحْيَانًا كَثِيرًا أَلُومُهَا
وَمِنْ بَدِيعِ الشَّعْرِ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ :

قُلْ لِمَنْ لَسْتُ أُسَمِّي * بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي
بِأَبِي أَنْتَ لَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ أَكْبَرِ هُمِي
وَلَقَدْ قُلْتُ لِأَهْلِي * إِذَا أَذَابَ الْحُبُّ لِحْمِي
وَأَرَادُوا لِي طَيِّبًا * فَاصْتَفَوْا مِنِّي بَعْلِي
مَنْ يَكُنْ يَجْهَلُ مَا أَلْقَى فَإِنَّ الْحُبَّ سَقَمِي
إِنْ رُوحِي لَيَبْغِدا * دَوْفِي الْكَوْفَةَ جَسَمِي

القلب الخافق

نَذَكِرْ هُنَا أَلْوَانًا مِنْ تَصَوُّرِ الشَّعْرَاءِ لَخَفَوقِ الْقَلْبِ ، فَتَهَمُّ مِنْ
يُشَبِّهُهُ بِتَنْزِيِ الْكُرَّةِ ، كَمَا قَالَ بَشَّارُ :

يُرْوَعُهُ السَّرَادُ بِكُلِّ شَيْءٍ * خِيفَةً أَنْ يَكُونَ بِهِ السَّرَادُ
كَأَنَّ فُؤَادَهُ كُرَّةٌ تَنْزَى * حَذَارَ الْبَيْنِ لَوْ نَفَعَ الْحِذَارُ

وَمِنْهُمْ مَنْ يُشَبِّهُهُ بِالْوِشَاحِ الْقَلِقِ ، فَوْقَ الْخَصْرِ الدَّقِيقِ ، كَقَوْلِ
مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ :

أزكى من المسك أنفاساً وبهجتها * أرق ديباجة من رقة النفس
 كأن قلبي وشاحها اذا خطرت * وقلها قلها في الصمت والخرس^(١)
 تجرى محبتها في قلب عاشقها * جرى السلامة في أعضاء منتكس
 وابن الأحنف يشبه القلب الخافق بيد القينة الهوجاء تضرب
 بالدف، ويقول

يُبِين لسانى عن فؤادى وربما * أسر لسانى ما يروح به طرفى
 أعينك أن تشقى بقتلى فانتى * أخاف عليك الله أن سميتى حتى
 اذا القلب أو ما أن يطير صباة * ضربت له صدرى وألزمته كفى
 كأن جناحيه اذا هاج شوقه * يد اقية هوجاء تضرب بالدف^٢
 ومنهم من يشبهه بجناح الطير حين ينتفض، كقول أحد الأعراب
 ألا بأبى من ليس والله نافى * بنيل ومن قلبي على النأى ذا كره
 ومن كبدي تهفو اذا ذكر اسمه * كهفو جناح ينتفض الطل طائره
 وقد وضع هذا المعنى في قول نصيب

كأن القلب ليلة قيل يُغدى * بليلى العامرة أو براح
 قطاة عزها شرك فباتت * تجمأه وقد علق الجناح
 لها فرخان قد تركا بوكري * فعشهما نصقه الرياح
 اذا سما هبوب الريح نصاً * وقد أودى به القدر المتاح^(٢)
 فلا في الليل نالت ما رجي * ولا في الصبح كان لها براح

وابن ميادة يذكر أن قلبه أمسى وكأن يداً ضبنت به، أى قبضت عليه
 وسامته العذاب، ويقول

(١) القلب يضم القاف هو السوار (٢) نفس الطائر : هم بالتهوض

كَأَن فَوَادَى فِي يَدٍ صَبَتْ بِهِ * مُحَاذَرَةً أَنْ يَقْضِبَ الْجَبَلَ قَاضِبَةً
وَأُشْفَقَ مِنْ وَشَكِ الْفِرَاقِ وَأَنَّى * أَظُنُّ لِمَحْمُولٍ عَلَيْهِ فِرَاقُ كَبَّةٍ
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرَى أَتَقْلِبُنِي الْهَوَى * إِذَا جَدَّ جَدُّ الْبَيْنِ أَمْ أَنَا غَالِبُهُ
فَإِنْ أَسْتَطَعْتُ أَغْلِبُ وَإِنْ يَغْلِبُ الْهَوَى * فَتَلَّ الَّذِي لَا قِيَتَ يُغْلِبُ صَاحِبُهُ

مثال الحبيب

وَمِنَ الْعِشَاقِ مَنْ يَرَى مِثَالَ حَبِيبِهِ كَمَا هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ ، أَوْ أَوَى إِلَى
فِرَاشِهِ ، كَالَّذِي يَقُولُ

أَخْرَ شَيْءٌ أَنْتَ فِي كُلِّ هَجْعَةٍ * وَأَوَّلُ شَيْءٍ أَنْتَ عِنْدَ هَبْوِي
مَزِيدُكَ عِنْدِي أَنْ أَقِيكَ مِنَ الرَّدَى * وَوَدَّ كَيْدُ الْمَزْنِ غَيْرَ مَشُوبِ
وَالْمَنَى تَمَثَّلَ الْحَبِيبُ فِي قَوْلِ رَاشِدِ بْنِ أَرْشَدٍ

تَحِيرْتُ فِي أَمْرِي وَإِنِّي لَوَاقِفٌ * أَجِيلُ وَجْهِهِ الرَأْيُ فِيكَ وَمَا أَدْرَى
أَأَعِزُّ عِزْمَ الْيَأْسِ فَالْمَوْتُ رَاحَةٌ * أَوْ أَقْنَعُ بِالْإِعْرَاضِ وَالنَّظَرِ الشَّرِّ
وَإِنِّي وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْكَ لَمُنْطَوٍ * عَلَى حُرْقٍ بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالصَّدْرِ
إِذَا هَاجَ شَوْقِي مِثْلَتَكَ لِي الْمُنَى * فَالْقَاكَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ قِي السَّرِّ
فَنَ ذَاكَ لَمْ أَصْبِرْ وَلِي فِيكَ حِيلَةٌ * وَلَكِنْ دَعَايَ الْيَأْسَ مِنْكَ إِلَى الصَّبْرِ
تَصَبَّرْتُ مَغْلُوبًا وَإِنِّي لَمَوْجِعٌ * كَمَا يَصْبِرُ الظَّمْآنُ فِي الْبَلَدِ الْفَقْرِ
وَرَاشِدُ بْنُ أَرْشَدٍ هَذَا هُوَ الَّذِي يَقُولُ :

ضَحِكْتُ وَلَوْ تَدْرِيْنَ مَا بَيْنِي مِنَ الْهَوَى * بَكَيتُ لِمَحْزُونِ الْفَوَادِ كَثِيرِ
لَمَنْ لَمْ تُرَخَّ عَيْنَاهُ مِنْ فَيْضِ عَبْرَةٍ * وَلَا قَلْبُهُ مِنْ زَفْرَةٍ وَنَحِيبِ

لستأنس بالهم في دار وحشة * غريب الهوى باك لكل غريب
 ألا بأبي العيش الذي بان واتقضى * وما كان من حسن هناك وطيب
 وترداد مستور الأحاديث يبتنا * على غفلة من كاشح ودرقيب
 ليالى يدعونا الصبا فتجيبه * ونأخذ من لذاته بنصيب
 الى أن جرى صرف الحوادث في الهوى * فبدل منا مشهد بمغيب
 وقد ضاع شعر هذا الشاعر المجيد ، وحر منا منه صاحب زهر
 الآداب حين قال « وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره ، وصنت
 الكتاب عن ذكره » وبهذه الصيانة فقدت الآداب شعر هذا الشاعر ،
 وكم تمنى أن لا يخلط المؤلفون بين الأدب والأخلاق
 وأجود ما قيل في مثال الحبيب قول كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكانما * تمثل لي ليلي بكل سبيل

أهوال الصدود

ولقد أطال الشعراء في شكوى الصد ، وما يُقاسون فيه من
 أهوال ، فن ذلك قول الشريف :

وبين ذوائب العقداظي * قصير الخطو في المرط المذال
 ريب إن أرينغ إلى حديث * نوار إن أريد إلى وصال
 فهل لي والمطامع مزيات * دُنُو من لى ذاك الغزال
 لقد سلبت رطب الدار لى * ألا ما للظباء بها ومالى
 تُنغصنى بأيام التلاقى * معاجلى بأيام الزيال

تَحِيْفِي الصَّدُودَ وَكُنْتُ دَهْرًا * أُرْوِعُ بِالصَّدُودِ فَلَا أُبَالِي
وَكَيْفَ أَفِيقَ لَا جَسَدِي بِنَاءِ * عَنِ الْبُلُوِّ وَلَا قَلْبِي بِسَالِي
بِرَفْضِي إِلَيْكَ الشُّوقَ حَتَّى * أُمِيلَ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الشِّمَالِ
كَمَا مَالَ الْمُعَافِرُ عَاوِدَةً * مُهَيِّمًا الْكَأْسَ حَالًا بَعْدَ حَالٍ
وَيَأْخُذْنِي لَذَكْرُكُمْ أَرْتِيَا حُ * كَمَا نَشِطَ الْأَسِيرُ مِنَ الْعِقَالِ
وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ مَصْعَبٍ يَأْتِي عَلَى أَنْ لَمْ يَعُدَّهُ أَحِبَّابُهُ فِي مَرَضِهِ ، مَعَ
أَنَّهُ يَعُودُ كُلِّهِمْ إِذَا مَرَضَ ؛ وَلِهَذَا لَقِبَ (عَائِدَ الْكَلْبِ) حِينَ قَالَ
مَالِي مَرَضْتُ فَلَمْ يَعِدْنِي عَائِدٌ * مِنْكُمْ وَيَمْرُضُ كُلِّكُمْ فَأَعُودُ
وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِي عَلَى صَدُودِكُمْ * وَصَدُودُ عَبْدِكُمْ عَلَى شَدِيدٍ
وَيَرَى أَبُو نُوَّاسٍ أَنَّ قَرَبَ الدَّارِ لَا يَنْفَعُ مَعَ الصَّدُودِ ، وَيَقُولُ :
لَقَدْ عَاجَلْتُ قَلْبِي جَنَانًا بِهَجْرِهَا * وَقَدْ كَانَ يَكْفِينِي بِذَلِكَ وَعَيْدُ
رَأَيْتُ تَدَانِي الدَّارَ لَيْسَ بِنَافِعٍ * إِذَا كَانَ مَا بَيْنَ الْقُلُوبِ بَعِيدُ
وَإِنَّ الْأَحْنَفَ يَتْرَكَ الْعَنْتَبَ عَلَى الصَّدِّ ، لَثَلَا يُرْزَأُ بِصَدِّ جَدِيدٍ ،
وَيَقُولُ :
تَرَكْتُ صَدُودَهَا وَصَبَرْتُ نَفْسِي * بِطُولِ تَجَرُّعِ الْفَيْظِ الشَّدِيدِ
خَافَةً أَنْ تَجْدُدَ لِي صَدُودًا * وَكُنْتُ حَدِيثَ عَهْدٍ بِالصَّدُودِ
وَقَدْ وَضَحَ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ قَبْلِ فِي قَوْلِ أَبِي صَخْرٍ الْهَذَلِيُّ :
وَيَمْنَعُنِي مِنْ بَعْضِ إِنْكَارِ ظَلَمِهَا * إِذَا ظَلَمْتُ يَوْمًا وَإِنْ كَانَ لِي عَذْرُ
خَافَةً أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ لَنْ بَدَأَ * لِي الْهَجْرُ مِنْهَا مَا عَلَى هَجْرِهَا صَبْرُ
وَالْبَحْتَرَى يَمْزِجُ الشُّكُورَ بِالْعِتَابِ فِي قَوْلِهِ :

ظلمتني تجنياً وصدوداً * غير مُرتاعة الجنانِ لظلمي
ويسير عند القتل إذا ما * أثمت في أن تبوء يائي
أجد النار تُستعار من النا * روينشو^(١) من سُقم عينيك سقي
لعب ما أثبت من ذلك الصد * فخرضاه أم حقيقة عزم
وبحق أن السيوف لتنبو * تارة والعيون باللحظ تُدعى
ويروفي الندم على الصدود في قول صاحب البدائع :
لقد صدّدنا كما صدّدتم * فهل ندتم كما ندمناء ؟

التلفت الى معالم الوجود

ومن أوجع ما تحدّث به التيمون ، تلفتهم الى معااهد الحب : عند
الوداع ، وبعد الفراق .

قال بعض الرواة : مررت بحمي الرّبذة فاذا صبيان يتقامسون^(٢)
في الماء ، وشاب جميل الوجه ملوّح الجسم قاعد ، فسلمت عليه فردّ
عليّ السلام . وقال : من أين وضّح الراكب ؟ قلت من الحى ، قال :
ومتى عهدك به ؟ قلت رأحما . قال وأين كان ميبتك ؟ قلت : أدنى هذه
المشاقر^(٣) . فألقى نفسه على ظهره ، وتنفّس الصعداء . فقلت نفساً^(٤)
حجاب قلبه ، وأنشأ يقول

سقى بلداً أمست سلمي تحله * من المزن ما روى به وتُسيمُ

(١) يقال نشأ ينشأ ونشؤ ينشؤ : أى قوى وزاد (٢) يتقامسون : يتطاولون . يقال قسّته
في الماء غطّخته فيه (٣) المشاقر منابت العرفج (٤) تنفّساً : تشقّق وانصدم

وإن لم أكن من قاطنيه فانه * يحمل به شخص على كرسى
ألا حبذا من ليس يعدل قربه * لدى وإن شط المزار نعيم
ومن لا مني فيه حبيب وصاحب * فرد بغيط صاحب وحميم
ثم سكت سكتة كالغنى عليه ، فصحت بالأصيبة ، فأتوا بماء
فصببته على وجهه فأفاق ، وأنشأ يقول :

إذا الصب الغريب رأى خسوعي * وأنفاسي تزين بالخشوع
ولى عين أضرب بها التفاني * الى الأجزاء مطلقة الدموع
الى الخلوات تأنس فيك نفسي * كما أنس الوحيد الى الجميم
والشاهد في الآيات الأخيرة

وبما أوجع تلفت القلب بعد العين في قول الشريف
تلفت حتى لم يبق من بلادكم * دخان ولا من نارهن وقود
وإن التفات القلب من بعد طرفه * طوال الليالي نحوكم ليزيد
ولما تدانى البين قال لى الهوى * رويدا وقال القلب أين تريد
أنطمع أن تسلو على البعد والنوى * وأنت على قرب المزار عميد
ولو قال لى الغادون ما أنت مشتة * غداة جزعنا الرمل قلت أعود^(١)
أأصبر والوعساء بيني وبينكم * وأعلام خبت ، انى جليد
وانظر قوله من كلمة ثانية

رحلت عنكم لى أمانى نظرة * وعشر وعشر نحوكم من ورائيا
ومن حذر لا أسأل الركب عنكم * وأعلاق وجدى باقيات كما هيا
ومن يسأل الركبان عن كل غائب * فلا بد أن يلتقى بشيرا وناعيا

(١) جزع من باب منع : يقال جزع الارض قطعا

الصد والنوى

يأسى العشاق للصد ، حتى اذا راعتهم مرارة النوى ، علموا أن
الصد كان حلو المذاق . وفي هذا المعنى يقول ابن الخياط :

كفى حزنًا أنى أيت معذبًا * بنار هموم ليس يخبو سعيها
وأن عدوى لاواع وأنتى * أيت سخيف العين وهو قريها
وانى لرهن الشوق والشمل جامع * فكيف اذا حث الحداة أميرها
وما زلت من أسر القطيعة باكيًا * فن لى غداة الين أنى أسيرها
وكننت أرى أن الصدود منية * يكون مع الليل التمام حضورها
فلما قضى التفريق بالبعد يننا * وجدت الليالى كأن حلوًا مريرها
هوئى ونوى يستقبح الصبر فيهما * وحسبك من حال يذم صبورها
وقد أصاب فى تشبيه النوى بعد الهجر ، بالجرح بعد الجرح

حيز قال

أحن إلى سقى لعلك عائدى * ومن كلف أنى أحن إلى السقم
وحتام أستشفى من الداء مابه * سقامى وأستوى من الدمع ما يطمى
فراق أنى فى إثر هجر وما أذى * بأوجع من كلم أصاب على كلم
وحنين المحب إلى سقمه ، أملًا فى أن يعود حبيب ، يذكرنا
بقول كثير :

يود بأن يمسى سقيمًا لعلها * اذا سمعت عنه بشكوى تراسله

القريب البعيد

هو الحبيب الذى يجاورك ، أو يساكنك ، ثم لا تملك وصله ، ولا حديثه . وقد تزوره بلمح العين . كما قال ابن الدمينه :

أَلَا حُبَّ الْبَيْتِ الَّذِى أَنْتَ هَاجِرُهُ * وَأَنْتَ بِتِلْكَ مِنْ الطَّرَفِ زَائِرُهُ
فِيَا لَكَ مِنْ بَيْتٍ لِعَيْنِي مُعْجِبٍ * وَأَحْسَنُ فِي عَيْنِي مِنَ الْبَيْتِ هَامِرُهُ
أَصْدُ حَيَاءٍ أَنْ يَلِجَ بَنَى الْهَوَى * وَفِيكَ الْمَنَى لَوْلَا عَدُوٌّ أَحَازِرُهُ
وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ :

تَدَانَتْ بِقَوْمٍ عَنْ تَنَاوُزِ زِيَارَةٍ * وَشَطَّ بَلِيلِي عَنْ دُنُوِّ مَزَارِهَا
وَإِنْ مَقَامَاتٍ بِمَنْعَرَجِ اللَّوَى * لِأَقْرَبِ مِنْ لَيْلِي وَهَاتِكِ دَارِهَا
وَالشَّعْرَاءُ يَشْبَهُونَ الْحَبِيبَ الْمُنَوَّعَ فِي قَرْبِهِ ، بِالْمَاءِ يُنْتَعَمُ مِنْ وَرُودِهِ
الظَّهَانَ ، فَتَجِدُ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ :

إِنِّي وَإِيَّاكَ فَالْصَادِي رَأَى نَهْلًا * وَدُونَهُ هُوَّةٌ يَخْشَى بِهَا التَّلَفَا
رَأَى بِعَيْنَيْهِ مَاءً عَزَّ مُورِدُهُ * وَلَيْسَ بِمَلَكٍ دُونَ الْمَاءِ مُنْصَرَفَا
وَمَنْ يَقُولُ :

وَأَنِّي عَلَى هِجْرَانٍ يَتَنَكَّ كَالْبَنَى * رَأَى نَهْلًا رِيًّا وَلَيْسَ بِنَاهِلٍ
يَرَى بِرُدْمَاءٍ ذَرِيدَ عَنْهُ وَرُوضَةً * بَرُّودٍ الضَّحَى فَيَنَانَةً بِالْأَصَانِلِ
وَقَدْ صَوَّرَ جَمِيلٌ هَذَا الْمَعْنَى حِينَ قَالَ :

وَمَا صَادِيَاتُ حُثْنٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً * عَلَى الْمَاءِ يَخْشَيْنَ الْعَصَى حَوَانِي
حَوَانٍ لِيَصْدُرْنَ عَنْهُ لَوِجَةً * وَلَا هُنَّ مِنْ بَرْدِ الْحِيَاضِ دَوَانِي

يَرَيْنَ حِجَابَ الْمَاءِ وَالْمَوْتَ دُونَهُ * فَمِنْ لَأْصَوَاتِ السَّقَاةِ رَوَانِي
بَأَكْثَرِ مَنِي غُلَّةٍ وَصِبَابَةٍ * إِلَيْكَ وَلَسْكَنَ الْعَدُوَّ عِرَانِي
وَقَالَ أَبُو حِيَةَ النَّمِيرِيُّ أَوْ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَخْفَفِ :
كَفَى حَزَنًا أَنِّي أَرَى الْمَاءَ بَادِيًا * لَعْنَتِي وَلَسْكَنَ لَسَابِيلَ إِلَى الْوَرْدِ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي * بِكَفِّ أَغْزِ النَّاسِ كُلِّهِمْ عِنْدِي
حلاوة الملام

ومن المحبين من يستعذب اللوم ، لذكر الحبيب ، كما قال
أبو نواس :

أحب اللوم فيها ليس إلا * لترداد أسمها فيما أُلَامُ
ويدخل حبها في كل قلب * مداخل لا تغفلها المدامُ
وفي هذا المعنى يقول محمد بن أبي أمية :
وحدثني عن مجلس كنت زينه * رسول أمين والنساء شهودُ
فقلت له رُدِّ الحديث الذي مضى * وذكرك من بين الحديث أريدُ
وقد ظرُفَ البها زهير حين قدَّم رضى الحبيب على رضا العذول ،
وقال :

يا من يهدد بالصدو * دِ نَمِ تَقُولُ وَتَفْعَلُ
قد صبح عذرك في الهوى * لَكُنِّي أَتَعْلَلُ
قل للعذول لقد أطلت لمن تلوم وتعتلُ
حابت من لا يرعوى * وعدلت من لا يقبل
غضب العذول أخف من * غضب الحبيب وأسهل

وما أبدع قول أبي فراس :

أساء فزادته الإساءة خطوة * حبيب على ما كان منه حبيب
يعدّ على الماذلون ذنوبه * ومن أين للوجه المليح ذنوب؟
والرقيب أخو اللائم في تنغيص حياة العشاق ، ومن طريف
الشعر في الألم لقرب الرقيب قول ابن المعتز :

وآبلأى في محضرٍ ومغيب * من حبيبٍ مني بعيدٍ قريب
لم ترّد ماء وجهه العين إلا * شرقت قبل ريتها برقيب
وقوله :

قد دنت الشمس للمغيب * وحان شوقي الى الحبيب
طوبى لمن عاش عشر يوم * له حبيبٌ بلا رقيب
وما أظرف من يقول :

لسهم الحب جرحٌ في قوادي * وذاك الجرح من عين الرقيب
يوكل ناظره بنا ويحكى * مكان الكاتين من الذنوب
فلو سقط الرقيب من الثريا * لصبّ على محبّ أو حبيب
وانظر كيف ضرب المثل بغفلة الرقيب في قول أحد الظرفاء :

يسقيك من كفه مداماً * ألذ من غفلة الرقيب
كأنها إذ صفت وردت * شكوى محبٍ الى حبيب
وقد كلّف سعيد الوراق بغلام من الرهبان فأصبحوا وكلهم رقباء ،
وفيهم يقول :

بربك يا حمامة دير زكى * وبالأنجيل عندك والصليب

فَفِي وَتَحْمَلِي مَنِي سَلَامًا * اِلَى قَرِيٍّ عَلَى غُصْنٍ رَطِيبٍ
 حَمَاهُ جَمَاعَةُ الرِّهْبَانِ عَنِي * فَقَلْبِي مَا يَقْرُءُ مِنَ الْوَجِيبِ
 وَقَالُوا رَابِنَا اِلَاسَ سَعْدٍ * وَلَا وَاللَّهِ مَا اَنَا بِالْمُرِيبِ
 وَقَوْلِي سَعْدُكَ الْمَسْكِينُ يَشْكُو * لَهَيْبِ جَوْيٍ اُحَرٌّ مِنَ اللَّهَيْبِ
 فَصِلُهُ بِنَظَرَةٍ لَكَ مِنْ بَعِيدٍ * اِذَا مَا كُنْتُ تَمْنَعُ مِنْ قَرِيبِ
 وَإِنْ اَنَا مُتُّ فَارْتَبْ حَوْلَ قَبْرِي * مَحَبَّةً مَاتَ مِنْ هَجَرِ الْحَيْبِ
 رَقِيبٌ وَاحِدٌ تَغْيِصُ عَيْشٍ * فَكَيْفَ بَيْنَ لُهُ اَلْفَا رَقِيبٍ ؟
 اِنَّهُ لَا يَدُّ مَقْتُولٍ ، كَمَا قَتَلَ صَاحِبُ هَذِهِ الْاَيَاتِ !

رُؤْيَا الضَمِيرِ

وَمِنَ الْحَبِيبِ مَنْ يَرَى مَحْبُوْبَهُ فِي ضَمِيرِهِ ، كَمَا اشْتَاقَ اِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ
 الْحَكَمُ بْنُ قَنْبَرَةَ
 اِنْ كُنْتُ لَسْتُ مَعِيَ فَالَّذِي مَعَكَ مَعِيَ * يَرَاكَ قَلْبِي وَانْ غُيِّبَتْ عَنْ بَصَرِي
 الْعَيْنُ تَبْصُرُ مِنْ تَهْوِي وَتَفْقَدُهُ * وَنَاضِرُ الْقَلْبِ لَا يَخْلُو مِنَ النَّظَرِ
 وَقَالَ آخَرُ

أَمَّا وَالَّذِي لَوْ شَاءَ لَمْ يَخْلُقِ الْهَوَى * لَئِنْ غَبِثَ عَنْ عَيْنِي مَا غَبِثَ عَنْ قَلْبِي
 تُرِينِيكَ عَيْنُ الْوَهْمِ حَتَّى كَأَنِّي * اَنَا جِيكَ مِنْ قَرَبٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ قُرْبِي
 وَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ النَّاجِمُ

لَئِنْ كَانَ عَنْ عَيْنِي أَحَدٌ غَائِبًا * فَأَ هُوَ عَنْ عَيْنِ الضَّمِيرِ بِغَائِبٍ
 لَهُ صُورَةٌ فِي الْقَلْبِ لِيُقْصِصَهَا التَّوْبَى * وَلَمْ تَتَخَطَّفْهَا أَكْفُ النُّوَابِ
 إِذَا سَاعَنِي يَوْمًا شَحُوطُ مَزَارِهِ * وَضَافَتْ بِقَلْبِي فِي نَوَاهِ مَذَاهِبِي

عطفت على شخص له غير نازح * محلته بين الحشا والترائب
ويقرب من هذا المعنى قول الآخر في الاستماعة باسم الحبيب
وليل وصلنا بين قطريه بالشرى * وقد جد شوق مَطْمَع في وصالك
أطلت علينا من دُجاء خادس * أعدن الطريق النهج وعر المسالك
فناديت يا أسماء بأسمك فأنجلت * وأسفر منها كل أسود حالك
بنأنت من هادي نجونا بذكره * وقد نشبت فينا كُف المهلك
منعتك إخلاصى وأصفيتك الهوى * وإن كنت لما تُخطرني ببالك
وفي مثل هذا المعنى يقول اسحق الموصلى :

صب يحث مطايئه بذكركم * وليس ينسأكم إن حل أو سارا
لو يستطيع طوى الأيام نحوكم * حتى يبيع بعمر القرب أعمارا
يرجو النجاة من البلوى بقربكم * والقرب يلهب في أحشائه النارا

القلب والكبد

موطن الحب هو القلب ، في حديث الشعراء . وقد أثبت أخيراً
أحد الأطباء الألمان أن موطن الحب هو الكبد ، ونريد أن نذكر هنا
طرفاً من حديث العرب عن الكبد ، وقرار الحب فيه ، مما يماثل هذا
الرأى الجديد . . قال بعض الأعراب :

فيا كبداً يحمى عليها وانها * مخافة هيضات النوى لخفوق
أقام فريق من أناس يودهم * بذات الفضا قلبي وبان فريق
بحاجة محزون يظل وقلبه * زهين يبيضات الحجال صديق
وجرى ذكر القلب والكبد في كلمة صردر حين قال :

لا الحلى بعدكم مَنَاحٌ ولا ما * * اللوى اذ هجرتموه بورد
والفؤاد الذى عهدتم جَوحًا * راضنه طول جَوْرِكُم والتعدى
ما تريدون من دلائل شوقى * غير هذا الذى اُجِنُّ وأبدى
كَبِدٌ كلما وضعت عليه * راحتي قال أنت قاذج زندي
وجفون جرين مدأوماء البـ حر برناح بين جَزْرومَد
وكذلك جمع بينهما البحترى حين قال
وما كبدي بالمستطيمة للأذى * فأسلو ولا قلبي كثير التقلب
وابن الاخنف حين قال :

ماللكلوم التى بالقلب من اسى * فاصبر على اليأس يا مستقبل الياس
ما أسمعج الناس فى عيني وأقبحهم * اذا نظرت فلم أبصر كفى الناس
حتى متى كبدي حرى معطشة * ولا يلين لشيء قلبك القاسى
يا مَورِى الزند قد أعيت قوادحه * اقبس اذا شئت من قلبي بمقياس

بكاء الملاح

نذكر للقارئ شذرات من الشعر فى بكاء الملاح ، وما أغزر
الدمع فى بكاء المليح ، حين يظفر بحسنه التراب :
قال ابن عبد ربّه : كان لمعلّى الطائى جارية يقال لها (وصف)
وكانت أديبة شاعرة ، فأخبر محمد بن وضّاح قال : أدركت معلّى الطائى
بمصر وأعطى يجاريته وصف أربعة آلاف دينار فباعها . فلما دخل

عليها قالت له : بعثني يامعلى ١٩ قال نعم . فقالت : والله لو ملكت منك
مثل ما تملك منى ما بعثتك بالدنيا وما فيها ١١ فرد الدنانير وأستقال صاحبه
ثم أصيب بها الى ثمانية أيام . فقال يرثيها :

ياموتُ كيف سلبتني وصفا * قدّمها وتركتني خلفا
هلاّ ذهبت بنا ممّا فلقد * ظفرت يدالك فسُمتني خسفا
وأخذت شقّ النفس من بدنى * فقبرته وتركت لى النصفا
فعليك بالباقي بلا أجل * فاللوت بعد وفاتها أغفى
ياموت ما أبقيت لى أحداً * لما رفعت إلى البلى وصفا
هلاّ رحمت شباب غانية * رباّ العظام وشعرها الوَحفا^(١)
ورحمت عينيّ ظيية جعلت * بين الرياض تناظرُ الخسفا
تقضى اذا انتصفت مرابضهُ * وتظلّ ترماه إذا أغفى
فاذا مشى اختلفت قوائمه * وقت الرضاع فينطوى ضعفا
متعبراً فى المشى مُرثعاً * يخطو فيضرب ظلفهُ الظلفا
فكأنها (وصف) إذا جعلت * نحوى تحيرٍ محاجراً وطفا^(٢)
ياموت أنت كذا الكل أخى * إلفٍ يصون يرّهِ الإلفا
خلقتنى فرداً وبنت بها * ما كنت قبلك حاملاً وكفا^(٣)
أسكنتها فى قمر مظلمٍ * يتما يضافع تُربه السقفا
يتما إذا مازاره أحدٌ * عصفت به أيدي البلى عصفا

(١) الوحف : الاسود (٢) وطب جمع أوطف ووطناء وهو الماء الكثير والدمع توصف
به السحب والبيون (٣) الوكف : الظلم

لالتقى أبداً معانئة * حتى تقوم ربنا صفاء
لبست ثياب الخنف جارية * قد كنت ألبس دونها الخنفا
فكأنها والنفس زاهقة * غصن من الریحان قد جفا
يا قبر أبقِ على محاسنها * فلقد حوت البر والظرفا
وكتب أبو نواس على قبر جارية هذه الأيات

أقول لقبر زرته متلماً * سقى الله برّد العفو صاحبة القبر
لقد غيبوا تحت الثرى قر الدجى * وشمس الضحى بين الصفايح والقفير
عجبت لعين بمدّها ملت البكا * وقلب عليها يرتجى راحة الصبر
وقال أبو تمام وقد ماتت جارية له

جنوف ألبى أسرع في النصف الرطب * وخطب الردى والموت أبرحت من خطب
لقد شربقت في الشرق بالموت غادة * تبدلت منها غربة الدار بالقرب
أقول ، وقد قالوا استراحت لموتها * من الكرب روح الموت شر من الكرب
لها منزل تحت الثرى وعهدتها * لها منزل بين الجوانح والقلب
وما أجل قوله من كلمة ثانية

يقولون هل يبكى الفتى لخريدة * إذا ما أراد اعتاض عشرًا مكلها
وهل يستعيض المرء من خمس كفه * ولو صاغ من حرّ اللجين بناتها
وقال ابن الرومي في بستان وكانت من المجيدات في الغناء
ما أروع الدهر في تصرفه * بكل زين له ومفتخر
أطار قرية الغناء عن الأر * ض فأى القلوب لم تطير
بستان يا حسرتا على زهر * فيك من الهو بل على ثمر

بستان أضحي الفؤاد في وله * يأنزه السمع منه والبصر
بستان مامنك لأمرى عوض * من البسائين لا ولا البشر
إن لم أكن متفأقرضت فكم * من موة للفؤاد في الذكر
وما أرق قوله في هذه القصيدة

ياغضة السن يا صغيرته * أمسيت إحدى المصائب الكبرى
أنى اختصرت الطريق يا سكنى * إلى لقاء إلا كفان والحفر
أبعد ما كنت باب متهج * للنفس أصبحت باب معتبر
كل ذنوب الزمان مغتفر * وذنبه فيك غير مغتفر
لله ما ضمنت حفيرتها * من حسن مرأى وطيب مختبر
أضحت من الساكني حفاوهم * سكنى الفؤاد إلى مداهن السر
لو علم القبر من أتيح له * لا تحفر القبر غير محتر
وأحب لو تأمل القارئ ما في هذا الشعر من سمو الخيال

وكان مرة بن عبد الله مغرمًا بفتاة من قومه يقال له ليلى بنت
زهير، وتزوجت من غيره بالرغم منه، ثم نقلت مع زوجها إلى راذان
ومات هناك، فقال مرة فيها كثيرًا من الشعر الموجه. كقوله
أيانا عني ليلى أما كان واحد * من الناس ينعاها إلى سوا كما
ويانا عني ليلى لجلت مصيبة * بنا فقد ليلى لأمرت قوا كما
ولا عشنا إلا حليفتي بليّة * ولا مت حتى يشتري كفنا كما
فأشمت والأيام فيها بوائق * بعونكما إني أحب ردا كما

وقوله

كانك لم تُفجع بشيء تُعده * ولم تصطبِر للنائبات من الدهر
ولم تر بؤساً بعد طول غضارة * ولم ترمك الأيام من حيث لا تدرى
سقى جانبي راذان والساحة التى * بها دفنوا ليلى مُليت من القطر
ولا زال خصب حيث حلت عظامها * براذان يسقى الفيت من هطل غمر
وان لم تكلمنا عظاماً وهامة * هناك وأصداء بقين مع الصخر
وكان لاسحق الموصلى غلام جميل يقال له زياد ، وهو الذى
يقول فيه :

إذا ما زيادٌ علّني ثم عاني * ثلاث زجاجات لمن هدير
خرجت أجر الذيل زهواً كأننى * عليك أمير المؤمنين أمير
ثم مات زياد هذا ، فقال اسحق يبكيه
فقدنا زياداً بعد طول صحابة * فلا زال يسقى الفيت قبر زياد
ستبكيك كأس لم تجدم يديها * وظمان يستبطن الزحاجة صادى
وكان محمد بن مناذر يمشق عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى ،
وكان عبد المجيد هذا من أجل الفتيان وآدبهم وأظرفهم ، وله مع ابن
مناذر حديث طويل ذكره صاحب الاغانى ، ثم مات عبد المجيد بعد
مرض قصير وهو فى سن العشرين ، فقال فيه ابن مناذر قصيدة طويلة
نختار منها هذه القطعة الباكية :

كلّ حيّ لاقى الحمام فودى * ما لحيّ مؤمل من خلود
لانهاب المنون شيئاً ولا تبسقى على والدٍ ولا مولود

ولقد ترك الحوادث والآيا مٌ وهيأ في الصخرة الصبيخود^(١)
ولو أن الأيام أخذن حياء * لعلن أخذن عبد المجيد
مادري نعشه ولا حاملوه * ما على النمش من عفاف وجود
ونج أيد جثت عليه وأيد * دفتته اما غيبت في الصعيد !
وأرانا كالزراع يحصد الدم — رُفن بين قلم وحصيد
وكأننا للموت ركب نجبو * ن سراعاً لمنهلٍ مورود
ان عبد المجيد يوم تولى * هد ركننا ما كان بالمهدود
هد ركني عبد المجيد وقد كن — ت بركن أنوف منه شديد
وبعبد المجيد تلمود نفسي * عثرت بي بعد اتماش جدودي^(٢)
وبعبد المجيد شلت يدي البسني وشأت به عيين الجود
حين تمت آدابه وتردى * برداه من الشباب جديد
وسقاه ماء الشبيبة فاهتز * اهتزاز الفصن الندي الأملود^(٣)
وكأنني أدعوه وهو قريب * حين أدعوه من مكان بعيد
فلئن صار لا يجيب لقد كا * ن مميماً هشا اذا هو نودي
يا فتى كان للمقامات زيناً * لأأراه في المحفل المشهود
لحف نفسي اما أراك وما عن — دك لي ان دعوت من مردود
كان عبد المجيد سم الأعدى * مل عين الصديق رغم الحسود
عاد عبد المجيد رزءاً وقد كا * ن رجاء لريب دهر كنود
خنتك الود لم امت كذاً ب — فـدك إني عليك حق جليل

(١) الصبيخود : الشديدة (٢) تلمود النفس حياتها (٣) الاملود : التاعم الرقيق

لو فدى الحى ميتاً لفتت نفسك نفسى بطارفى وتليدى
ولئن كنت لم أمت من جوى الحزن ن عليه لأبلغن مجهودى
لأقيمن ما أتما كنجوم الليل — ل زهراً يلطن حرّاً لخدود
موجعات يكيك للكبد الحزنى عليه وللغواد العميد^(١)
ولعين مطروقة أبداً قا * ل لها الدهر لا تقرى وجودى
كلما عزك البكاء فأنفدت ل عبد المجيد سجلاً فعودى
لقتى يحسن البكاء عليه * وفقى كان لأمتداح القصيد
فبرغمى كنت المقدم قبلى * وبكرهى دليت فى الملهود
كنت لى عصمة وكنت سماء * بك تحيا أرضى ويخضر عودى
وأغرم يعقوب بن الربيع بجارية نسمى (ملك) ومكت
فى طلبها سبع سنين ، حتى رقد ماله ، وجاهه ، ثم ملكها ، فأقامت عنده
سنة أشهر وماتت . فقال يبكيا :

لله آيسة فُجعت بها * ما كان أبعدا من الدنس
أنت البشارة والنمى معا * يا قرب ما تمها من العرس
يا ملك أنال الدهر فرصته * فرمى قواداً غير محترس
أبكيك ما ناحت مطوقة * تحت الظلام تنوح فى العلس

وقال فيها :

ليت شعرى بأى ذنب لملك * كان هجرى لقبرها وأجتناي
ألذنب حقدته كان منها * أم لعلنى بشغلها عن عتابي

أَمْ لَا مَنِي لِسُخْطِهَا وَرِضَانِهَا * حَيْزٍ وَارَيْتُ وَجْهَهَا فِي التُّرَابِ
 إِنَّمَا حَسَرْتُ إِذَا مَا تَذَكَّرْتُ * تَعْنَانِي بِهَا وَطُولُ طَلَابِي
 لَمْ أَزَلْ فِي الطَّلَابِ سَبْعَ سِنِينَ * أَتَانِي لَذَاكَ مِنْ كُلِّ بَابٍ
 فَاجْتَمَعْنَا عَلَى اتِّفَاقٍ وَقَدَرٍ * وَغَيْنَانَعَنْ فَرْقَةٍ بِأَصْطِحَابِ
 أَشْهَرًا سِتَّةَ صَحْبَتِكَ فِيهَا * كُنْ كَالْحِلْمِ أَوْ كَلْعِ السَّرَابِ
 وَأَتَانِي مِنْكَ النَّمِيُّ مَعَ الْبَشْرِ رَى فَيَا قَرِيبَ أَوْبَةٍ مِنْ ذَهَابِ
 وَمَا أَدْوَعُ قَوْلُهُ فِي وَصْفِ احْتِضَارِ هَذِهِ الْجَارِيَةِ :

حَتَّى إِذَا قَتَرَ اللِّسَانُ وَأَصْبَحَتْ * لِلْمَوْتِ قَدْ ذَبَلَتْ ذُبُولُ التَّرْجِسِ
 وَتَسَلَّتْ مِنْهَا مَحَاسِنُ وَجْهَهَا * وَعَلَا الْإِنِّينَ تَحْتُهُ بِتَنْفَسِ
 رَجَعَ الْيَقِينُ مَطَامِي يَأْسًا كَمَا * رَجَعَ الْيَقِينُ مَطَامِعِ الْمُتَلَسِّسِ^(١)
 وَقَدْ وَصَفَ غُرْبَتَهُ مِنْ بَعْدِهَا قَالُ :

فُجِئْتُ بِمَلِكٍ وَقَدْ أَيْنَعْتُ * وَتَمَّتْ فَأَعْظَمُ نِهَا مِنْ مَصِيبَةٍ
 فَأَصْبَحْتُ مَغْتَرِبًا بَعْدَهَا * وَأَضْحَتْ بِمَحَلِّهَا مَلَأَتْ غُرْبَتَهُ
 أَرَانِي غُرْبِيًّا وَإِنْ أَصْبَحْتُ * مَنَازِلَ أَهْلِ مَنَى قَرِيبَةٍ
 عَظَفْتُ عَلَى أَخْتِهَا بَعْدَهَا * فَصَادَقَهَا ذَاتَ عَقْلِ أَدِيبَةٍ
 فَأَقْبَلْتُ أَبْكِي وَتَبْكِي مَعِي * بَكَاءَ كَثِيبٍ يَحْزَنُ كَثِيبَةٍ
 وَقُلْتُ لَهَا مَرْحَبًا مَرْحَبًا * بِوَجْهِ الْحَبِيبَةِ أُخْتِ الْحَبِيبَةِ
 سَأُصْفِيكَ وَدَى حِفَاطًا لَهَا * فَذَاكَ الْوَفَاءَ بَظَهْرِ الْمَغْيَبَةِ
 أَرَاكَ كَمَلِّكَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ * مَلِكًا مِنَ النَّاسِ عِنْدِي ضَرِيبَةٍ^(٢)

(١) المتلّس هو صاحب الصّحيفة التي يضرب بها التلّ في الحية (٢) ضريبة : شديدة

والشعر في بكاء الملاح كثير ، ولكن حب الایجاز یحملنا على
الاكتفاء بهذا المقدار ، وما هو بالقليل .

بكاء الحلائل

وأوجع ما يكون بكاء الملاح إذا كنّ حلائل ، والحليلة المعشوقة
متاع عزيز ، فمن ذلك قول أحد الفتيان في بكاء امرأته ، وكان بها
من المغممين :

أطأ التراب وأنتِ رهن حفيرة * هالت يدای على صدكِ ترابها
إني لأغدّر من مشى ان لم أطأ * يحفون عيني ما حيتُ جنابها
قال ابن رشيّق : ومن جيد ما رُئي به النساء وأشجاء ، وأشدّه
تأثيراً في القلب ، وإثارةً للحزن ، قول محمد بن عیّد الملك الزيات
في أم ولده :

ألا من رأى الطفل المفارق أمّه * بعيد الكرى عيناهُ بتتدرانِ
رأى كل أمٍّ وأبنا غير أمّه * يبيتان تحت الليل ينتعیانِ
وبات وحيداً في الفراش تحتهُ * بلابل قلبٍ دائم الخفقانِ
يقول فيها بعد أبيات :

ألا إن سَجلاً واحداً قد أرقتهُ * من الدمع أوسجّلين قد شفياني
فلا تلحياني إن بكيت فأنما * أداوى بهذا الدمع ما تريانِ
وإن مكاناً في الثرى خطّ لحدّه * لمن كان في قلبي بكل مكانِ

أحق مكان بالزيارة والمهوى * فهل أنما إن عَجْتُ منتظران
ومن أشجى الشعر رثاء قوله في هذه القصيدة :
فهبني عزمت الصبر عنها لأنني * جليدٌ فن بالصبر لأبن ثمان
ضعيف القوي لا يعرف الأجر حسبةً * ولا يأتسى بالناس في الحدثنان
الآمن أمنيهِ المنى وأُعدُّه * لعدرة أياي وصرف زمان
الآمن إذا ما جئت أكرم مجلسي * وإن غبت عنه حاطني ورعاني
ولم أركل أقدار كيف يصبني * ولا مثل هذا الدهر كيف رمان
ومن موجه الشعر قول امرأة شريفة ترى زوجها ولم يكن
دخل بها :

أبكيك لا للنعم والأُنس * بل للعالي والرمح والفرس
أبكي على فارسٍ فُجعتُ به * أرملني قبل ليلة العُرس
يا فارسًا بالعراء مطرحًا * خاتته قوادُّه مع الحرم
من ليتامى إذا همُّ سغبوا * وكل عان وكل محتبس
وإني لآسف على قلة هذا النوع من الشعر في الأدب العربي ، مع أنه
من دلائل الوفاء ، لو يعلم الشعراء .

لوحة الشوق

نمتع القارئ في هذا الباب بألوان من سحر الحديث عن تغفلل
الشوق في طيَّات الفؤاد . فن ذلك قول أحد الشعراء وقد اشتاق إلى
أرض جلق ، وتمنى لو كحل أجفانه بترابها :

وان أصطبارى عن معاهدِ جَلْقِي * غريبٌ فما أجنى الفراقَ وأجفانى
سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربها * كحلت بهامن شدة الشوق أجفانى
وقال أبو بكر بن سعادة يتشوق الى قرطبة :

أقرطبة الفراء هل لى أوبةٌ * اليك وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانب الغربى منك غمامةٌ * وقعقع فى ساحات دوحاتك الرعدُ
لياليك أسحارٌ وأرضك روضةٌ * وتربك فى أستنشاقه عنبرٌ ورْدُ
وإنى لىبكنى قول الشريف :

ذكرت الحى ذكر الطريد محله * يذاذ ذباد العاطشات ويرجعُ
وأين الحى لا الدار بالدار بعدهم * ولا مربعٌ بعد الأحياء مربعُ
سلامٌ على الأطلال لا عن جنابةٍ * ولكن يأساً حين لم يبق مطعمُ
نشدنكم هل زال من بعد أهله * زروذٌ وهل زالت طولٌ وأربعُ
نم عادنى عيد الغرام ونهبت * على الجوى دارٌ بميثاء بلقعُ
وطارت بقلبي نفحة غضوبةٌ * تنفسها حال من الروض مُمرعُ
نظرت الكتيب الأيمن اليوم نظرةً * تود الى الطرف يَدَمَى ويدمعُ
وأيقظت للبرق البانى صاحباً * بذات النقا يخفى مراراً ويلمعُ
أأنت معينى للخليل بنظرةٍ * فنبكى على تلك الليالى ونجزعُ
معاذ الهوى لو كنت مثلى فى الهوى * اذا لدعاك الشوق من حيث تسمعُ
هناك الكرى، إنى من الوجد ساهرٌ * وبرء الحشا، إنى من البيز موجعُ
فلا لب لى إلا تماسك ساعةٍ * ولا نوم لى إلا النعاس المروعُ
ألا ليت شعرى كل دارٍ مُشتةٌ * ألا موطنٌ يدنو بشملٍ ويجمعُ

وأنظر كيف يقول :

وما حاتماتٌ يلتفتنَ من الصدى * إلى الماء قد مُوطِنَ بالشفانِ
إذا قيل هذا الماء لم يملكوا لها * معاجاً بأقرانٍ ولا بمشانِ
بأظما إلى الأحباب منى وفيهم * غريمٌ إذا رمتِ الديونِ لوانى
فيا صاحبي رحلى أقلأ فاني * رأيت بليلى غير ماتريانِ
ويامزجى النضو الطليح عشيّة * تُراك بيطن المأزمين ترائى
وهل أنا غادٍ أنشد النبلة التى * بها عرّصنا ذاك الغزال رمانى
وانظر كيف يستمطر الدمع حين يقول :

خذوا نظرة منى فلاقوا بها الحمى * ونجداً وكُتبان اللوى والمطاليا
ومرّوا على أبياتٍ حيّ برامةٍ * فقولوا لديغٍ يبتغى اليوم راقيا
وقولوا للجيران على الخيف من منى * تراكم من استبدلتم بجواريا
ومن حلّ ذاك الشيب بعدى وأرشت * لواحظه تلك الظباء الجوازيا
ومن ورد الماء الذى كنت واداً * به ورعى الروض الذى كنت راعيا
فوالهفى اكملى على الخيف شهقةً * تذوب عليها قطعة من فؤاديا
صفاء الميش من بعدى لحي على النقا * حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا
فيا جيل الريان إن تعمر منهم * فاني سأكسوك الدموع الجواريا
ويا قرب ما أنكرتم العهد يئتنا * نسيتم وما استودعتم الود ناسيا
أنكرتم تسليمنا ليلة النقا * وموقفنا نرمى الجمار لياليا
عشيّة جارانى بعينه شادن * حديث النوى حتى رى بي المراميا
رى مقتلى من بين سجنى غبيطه * فياراميا لا مساك السوء راميا

فيا ليتني لم أعلُ نشراً إليكم * حراماً ولم أهبط من الأرض واديا
ولم أدر ما جمع وما جرتا مني * ولم ألق في اللاقين حياً يمانيا
ويا ويح نفسي كيف زaidت في مها * بذى البان لا يُشرّين إلا غوايا
ويقول الایوردي يصف شوقه الى حبيبته :

وأقسمُ بالبيت الرّجيب فِناؤُهُ * وبالحجر المثلث والحجر والرّكن
لأنتِ الى نفسي أحب من النّبي * وذكرك لأحلى في فؤادي من الأمن
ويصور الحارث بن خالد شوقه الى عائشة بنت طلحة بشوق الغريق
الى النجاة، ويقول :

يا أمّ عمران ما زالت وما برحت * بنا الصباية حتى مسنا الشفق
ألقب تاق اليكم كي يلاقكم * كما يتوق الى منجاة الغريق
وإنك لتلّس حرارة الشوق في قول العذري

لو جُز بالسيف رأسي في مودتكم * لمّ يهوي سريماً نحوكم رأسي
ولو ليّ تحت أطباق الثرى جسدي * لكنت أبلى هو ما قلبي لكم ناسي
أو يقبض الله روحى صار ذكركم * روحاً أعيش به ما عشت في الناس
لولا نسيمٌ لذكراكم يروّحني * لعدت محترقاً من حرّ أنفاسي
والشوق يحمل ابن الدمينه على أن يحمّد لحبيبته ذكرها له بالمساءة

ويقول :

أرى الناس يرجون الربيع وانما * ربيعي الذي أرجو نوال وصالك
أرى الناس ينجشون السنين وانما * سنّي التي أخشى صروف احتمالك
لئن ساءني أن تلّني بمساءة * لقد سرّني أنّي خطرت ببالك

لَهْنِكَ إِمْسَاكِ بِكَفَى عَلَى الْحِشَا * وَرَقْرَاقِ عَيْنِي رَهْبَةً مِنْ زِيَالِكَ
وَانْظُرْ لَوْعَةَ الشَّوْقِ فِي قَوْلِ أَحَدِ الْمُتَيْمِنِ
أَقُولُ لِأَصْحَابِي وَمِمَّ يَمُذُّونَنِي * وَدَمْعُ جَفُونِي دَائِمُ الْعِبْرَاتِ
بِذِكْرِي نَفْسِي قَبِلُوا إِذَا دَنَا * وَخُرُوجِي مِنَ الدُّنْيَا جُفُوفٌ لَهَا قِي

راحة السلوان

وَمِنَ الْعَاشِقِ مَنْ يَسْتَرْجِعُ إِلَى السَّلْوَانِ ، وَلَكِنْ أَيْنَ إِلَى السَّلْوَانِ السَّبِيلُ ؟
فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْعَدِيلِ بْنِ الْفَرَّخِ
صَحَابِ عَنْ طِلَابِ الْبَيْضِ قَبْلَ مَشْيِهِ * وَرَاجِعِ غَضِّ الْغُرْفِ فَهُوَ خَفِيفُ
كَأَنِّي لَمْ أَزْعِ الصَّبَا وَبِرُوقِي * مِنَ الْحَيِّ أَحْوَى الْمُقْلَتَيْنِ غَضِيفُ
دَعَانِي لَهُ يَوْمًا هَوًى فَأَجَابَهُ * فَوَادُّ إِذَا يَلْقَى الْمِرَاضَ مَرِيفُ
لَسْتُ أَنْسَاتِ بِالْحَدِيثِ كَأَنَّهُ * تَهْلُلُ غُرِّي بِرَقْمَنٍ وَمِيفُ
وَقَالَ الشَّرِيفُ

هِيَ سَلْوَةٌ ذَهَبَتْ بِكُلِّ غَرَامٍ * وَالْحُبُّ نَهَبَ تَطَاوُلَ الْإَيَّامِ
وَلَقَدْ نَضَحَتْ مِنَ السَّلْوِ وَبَرَدِهِ * حَرَّ الْجَوَى فَبَرَدَتْ أَيْ ضَرَامِ
مِنْ بَعْدِ مَا أَظْمَأَ الْغَلِيلُ جَوَانِحِي * وَأَطَالَ مِنْ مَلَلِ الزَّلَالِ أَوَامِي
لَا يَدْعُ الْعَذَّالُ نَزْعَ صَبَابَتِي * يَبْدُو حَسْرَتٍ عَنِ الْغَرَامِ لَثَامِي
فَدَكَاتِ الصَّبَوَاتُ تَعْسَفُ مِقْوَدِي * فَالآنَ سَوْفَ أَطِيلُ مِنْ إِجَامِي
هِيَاهُ يَخْفَضُنِي الزَّمَانُ وَإِنَّمَا * يَبْنِي وَيُنِ الذَّلَّ حَدَّ حَسَامِي
وَوَظَاهِرُ هَذَا الشَّعْرُ أَنَّ أَصْحَابَهُ نَزَعُوا عَنِ الْحُبِّ طَائِفِينَ . وَفِي مُقَابِلِ

هذا المعنى يقول ابراهيم بن العباس :
وعلمتني كيف الهوى وجهاته * وعلمكم صبرى على ظلمكم ظلمى
وأعلم مالى عندكم فيردني * هواى الى جهلى فأرجع عن علمى
ويقول ابن الاحنف فى اليأس من السلوان
تجنب برئاد السلو فلم يجد * له عنك فى الأرض العريضة مذهباً
فعاد إلى أن راجع الوصل صاغراً * وعاد إلى ماتشبهين وأعتبا
ويقول من كلمة نانية

كم قد تجرعت من غيظٍ ومن حرقٍ * إذا تجدد حزنٌ هوّن الماضى
وكم سخطت وما باليتيم سخطي * حتى رجعت بقلبٍ ساخطٍ راضى
ويقول أيضاً ابراهيم بن العباس :

لمن لا أرى أعرضت عن كل من أرى * وصرت على قلبى رقيقاً لقائله
أدافمه عن سلوةٍ وأردّه * حنيناً إلى أوصابه وبلايله
ويقول ابن أذينة

إن التى زعمت فؤادك ملها * خلقت هواك كما خلقت هوى لها
ييضاً باكرها النعيم فصاعها * بلباقه فادقها وأجلها
حببت تحيتها فقلت لصاحبي * ما كان أكثرها لنا وأقلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوةٍ * شفع الضمير الى الفؤاد فسلها
ويقرب من هذا المعنى قول صاحب البدائع

ولما نسيتم ودنا وغرامنا * ولم تحفظوا بعد الفراق لنا عهدا
جعلنا نفض الطرف عنكم وعندنا * من الشوق نارٌ لا تطيق لها وقدا

غدر الغواني

ولابد من ذكر شيء مما تألم له الشعراء في حياة الحب ، التي طالما
يفدر فيها النساء . وإنّا لنجد من ينهم من بحسب الغواني جميعاً غادات ،
ويقول :

فلا تحسبنّ هندا لها الغدر وحدها * سجيّة نفس ، كلُّ غانيةٍ هندا
ويقول كثير في السّخر من عهد النساء

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة * إذا غمزوها بالاً كفّ تلين
تتبعها ما ساعفتك ولا نكنّ * عليك شجاعي الخلق حين تبين
وإنّ هي أعطتك اللّيان فلها * لآخر من خلّانها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدا * فليس الخضوب البنان يمين
وقال الشريف يشكو المطل والتسويق :

يا ظلية البان رعى في خائله * ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه * وليس يرويك إلا مدمع الباكي
وعدّ لعينيك عندي ما وفيت به * يا قرب ما كذبت عيني عيناك
أنت النعيم قلبي والعذاب له * فما أمرك في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها * لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى * من علم العين أن القلب يهواك
وإني ليشجيني قوله من كلمة ثانية :

تهفو إلى البان من قلبي نوازعهُ * وما بي البان بل من داره البان

أَسْدُ سَمَى إِذَا غَفَى الْحَمَامُ بِهِ * كَيْلَا يُبَيِّنَ سِرَّ الْوَجْدِ إِعْلَانُ
وَرَبِّ دَارِ أَوْلِيَّهَا مَجَانِبَةٌ * وَبَى إِلَى الدَّارِ أَطْرَابُ وَأَشْجَانُ
إِذَا تَلَفَتْ فِي أَطْلَالِهَا ابْتَدَرَتْ * لِلْقَلْبِ وَالْعَيْنِ أَمْوَاءُ وَنِزَانُ
كَلَمٌ بِقَلْبِي أَدَاوِيهِ وَيَقْرِفُهُ * طَوْلُ أَذْكَارِي لِمَنْ لِي مِنْهُ نَسِيَانُ^(١)
لَا لِلْوَائِمِ إِقْصَارُ بِلَانِمَةٍ * عَنِ الْعَمِيدِ وَلَا لِلْقَلْبِ سُلْوَانُ
عَلَى مَوَاعِيدِهِمْ خَلْفُ إِذَا وَعَدُوا * وَفِي دِيُونِهِمْ مَطْلُ وَلِيَانُ
هُمْ عَرَضُوا بِوَفَاءِ الْمَهْدِ آوَنَةً * حَتَّى إِذَا عَذَّبُونِي بِالنِّى خَانُوا
وَإِنِ الرُّومَى يَحْمِلُ الْغَدْرَ مِنْ طِبَائِعِ الْحِسَانِ ، أَذِشْبَهَنُ بِالْحَدِيقَةِ ،
تَحْمِلُ الثَّمَرِ حِينًا وَتَعْرِى مِنَ الْوَرَقِ حِينًا ، وَالْيَكِ قَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ
يُؤَايِنَ مَا فِيهِ إِغْرَامٌ وَآوَنَةً * يُؤَلِّينَ مَا فِيهِ لِلْمَعشُوقِ سُلْوَانُ
وَلَا يَدْمُنُ عَلَى عَهْدٍ لِمُعْتَقِدٍ * أَنَّى؟ وَهَنْ كَمَا تُشْبِهَنَ بَسْتَانُ
يَمِيلُ طَوْرًا بِحِمْلٍ ثُمَّ يُعْذِمُهُ * وَيَكْتَسِي ثُمَّ يُلْفَى وَهُوَ عُرْيَانُ
تَغْدُو الْفَتَاةُ لَهَا خِلٌّ فَانْغَدَرَتْ * رَاحَتْ يَنَافُسُ فِيهَا الْخِلُّ خُلَانُ
مَالِ الْحَسَنِ مَسِئَاتٍ بَنَّا وَنَا * إِلَى الْمَسِئَاتِ طَوْلُ الدَّهْرِ تَحْنَانُ
وَإِنْ تُبْعِنَ بَعْدَ قَلْبٍ مَعْذَرَةٌ * إِنَّا نَسِينَا وَفَى النَّسْوَانِ نَسِيَانُ
يَكْفَى مُطَالِبِنَا بِالذِّكْرِ نَاهِيَةً * أَنْ اسْمُنَا الْغَالِبُ الْمَشْهُورُ نِسْوَانُ
لَا نَلْزِمُ الذِّكْرَ إِنَّا لَمْ نَسَمَّ بِهِ * وَلَا مَنُحْنَاهُ بِلَ الذِّكْرِ ذِكْرَانُ
فَضَلَ الرِّجَالُ عَلَيْنَا أَنْ شِيمَتَهُمْ * جُودٌ وَبَاسٌ وَأَحْلَامٌ وَأَذْهَانُ

(١) الكلام : الجرح - وقرئ الجرح إصابته من جديد

وَأَنْ فِيهِمْ وَفَاءٌ لَا تَقُومُ بِهِ * وَلَنْ يَكُونَ مَعَ النِّقْصَانِ رَجَحَانُ
 صَدَقْنَ مَا شِئْنَ لَكِنَّا نَقْنَصُنَا * مِنْهُنَّ عَيْنٌ تَلَاقَيْنَا وَأُدْمَانٌ^(١)
 أَنْكِ وَأَزْكَى حَرِيقًا فِي جَوَانِحِنَا * خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ وَالْأَلْوَانِ نِيرَانُ
 إِذَا تَوَرَّقْنَ وَالْإِشْرَاقِ مَضْطَرَمٌ * فِيهِنَّ لَمْ يَمْلِكِ الْأَسْرَارُ كِتْمَانُ
 مَاءٌ وَنَارٌ فَقَدْ غَادَرْنَ كُلَّ فِتْنٍ * لَا بَسَنَ وَهُوَ غَزِيرُ الدَّمْعِ حَرَّانُ
 تَخْضَلُ مِنْهُنَّ عَيْنٌ فِي بَاكِيَةٍ * وَيَسْتَحِرُّ فَوَادُ وَهُوَ هِيَامَانُ
 وَقَالَ فِتْنٌ فِي ابْنَةِ عَمِّهِ، وَقَدْ تَجَنَّتْ عَلَيْهِ وَغَدَرَتْ بِهِ

أَحِبَابُنَا لَوْ تَعْلَمُونَ بِحَالِنَا * لِمَا كَانَتْ اللَّذَاتُ تَشْغَلُكُمْ عَنَّا
 تَشَاغَلْتُمْ عَنَّا بِصُعْبَةٍ غَيْرِنَا * وَأَبْدَيْتُمُ الْمَجْرَانَ مَا هَكَذَا كُنَّا
 وَأَلَيْتُمْ أَنْ لَا تَخُونُوا عَهْدَنَا * فَقَدْ وَحْيَاةَ الْحُبِّ خَبْتُمْ وَمَا خُنَّا
 غَدَرْتُمْ وَلَمْ تَنْفِرُوا خَنْتُمْ وَلَمْ تَخْنِ * وَخُطِمْتَ عَنِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَمَا حُلْنَا
 وَقُتِمْتَ وَلَمْ تَوْفُوا بِصَدَقِ حَدِيثِكُمْ * وَنَحْنُ عَلَى صَدَقِ الْحَدِيثِ الَّذِي قُلْنَا
 وَكَانَ صَخْرُ بْنُ عَمْرٍو، أَخُو الْخُنَسَاءِ، يَجِبُ سَلْمَى بِنْتُ عَوْفِ ثَم
 تَزَوَّجَهَا، وَتَمَاهَدَا عَلَى أَنْ لَا يَتَزَوَّجَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا بَعْدَ صَاحِبِهِ، ثُمَّ
 طَلَعْنَ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، فَرَضَ سَنَةٌ كَامِلَةٌ. فَقَصُرَتْ زَوْجُهُ فِي السَّهْرِ
 عَلَيْهِ، وَالرَّفْقُ بِهِ. وَلَا كَذَلِكَ أُمُّهُ الرِّعُومُ. قَالُوا: وَسَمِعَ يَوْمًا
 امْرَأَةً تَقُولُ لِأُمِّهِ: كَيْفَ حَالُ صَخْرٍ؟ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ مَا دُمْنَا
 نَرَى وَجْهَهُ. وَسَمِعَ أُخْرَى تَقُولُ لِأُمِّهِ كَيْفَ حَالُ صَخْرٍ؟ فَقَالَتْ:
 لَا حَيٌّ فَيُزَجِّى، وَلَا مَيِّتٌ فَيُنْعَى ۝ وَحَكَى أَنَّهُ جَلَسَ يَوْمًا لَيْسَ تَرِيحُ وَقَدْ

(١) عَيْنٌ جَمْعُ عَيْنَاءٍ وَهِيَ جَبَّةُ الْمَيِّتِ . وَالْأُدْمَانُ الطَّيَاءُ

رُفِعَ لَهُ سَجْفُ الْبَيْتِ ، فَرَأَى سَلْمَى وَاقِفَةً تَحَادِثُ رَجُلًا مِنْ بَنِي عَمِّهَا وَقَدْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَجِيزَتِهَا ، فَسَمِعَهُ يَقُولُ لَهَا : أَيُّبَاعَ هَذَا الْكَفَلِ ؟ فَقَالَتْ عَنْ قَرِيبٍ ! فَقَالَ صَخْرٌ لَأُمِّهِ : عَلَى بَسِيفِي ، لَا نَظَرَ هَلْ صَدِيقٌ أُمٌّ لَا . فَأَتَتْهُ بِهِ فَجَرَّدَهُ ، وَجَمَّ بِقَتْلِ سَلْمَى . فَلَمَّا دَخَلَتْ رَفَعَ السَّيْفَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ حَمْلَهُ . فَبَكَى وَقَالَ

أَرَى أُمَّ صَخْرٍ لَا تَمَلُّ عِيَادَتِي * وَمَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعِي وَمَكَانِي
فَأَيُّ أَمْرٍ سَاوَى بَأَمِّ حَلِيلَةٍ * فَلَا عَاشَ إِلَّا فِي شَقٍّ وَهَوَانٍ
أُمُّ بَأَمْرِ الْحَزْمِ لَوْ أُسْتَطِيعَتْ * وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَبْرِ وَالنَّزْوَانِ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَكُونَ جَنَازَةً * لَدَيْكَ وَمَنْ يَفْخَرُ بِالْخَدَّائِنِ
وَيَذْكُرُونَ أَنَّ غَسَّانَ بْنَ جَهْضَمٍ كَانَ مَفْتُونًا بِأَبْنَةِ عَمِّهِ ، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا ،
فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ حَلَفَتْ لَا تَتَزَوَّجُ مِنْ بَعْدِهِ ، ثُمَّ حَنَنْتُ فِي يَمِينِهَا ،
فَأَنْشَدَهَا فِي نَوْمِهَا لَيْلَةَ الزَّفَافِ

غَدَرْتُ وَلَمْ تَرَعِي لِبَعْلِكَ حَرَمَةً * وَلَمْ تَعْرِفِي حَقًّا وَلَمْ تَحْفَظِي عَهْدًا
وَلَمْ تَصْبِرِي حَوْلًا حِفَاطًا لَصَاحِبِ * خَلَفْتَ لَهُ يَوْمًا وَلَمْ تَنْجِزِي وَعْدًا
غَدَرْتُ بِهِ لَمَّا ثَوَى فِي ضَرْبِهِ * كَذَلِكَ يُنْسَى كُلُّ مَنْ سَكَنَ الْإِحْدَا
وَيَذْكُرُنِي هَذَا الشَّعْرُ بِقَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ

إِذَا مَا اتَّقَضْتَ عَنِّي مِنَ الْعَيْشِ مَدَّتِي * فَإِنَّ غَنَاءَ الْبَاكِياتِ قَلِيلٌ
سَيَعْرِضُ عَنْ ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي * وَيَحْدُثُ مِنْ بَعْدِ الْخَلِيلِ خَلِيلٌ
وَهَذِهِ طَبِيعَةُ الْعَالَمِ يَا صَاحِبَ ، فَاقْضِ مِنْ أَوْطَارِكَ مَا أَنْتَ قَاضٍ
وَاتْرِكِ الْوَحْمَ لِلْمَجَانِينِ ١١

ميزان الحب

ميزان الحب فيما يرى جميل أن يهب الحب لمحبوبه دمه وماله ، وانظر كيف يقول

لما الله من لا ينفع الود عنده * ومن حبله إن مد غير متين
ومن هو ذولونين ليس بدائم * على ثقة خوان كل أمين
فلو أرسلت يوماً بثينة تبغني * يميني ولو عزت على يميني
لأعطيتها ما جاء يميني رسولها * وقلت لها بعد اليمين سلمي
سلمي مالي يابسين فانما * يمين عند المال كل ضنين
فإلك لما خبر الناس أني * أسأت بظهر الغيب لم تسلمي
فأبلى عندي أو أجيء بشاهد * من الناس عدل أنهم ظلموني
فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي * وهموا يقتلي يابسين لقوني
إذا ما رأوني طالما من ثنية * يقولون من هذا وقد عرفوني

الليالي الخوالي

وما أكثر حنين الشعراء إلى الأيام السوالف ، والليالي الخوالي ١١
ويذكرون أن المتوكل أحب أن يتادمه الحسين بن الضحاك ، ليرى
ما بقي من ظرفه ، وشهوته لما كان عليه . فأحضره وقد كبر وضئف ،

* في كتاب « الأخلاق عند النزالي » بحث مفصل عن الحب من الوجهة الفلسفية . طبع
إليه القاري . إن شاء

فسقاه حتى سكر، وقال لخادمه شفيع: اسقه افسقاه وحياته بوردة.
وكانت على شفيع أثواب موددة. فمد الحسين يده الى درع شفيع.
فقال المتوكل: انجس غلامى بحضرتى؟ فكيف لو خلوت به! ما أحوجك
يا حسين الى أدب! وكان المتوكل غمز شفيعاً على العيب به. فقال الحسين:
ياسيدى! أريد دواة وقرطاساً. فأمر له بهما فكتب:

وكالوردة البيضاء حياً بأحر * من الورد يسقى فى قراطى كالورد
له عبتات عند كل نحيمة * بكفيه يستدعى الخلى الى الوجد
تمنيت أن أسقى بكفيه شربة * تذكرنى ماقد نسيت من العهد
سقى الله عيشاً لم أبت فيه ليلة * من الدهر الامن حبيب على وعد
فطرب المتوكل لهذا الشعر، وعم بتقديم الغلام إليه، لو كان مما
تسمح بمثله النفس!!

وانظر ما يقول ابن هانيء فى ذكرى أيامه السوالف
فمن فى مآتم على العشاق * ولبسن السواد فى الأحقاد
وبكين الفراق بالغم الرطب المقنأ وبألحدود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا * هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمع طليق ومهجة فى وفاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى * آذتوا بالفراق قبل التلاق
ودنوا للوداع حتى ترى الأجياد فوق الأجياد كالأطواق
يوم راهنت فى البكاء عيوننا * فتقدمت فى عنان السباق
أمنع القلب أن يذوب ومن يمنع جمر الغضى عن الاحراق

ربّ يومٍ لتأرقق حواشي اللّهم — حُسناً جوّال عقد النطاق
قد لبسناه وهو من نضجات السّمكِ درج الجيوب درج التراق

وما أوجع قول ابن الرومي في البكاء على لياليه الخوالى

أَيَّامُ لَهْوِي هَلْ مَوَاضِيكَ عُوْدُ * وَهَلْ لَشَبَابٍ ضَلَّ بِالْأَمْسِ مُنْشِدُ
رُزْتُ شَبَابِي عُوْدَةً بَعْدَ بَدَاقٍ * وَهَنْ الرِّزَايَا بِأَدْنَاتٍ وَعُوْدُ
سَلَبْتُ سَوَادَ الْعَارِضِينَ وَقَبْلَهُ * يَبَاضُهُمَا الْمَحْمُودُ إِذَا أَنَا أَمْرُدُ
وَبَدَّلْتُ مِنْ ذَلِكَ الْبَيَاضِ وَحُسْنِهِ * يَبَاضُنَا ذَمُّهَا لَا يَزَالُ يُسَوِّدُ
لَشَتَانِ مَا يَنْ الْبَيَاضِينَ : مَعْجَبٌ * أَتَيْقُ وَمَشْنُوهُ إِلَى الْعَيْنِ أَنْكَدُ
وَكُنْتُ جَلَاءَ لِلْعَيُونِ مِنَ الْقَذَى * فَقَدْ جَعَلْتُ تَقْذِي بِشَيْبِي وَتَرْمَدُ
هِيَ الْأَعْيُنُ النَّجْجَلُ الَّتِي كُنْتُ تَشْتَكِي * مَوَاقِعُهَا فِي الْقَلْبِ وَالرَّأْسِ أَسْوَدُ
فَلَكَ تَأْسِي الْآنَ لِمَا رَأَيْتَهَا * وَقَدْ جَعَلْتُ مَرْمِي سَوَاكِ تَعَمْدُ
تَشْكِي إِذَا مَا أَقْصَدْتُكَ سَهَامَهَا * وَتَأْسِي إِذَا تَكَلَّبْتَ عَنْكَ وَتَكْمَدُ
كَذَلِكَ تِلْكَ التَّبِيلُ مِنْ وَقَعْتُ بِهِ * وَمَنْ صُرِفَتْ عَنْهُ مِنَ الْقَوْمِ مُقْصَدُ
إِذَا عَدَلْتُ عَنْهَا وَجَدْنَا عَدُولَهَا * كَوَقَعُهَا فِي الْقَلْبِ بَلْ هُوَ أَجْهَدُ
وَيَبْضَاءُ يَخْبُو دُرُّهَا مِنْ يَبَاضِهَا * وَيَذْكُورُ لَهُ يَاقُوتُهَا وَالزُّبُرْجُدُ
إِذَا مَا التَّقَى السُّكْرَانُ : سَكْرُ شَبَابِهَا * وَأَكْوَابُهَا ، كَادَتْ مِنَ اللَّيْلِ تَعْقِدُ
لَهْوَتْ بِهَا لَيْلًا قَصِيرًا طَوِيلُهُ * وَمَالِي إِلَّا كَفْهًا مُتَوَسِّدُ
وَكَمْ مِثْلُهَا مِنْ ظُلْمَةٍ قَدْ تَفَيَّاتُ * زِلَالِي وَأَغْصَانُ الشَّيْبَةِ مُيْتِدُ

ليالى سنتريس *

وقدأ كثر صاحب البدائع من الحنين الى سنتريس ، وهى
مهوى قلبه ، ومُنِيَّةُ روحه ، إذ كانت مَلْعَبُ صباه ، وميدان لَهْوِه ،
فى أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى !
وانظر كيف يقول :

ليالى النيل واللذات ذاهبة * وجدى عليكى أشجاني فأضناني
لو يرجع الدهر لى منكن واحدة * فى سنتريس ويُدنى بعضُ خلاني
إذا تبين دهرى كيف يرحمنى * من ظلم هـى ومن عدوان أحزاني
كم ليلة لى بذاك النهر سالفه * قضيتها بين غاداتٍ وولدانِ

وذى دلال هو الدنيا وزينتها * يردى الأسود بطرفٍ منه نسانِ
كأنما فعل عينيه بعاشقه * فعل المدامة فى أعطافِ نشوانِ
شربت من ريقه راحاً مشعشة * بخالص الودِّ لم تمزج بسُلوانِ
وكم حبيبٍ براح الريق أسكرنى * وكم جميلٍ بورد الخلد حيّاني

يا مؤقذ النار فى قلبى مؤججة * وقاطنا بين أنهار وريحانِ
عرج على فـا نفسى بصابرة * على نواك وما طر فى بوسنانِ
واليك قوله من كلمة ثانية

* فى مقدمة كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) وصف شائق لهذا البلد الطيب الجميل

إليه يا فتنة الوجود سلامٌ * من مَشوقٍ مَتِّمٍ القلبِ عانٍ
لو يشاء الهوى حوتك ضلوعٌ * حائِثاتٌ على صباكِ حواني
فارحى فانيًا من الوجد يشقى * بفرامٍ مؤجَّجٍ غيرِ فاني
رتقتَ وردةً الليالي فأمسى * يرقب الصفوف من خلال الأمانى

آه لو يسمح الزمان ونلقى * من طوى قريهم عناد الزمان
وترى سينترس والدهر غافٍ * ما قضينا من الليالي الحسان
حين كنا من السرور نشاوى * في نِجاةٍ من النوى وأمانٍ
تتساقى الحديث عذنا شيئاً * وقطوف المنى رطاب دوانى

يا خليلي والرفيق معينٌ * أسفاني يبعث ما تملكاني
أبتغي آسياً فقد عيل صبري * من توالى الوجيب والخفقان
أبتغي صاحباً توله قبلي * وشجاءه من الجوى ما شجاني
فلقد يُسعف الجريح أخاهُ * ويواسي الزميل في الأحزان

وقد لحن هذه القصيدة البلبل الفرّيد الشيخ عبد السمیع عيسى الباجورى
وما أروع شعر الوجدان إذا غنى بمثل صوته العذب الجميل ۱۱

صبا نجد

وما أشوق القلب إلى شميم صبا نجد ! فقد حَبَّبه إلينا الشعراء
حتى لنجد (صردُر) يرى المرور بنجد شركا من أشراك الهوى ،
حين يقول

النَّجْدُ النِّجْدُ النِّجْدُ مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ * قَبْلَ أَنْ يَمْلُقَ الْفُؤَادُ بُوْجْدِ
إِنْ ذَاكَ الْبَرَى لِيَنْبِتَ شَوْقًا * فِي حَشَامِيَّتِ اللَّبَابَاتِ صَلْدِ
كَمْ خَلَى غَدَا إِلَيْهِ وَأَمْسَى * وَهُوَ يَهْدِي بَعْلُوهُ أَوْ يَهْدِي
وِظْبَاهٍ فِيهِ تُلَاقُ الْمَوَالِي * وَالْمَعَادَى مِنَ الْجَمَالِ يَجُنْدِ
بَشْتِيَتْ مِنَ الْمِبَاسِمِ يَغْرَى * وَسَقَامٍ مِنَ الْحَاجِرِ يَمْدِي ^(١)
وَبَنَانٍ لَوْلَا اللَّطَافَةُ ظَنَنْتُ * لَجَنَائِهَا بَرَانِ أَسْدِ
وَحَدِيثٍ إِذَا سَمِعْتَهُ لَمْ نَدِ * رِيْجُخْرِ نَضَحْتُنَا أَمْ بِشَهْدِ
أَنْفَتٍ مِنْ بَرِاقِ الْخَزِّ وَالْقَزِّ * خَدُودُهُ قَدْ بَرَقَ مَوْهَا بَوْرْدِ
ويقول الطفراني

يَا حَبِذَا نَجْدٌ وَأَعْرَاقُ الْبَرَى * لَذَنُّ وَأَنْفَاسُ النَّسِيمِ دَقُّ
فَهَوَاؤُهُ خَصِرُ النَّسِيمِ وَتَرْبُهُ * حَالِي الْأَدِيمِ وَمَاؤُهُ دِرَاقِ
وَيْسَا كُنِيهِ أَنْ اسْتَقَرَّ بِنَا النَّوَى * أَشْفَى النَّفُوسِ وَتُمْسَكَ الْأَرْمَاقِ
ويقول ابن الخياط

خَذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَانًا لِقَلْبِهِ * فَقَدْ كَادَ رِيَاها يَطِيرُ بِلَبِهِ

(١) المراد بالمبسم الشئ الثمر الملتج

ويا كما ذاك النسيم فانه * إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
 خليلي لو أحبتنا لعلمتنا * مكان الهوى من مغرم القلب صبه
 تذكروا الذكري تشوق وذو الهوى * يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
 غرام على بأس الهوى ورجائه * وشوق على بعد المزار وقربه
 وقال ابن التعاويذي

يا رفيق هل لذهاب أبا * لم تقضت حميداً من مرّة
 أنجدني بوقفة في مغاني السحى * إن جزتما بأعلام نجد
 وابكياها بمقلتي وأسألاها * من سقاها ماء المدام بعدى
 جنباً عندها مصارع من ما * تبداء الغرام فالشوق بعدى
 فبأكنافها جاذر رمل * بين أثوابها برائن أسد

جناية العين والقلب

من الشعراء من يرى أن عينه سبب بلائه ، كقول خالد الكاتب
 أعان طرفي على جسني وأحشائي * بنظرة وقفت جسماً على داني
 وكنت غراً بما يحني على بدني * لا علم لي أن بعضي بعض أدواني
 ومثله قول الأرجاني

تمتعنا يا مقلتي بنظرة * وأوردت ما قلبي أشد الموارد
 أعينى كفاً عن فؤادي فانه * من البغي سمى اثنين في قتل واحد
 ويرى الشريف الرضي أن قلبه سبب شجاءه ، ويقول

قلب كيف علقت في أشراكهم * ولقد عهدتكم ثقلت الأشرار كما

أَكْبِتْ حَتَّى أَقْصِدَكَ سَهَامِهِمْ * قَدْ كُنْتُ عَنْ أُمَثَالِهَا أَنَهَا كَا
إِنْ ذَبْتُ مِنْ كَمْدٍ فَقَدْ جَرَّ الْهَوَى * هَذَا السَّقَامُ عَلَى مَنْ جَرَّ كَا
لَا تَشْكُونَ إِلَيَّ وَجَدًّا بَعْدَهَا * هَذَا الَّذِي جَرَّتْ عَلَى يَدَا كَا
لَا عَاقِبَتَكَ بِالْغَلِيلِ فَانِي * لَوْلَاكَ لَمْ أَذُقِ الْهَوَى لَوْلَا كَا

وَيَأْسَى صَرْدَرٌ عَلَى أَنْ كَانَتْ أَجْفَانُهُ حِجَابَ قَلْبِهِ ، وَيَقُولُ
لَوْ أَحْظَنَّا تَجَنُّي وَلَا عِلْمَ عِنْدَهَا * وَأَنْفُسَنَا مَأْخُودَةً بِالْجُرَائِرِ
وَلَمْ أَرَأْغِبِي مِنْ نَفُوسٍ عَفَائِفٍ * تَصْدُقُ أَخْبَارَ الْعِيُونَ الْفَوَاجِرِ
وَمَنْ كَانَتْ الْأَجْفَانُ حِجَابَ قَلْبِهِ * أُذِنَ عَلَى أَحْشَائِهِ لِلْفَوَاقِرِ
وَقَالَ ابْنُ الْأَحْنَفِ يَشْكُو ظِلْمَ قَلْبِهِ وَحَبِيبِهِ

يَهِيمُ بِحِيرَانِ الْجَزِيرَةِ قَلْبُهُ * وَفِيهَا غَزَالُ فَاتِرِ الْعُظْرِ سَاحِرِهِ
يُؤَاذِرُهُ قَلْبِي عَلَى وَليْسَ لِي * يَدَانِ بَيْنَ قَلْبِي عَلَى يُوَاذِرِهِ

قضاء الله

وَنَحْنُ هَذَا الْكِتَابُ يَقُولُ صَاحِبُ الْبِدَائِعِ
قَالُوا عَشَقْتُ فَقُلْتُ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ * لَمْ تَفْنِ فِيهَا حِكْمَةُ الْحِكَمَاءِ
إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْمَلَاةَ لَمْ يَشَأْ * إِلَّا شَقَائِي فِي الْهَوَى وَبِلَائِي
وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ

فهرس

صفحة	صفحة
مدارة الرقاء ١٤٢	الاهداء ٣
بخل الحسان ١٤٥	المقدمة ٤
الامر للحب ١٤٩	مذاهب النسيب ١٧
حمل السلام ١٥١	موجبات الدموع ١٨
دموع الفانيات ١٥٥	عذر أرباب الدموع ٢٥
ندامة المفارق ١٦٠	الاكتفاء بالدموع ٢٧
غربة الحب ١٦٦	الفرع الى الدموع ٢٨
الامل الضائع ١٦٨	الدمع عند الوداع ٣١
الكمان ١٧٢	الدمع بعد الفراق ٣٥
قسوة التجني ١٧٩	شكوى الصباية ٣٩
ظلم الحبيب ١٨٢	عند منازل الاحباب ٤٧
قساة القلوب ١٨٤	وشاية الدموع ٦٥
سيف الفراق ١٨٧	سلطان الحب ٦٧
الحرب من الفراق ١٩٠	غرام النساء بالنساء ٧٣
غراب البين ١٩١	طيف الخيال ٧٦
فقد الزاء ١٩٢	خيال البحترى ٧٩
بكاء الشباب ١٩٥	طرفة أدبية ٨٧
بلايا الفيرة ١٩٨	اليأس والرجاء ٨٩
الاستعطاف ٢٠٢	العتاب ٩١
الحنين ٢٠٩	نوح الحمام ١٠٩
الرفق بالحبيب المريض ٢١٦	التقرب بالدموع ١١٦
القبول والنحول ٢١٧	ثورة الوجد ١٢٠
أمانى المحبين ٢٢٠	الأرق والسهاد ١٢٧
الهيبة والخضوع ٢٢٤	الطبيعة فى أقمس الشمرء ١٣٧

صفحة	صفحة
بكاء الملاح ٢٤١	الرضى بالقليل ٢٢٥
بكاء الحلائل ٢٤٩	شفاء المحب ٢٢٧
لوعة الشوق ٢٥٠	القلب الخافق ٢٢٨
راحة السلوان ٢٥٤	مثال الحبيب ٢٣٠
غدر الغواني ٢٥٦	أهوال الصدود ٢٣١
ميزان الحب ٢٦٠	التلفت الى معالم الوجد ٢٣٣
الليالى الخوالى ٢٦٠	الصد والنوى ٢٣٥
ليالى سنتريس ٢٦٣	القريب البعيد ٢٣٦
صبأ نجد ٢٦٥	حلاوة الملام ٢٣٧
جناية العين والقلب ٢٦٦	رؤية الضمير ٢٣٩
قضاء الله ٢٦٧	القلب والكبد ٢٤٠

كتب أخرى للمؤلف تحت الطبع

١
الصور الشعرية

٢
أفنان الجمال

٣
صبابة ابن الاحنف

٤
خبرات أبى نواس

٥
آراء الجاحظ الفلسفية والأدبية

حبيبنا زكي وشيخنا

بقلم

الدكتور زكي مبارك

من كان بطبعه ميّالاً إلى الحرية في الفكر، والاستقلال في الرأي،
وكان مع ذلك محباً للانصاف، راغباً في الاعتدال، فليقرأ هذا الكتاب:
فانه يُنمّي فكرته، ويقوّي شخصيته، ويزيده بصراً بالنقد. وعلماً بالشعر،
ويهديه السبيل إلى فهم الأدب، والحكم على الشعراء
وجديرٌ بمن نظر فيه أن يكمل علمه، ويكبر عقله، لما عُرف به
الاستاذ زكي مبارك من سلامة الذوق، وأصالة الرأي، وما امتاز به
من بُعد النظر، ودقّة الملاحظة، مع ماله من رشاقة الاسلوب، ومتانة
التركيب، إلى غير ذلك من الميزات التي تجعلنا نأمل كثيراً أن يكون
هذا الابن البار إماماً من أئمة الأدب، وعظيماً من عطاء الأئمة
جعله الله قدوةً لشباننا العاملين، وأبنائنا الناهضين، والسلام

مصطفى القاياني

٢٥ فبراير سنة ١٩١٩

العلاج

كتاب يمثل قوة الحق وروعة الجمال

بقلم

زكي مبارك

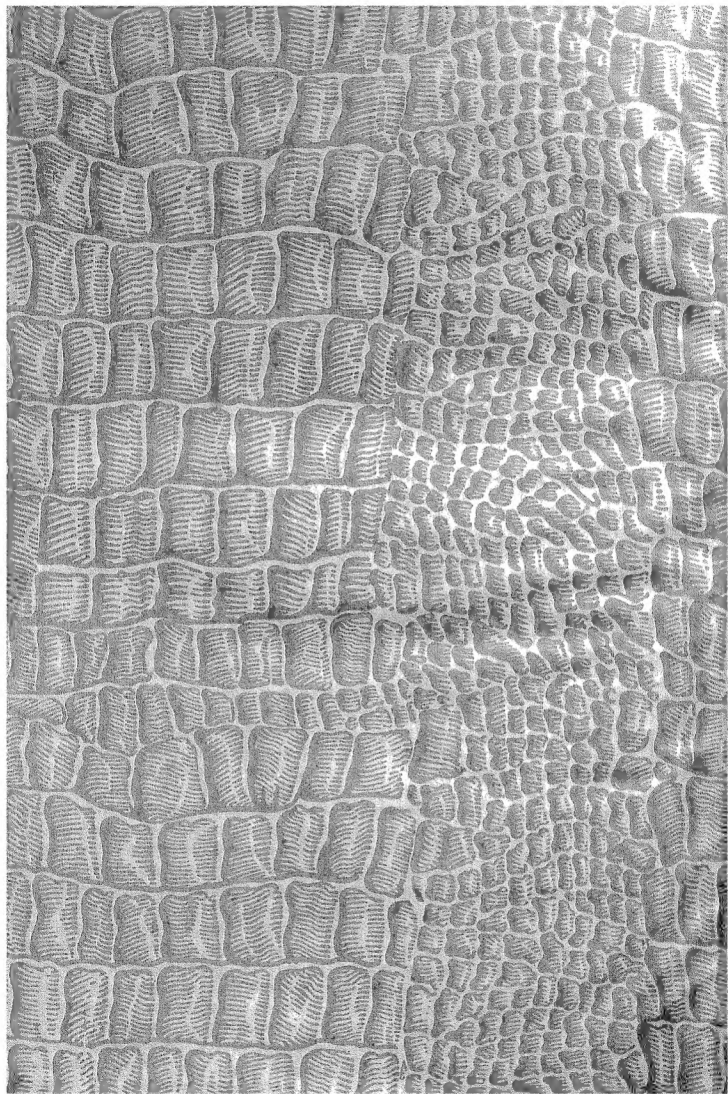
ما بال فريق من الناس ، يؤمنون بما خلقت له أيديهم وأرجلهم ،
وعيونهم وآذانهم ، ثم يرتابون فيما خلقت له عقولهم ؟
فلا وربك لا يؤمنون حتى يعرفوا أن المؤمن عن نعمة العقل مستول .
وما كنت لأعقّ العقل ، وقد حكّمه الله يوم هداني إلى الإيمان . فن كان
يريد أن يرى غضبي للحق ، وعبادتي للجمال ، فليقرأ هذا الكتاب .
ومن كان يريد أن يرى صورة مكررة لمن سلف من الكتاب والشعراء ،
فليعلم أن الجمل أحب إلى من أن أكون صدّي لأحد من القدماء ، أو
المحدثين . وما أهون التوضيح في سبيل الإبداع إذا انحصرت في الجمل !
زكي مبارك

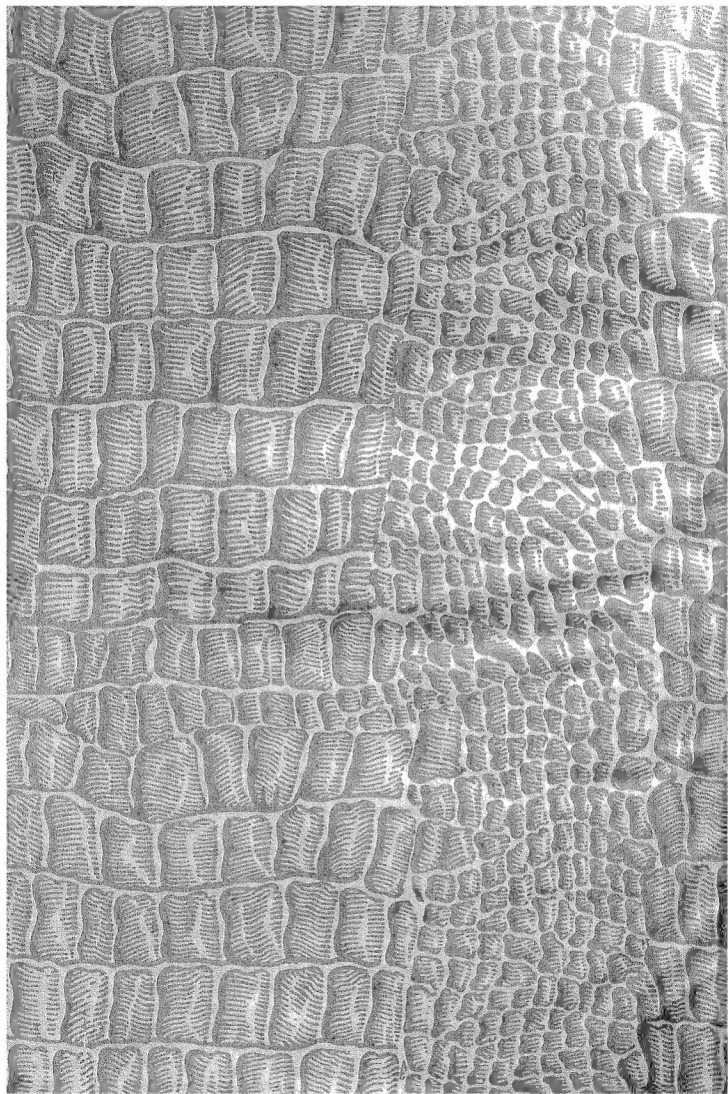
الاخلاق عند الغزالي

قدّم هذا الكتاب إلى الجامعة المصرية ، ونقش أمام الجمهور في ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيد جداً » ولقب دكتور في الآداب

يقع هذا الكتاب في ٤٣٤ صفحة ، وبه كثير من الرسوم التاريخية التي تمثل طائفة من المعالم القديمة ، وبه مقدمة بديعة بقلم الكاتب الفيلسوف الدكتور منصور فهمي . . وهذا الكتاب ضروري جداً لمن يجب الوقوف على فلسفة الأخلاق ، وعلى العصر الذي عاش فيه الغزالي ، والمصادر التي استقى منها آراءه الفلسفية ، والفرق بين الخير والشر ، والكفر والإيمان ، والشك واليقين ، والجبر والاختيار ، وما إلى ذلك من المباحث الهامة التي حار في فهمها المتقدمون ، وخبّط أكثرهم فيها خبط عشواء . وفي هذا الكتاب باب ممتع في الموازنة بين الغزالي وبين الفلاسفة المحدثين ، حيث تناول المؤلف بالنقد والتحليل آراء ديكارت ، وبسكال ، وهوبس ، وبوتلير ، وكارليل ، وسبينوزا ، وجسّندي ، وما لابانش . . وفيه كذلك صورة لآراء علماء العصر في الغزالي : كالدكتور منصور فهمي ، والشيخ علي عبد الرزاق ، ومحمد بك جاد المولى ، وعبد بك خير الدين ، والشيخ عبد العزيز شاويش ، والكونت دي جالارزا ، والشيخ عبد الوهاب النجار ، والشيخ حسين والي ، والشيخ عبد الباقي سرور ، والشيخ يوسف الدجوي

وقد قامت حول هذا الكتاب ضجة عنيفة ، فمن الواجب أن يطلع عليه أهل العلم ليقفوا على كنهه ما فيه من آثار حرية الفكر والرأي





Bibliotheca Alexandrina



0653245